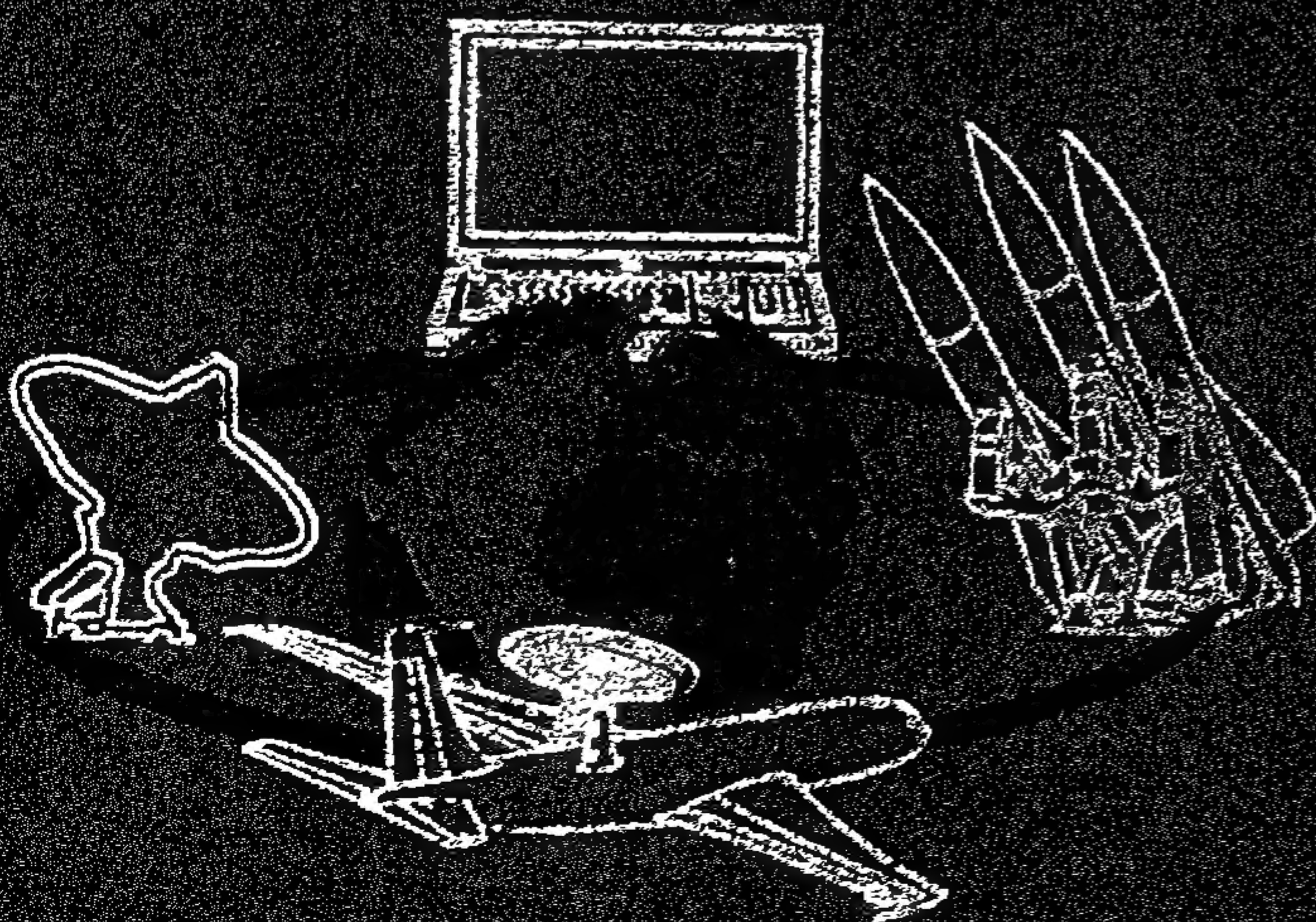
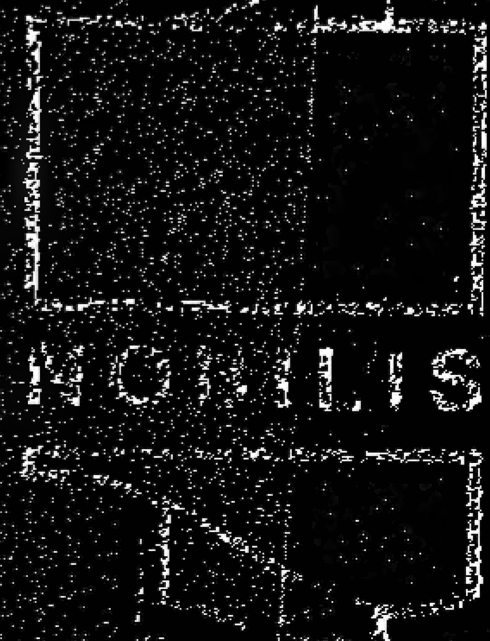
موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم





موسوعة عالم المخابرات

كلّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالم

الإستخبارات في الدول العربيّة (١)

أسعَد مفرِّج

ولجنة من الباحثين

موسُوعَة

عَالَـــــم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيّة والاستخبارات في العالَم

الجزء الثّاني عشَر

الإستخبارات في الدُّول العَرَبيَّة (١)

NOBILIS
MAISON D EDITION

إسم المَجموعَة	:	عَالَـــــــم المُخابَرات كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	الإستخبَارَات في الدُّول العَرَبيَّة (١)
الجِزء	:	الثَّاني عشر
المؤلّف	:	أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٥٨١١٢١ ـ ١ ـ ٩٦١
	:	٥٨١١٢١ ـ ٣ ـ ٩٦١

الشَّرقُ الأوسَط: أبرزُ مسَارحِ الأحداَث

يعتبر بعض المعنيّين بتحديد مضامين أسماء المناطق أنّ الشرق الأوسط، إسم يُطلق على مجموعة متجاورة من مناطق أسيا الجنوبيّة وغيرها، وهي المناطق التي تشكّل اليوم أراضي كلّ من تركيا وإيران والعراق وفلسطين بشقّيها العربيّ والإسرائيليّ والمملكة الأردنيّة الهاشميّة ولبنان وسوريا وشبه الجزيرة العربيّة (المملكة العربيّة السعوديّة واليمن ومسقط وعُمان واتّحاد الإمارات العربيّة وقطر والكويت والبحرين ودُبَي...) إضافة إلى السودان ومصر. ويتعدّاها عند البعض إلى دول المغرب العربيّ، وعند البعض الآخر إلى أفغانستان والباكستان[١].

ويقول باحثون[٢] إنّه كان للعامل الجغرافيّ، في الأساس، دوره البارز على صعيد هذه التسمية، إنطلاقًا من الموقع الاستراتيجيّ الهامّ والفائدة الكبرى من التحكّم به. من هنا كان الاهتمام الغربيّ بهذه المنطقة حتّى على صعيد المصطلحات التي أُطلقت عليها. وليس من غريب الصدف أن يبادر أحد كبار رجال الاستخبارات البريطانيّة، وهو الدكتور "ديفيد جورج هوغارث"، إلى إطلاق مصطلح "الشرق الأدنى" على منطقة كان يُطلق عليها في السابق إسم "الشرق". وقد ورد هذا المصطلح في مؤلّفه

---

١ ـ مفرّج طوني، المجتمعات الدينيّة في الشرق الأوسط، ٧ أجزاء، منشورات نوبليس، ط١ (بيروت، ١٩٩٥) ١: ٥.

٢ ـ مجلّة "الفكر الاستراتيجي العربيّ"، معهد الإنماء العربي، (بيروت، ١٩٨٢) عدد رقم ٥، تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٨٢، ص١٨٦، ٢٠٩.

الجغرافيّ "الشرق الأدنى" المنشور في عام ١٩٠٢. وفي العام نفسه، ولاعتبارات استراتيجيّة وجيوسياسيّة، برز مصطلح "الشرق الأوسط" من اختراع الأميرال البحري الأميركيّ "ألفرد تايرماهان". لكنّه رآه كمفهوم استراتيجيّ متحرّك ومتغيّر أكثر ممّا هو مكان جغرافيّ ثابت. فبالنسبة إليه يُعتَبرُ الشرق منطقة غير محدّدة تحرس جزءًا من الطرق البحريّة من السويس إلى سنغافورة. ومنطقة ربط تتجمّع فيها القوى الاستعماريّة الأوروبيّة الرئيسيّة من أجل السيادة على العالم... وفي الحقيقة كان ألفرد تايرماهان يلفت الانتباه للشرق الأوسط والخليج كساحة دائمة للمواجهة الاستراتيجيّة بين القوى المتنافسة منذ أوائل العام ١٩٠٢. وقد مثّلت المنطقة العربيّة ساحة الصراع الرئيسيّ، بين هذه القوى الاستعماريّة، باعتبارها الجزء الأهمّ في الشرق الأوسط.

هذا المصطلح الذي استخدمه ألفرد تايرماهان كمفهوم استراتيجيّ، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالمكان الجغرافيّ، حيث يستحيل الفصل في هذا المجال، على هذا الأساس، ارتكز الكاتب "روجرز أوين" في تحديده الجغرافيّ لمنطقة الشرق الأوسط قائلاً: "إنّها تشمل تركيا كما هي قائمة اليوم، ومصر والعراق وما يُسمّى بسوريا الكبرى، أي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق...

لقد استأثرت منطقة الشرق الأوسط عمومًا، والمنطقة العربيّة خصوصًا، باهتمام بالغ منذ زمن طويل، قلّ أن استأثرت به منطقة أخرىَ في العالم. وانطلاقًا من هذه الأهميّة، واستنادًا إلى سلسلة كبيرة من التجارب والوقائع المتعلّقة بها، كان الكاتب الألمانيّ "إرنست جاخ" مصيبًا في قوله إلى حدّ كبير عندما كتب في تاريخ الثاني والعشرين من كانون الأوّل ـــ ديسمبر ١٩١٦، في المجلّة

الألمانيّة "دويتشيه بوليتيك": "إنّ الحرب تأتي من الشرق، والحرب ستندلع بسبب الشرق، وتُحسَم في الشرق"[1].

في الثالث والعشرين من شهر شباط ـ فبراير ١٩٤٢، وقبل أن يذيع الرئيس روزفلت خطابه إلى الشعب الأميركيّ ببرهة وجيزة، وجّه المذيع إلى المستمعين في الولايات المتّحدة، وإلى المستمعين في العالم بأسره، نصيحة جاء فيها أنّه "يحسن بكم أن تتابعوا الرئيس في خطابه، وبيدكم خريطة العالم"... وهي شهادة صارخة على خطورة الجغرافيا لفهم التاريخ والأحداث فهمًا واعيًا. لقد أشار العديد من الكتّاب الذين عالجوا التاريخ والسياسة والاقتصاد والفلسفة إلى خطورة الدور الذي يلعبه الموقع الجغرافيّ في مشكلات العالم، القوميّة منها والدوليّة. فقد كان هيرودوتس وسترابو ومونتسكيو وكانط من جملة الكتّاب البارزين الذين آمنوا بأنّ دراسة الجغرافيا أمر ضروريّ لفهم تطوّر أيّ بلد من بلدان العالم تاريخيًّا وسياسيًّا. وفي الواقع إنّ الجغرافيا تُعتبر من أقلّ العوامل عرضة للتغيير في تاريخ الشعوب... فها هي العوامل الاجتماعيّة والدينيّة والسياسيّة والحكوميّة عرضة للتغير والتقلّب، غير أنّ هيأة الأرض، ومواقع السهول والصحاري والبحار على سطحها، وأماكن الجبال والوديان والمحيطات والأنهار تكاد جميعها تظلّ ثابتة راسخة في أماكنها.

ليس في الدنيا مناطق كثيرة كمنطقة الشرق الأدنى، حيث كان للموقع الجغرافيّ، وما يترتّب عليه من خطورة استراتيجيّة، دور أساسيّ في تقرير مصائر الشعوب التي تتوطّنها.

---

١ ـ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٧٧) ص١٤.

في القرن التاسع عشر، كانت الولايات العربيّة التابعة للأمبراطوريّة العثمانيّة في آسيا تقع ضمن مستطيل غير متوازي الضلعين قاعدته خطّ يمتدّ من خليج العقبة إلى رأس الخليج العربيّ الشرقيّ، وأمّا رأس هذا المستطيل فخطّ يمتدّ من خليج الإسكندرونة إلى نقطة لا تبعد كثيرًا عن الشاطئ الشرقيّ لبحيرة "أورميا". وأمّا ضلعا المستطيل الجانبيّان فالغربيّ منهما هو البحر الأبيض المتوسّط، والشرقيّ منهما هو بلاد إيران. ومساحة هذه الرقعة الجغرافيّة تقرب من مئتين وواحد وسبعين ألف ميل مربّع. أمّا مصر والعربيّة السعوديّة، على الرغم من أنّهما كانتا من ضمن الممتلكات العثمانيّة، فإنّهما لم تُعتَبرا من الممتلكات الآسيويّة. كان لمصر، كولاية، إمتياز خاصّ، وعلاقة خاصّة باسطنبول. وأمّا الجزيرة العربيّة فقد كانت في نظر العثمانيّين "مصطلحًا جغرافيًّا" تقطنها قبائل عديدة لم يكن لها كيان مستقلّ، وكان على الحكومة العثمانيّة أن تتعامل مع عدد من رؤساء القبائل ومن الأمراء الحاكمين، في مختلف أنحاء هذه المنطقة. فقد كانت أهميّة الجزيرة العربيّة تقتصر على كونها مهد الإسلام، وعلى كون المدينتَين المقدّستَين، مكّة المكرّمة حيث تقوم الكعبة، والمدينة المنوّرة، تقعان في الحجاز. وإلى هاتين المدينتَين المكرّمتَين يحجّ ألوف المسلمين كلّ سنة.

إنّ الدول العربيّة في هذه المنطقة التي تمّ تحديدها آنفًا، والتي أصبحت بلدانًا مستقلّة بعد سقوط الأمبراطوريّة العثمانيّة، تشكّل جزءًا من منطقة جغرافيّة تُعرف بمنطقة الشرق الأدنى، والتي أصبحت بعد الحرب العالميّة الثانية، جزءًا من منطقة أوسع غير محدّدة تُعرف بمنطقة الشرق الأوسط.

إنّ موقع الشرق الأدنى الجغرافيّ شديد الارتباط بأهميّته الاستراتيجيّة، ولا يمكن الفصل بينهما. فإنّ العبارات التي كانت تُطلق في القرن التاسع عشر وصفًا لهذه المنطقة، كقولهم إنّها "جسر إلى آسيا" وإنّها "طريق حيويّة للأمبراطوريّة البريطانيّة"،

و"الشريان الرئيسيّ للمواصلات بين آسيا وأوروبّا"، أصبحت عبارات متداولة مألوفة. نعم، إنّ نظرة على خريطة العالم السياسيّة تظهر لنا أنّ هناك بقاعًا أخرى يمكن اعتبارها "جسورًا" و"خطوطًا حيويّة" و"شرايين للمواصلات"، ولكن ربّما ليس هناك بقعة أخرى في الدنيا كلّها وقعت حروب على أرضها، وعبرت شعوب ثمّ عادت لتعبر ثانية فوق أرضها، كمنطقة الشرق الأدنى. فهذه المنطقة كانت أبدًا ساحة معركة للجيوش، كما أنّها كانت معركة للفكر.

ويقول باحثون[1] إنّ شبه جزيرة آسيا الصغرى الواقعة جسرًا بين آسيا وأوروبّا كانت منذ بدء التاريخ ساحة حرب بين الشرق والغرب. عبر هذا الجسر انتقلت ديانات الشرق الأدنى وفنونه وحضاراته إلى بلاد الإغريق وحضارة الإغريق مرّت فوق هذا الجسر في رعاية الإسكندر المقدونيّ في طريقها إلى فتح الشرق والاستيلاء عليه. وعلى هذا الطريق ذاتها مشت شعوب عديدة: الإيرانيّون والعرب والمغول والأتراك... في محاولة لإخضاع الغرب للشرق.

إنّ جميع الآثار التاريخيّة في الشرق الأدنى، سواء أكانت أبنية، أم أنصابًا أم هياكل، أم قبورًا، أم نقوشًا، جميعها علامات بارزة لفاتح أو قاهر أو قادم من أوروبّا أو من الجزيرة العربيّة أو من أواسط آسيا... وقد تكون الهضبة الصخريّة الصغيرة عند مصبّ نهر الكلب، على بعد ستّة أميال إلى الشمال من بيروت، أهمّ بقعة تاريخيّة على وجه الأرض، وهي لا تزيد عن بضع مئات من الأمتار طولاً. في هذه البقعة الفريدة يستطيع الزائر أن يرى سبعة عشر نقشًا وتماثيل منحوتة على الصخر لتخليد ذكرى فتح هذا الجزء من العالم على أيدي المصريّين القدماء، والأشوريّين، والبابليّين،

---

١ - Ramsay W. M., *The Histirical Geography of Asia Minor* (London,1890) p.23.

والإغريق، والرومان، والمماليك، والأتراك، والعرب، والفرنسيّين، والجيوش البريطانيّة.... من رعمسيس الثاني في القرن الثالث عشر قبل الميلاد إلى الجنرال "ولسون" قائد الجيوش البريطانيّة، والجيوش الفرنسيّة الحرّة التي احتلّت لبنان وسوريا سنة ١٩٤١. لذلك لم يكن الكاتب الألمانيّ، "إرنست جاخ"، بمسرف في القول، كما ذكرنا سابقًا: "إنّ الحرب تأتي من الشرق، والحرب ستندلع بسبب الشرق، وتُحسم في الشرق"...

إنّ هذا التوكيد على الأهميّة الاستراتيجيّة للشرق الأدنى العربيّ قد ترك أثره العميق في تفكير جميع الذين كتبوا عن هذا الجزء من العالم. وقد قال باحثون[1] إنّ بوسعهم أن يوردوا أقوالاً عديدة للتدليل على الأسلوب الدراسيّ الذي كان يتبعه الكتّاب الذين عالجوا شؤون هذه المنطقة، فقد كتب الكولونيل "تشرشل" في منتصف القرن التاسع عشر يقول: "... إذا كانت بريطانيا ترغب في الحفاظ على سيطرتها في الشرق ينبغي لها، بشكل أو بآخر، أن تُدخل سوريا ومصر في نطاق نفوذها وسيطرتها... فقد أعلن نابوليون أنّه سيجعل من مدينة عكّا مفتاحًا للشرق. وكانت عبقريّته العسكريّة على صواب في تقديرها أهميّة بلاد الشرق الأدنى، التي عبثًا حاول الاستيلاء عليها ليجعل منها مرتكزًا ومنطلقًا في أعماله الحربيّة ضدّ أمبراطوريّتنا الهنديّة. وإذا كانت أسوار عكّا تنطوي على مصير عظيم لأعداء بريطانيا، فمَن يجرؤ على القول إنّ حلم نابوليون كان وهما وخيالاً؟ فما قولك بجبل لبنان، هذه القلعة الطبيعيّة الكبيرة القائمة بين العالِم الشرقيّ والغربي؟"[2]..

---

١ ـ زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص١٤ ـ ١٥.

٢ ـ Churchill Colonel, *Mount Lebanon, a Ten Years Residence from 1842 to 1852*, Vol. I, (London, 1853) pp. VII-IX

من الأمور التي أحدثت ثورة في تاريخ وسائل النقل والمواصلات الدوليّة، والتي زادت في قيمة الشرق الأدنى الاستراتيجيّة، كان افتتاح قناة السويس في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٦٩. كان شقّ في بادئ أمره امتيازًا فرنسيًّا منحه الخديوي سعيد باشا، في شهر كانون الثاني - يناير ١٩٥٦ للسيّد "فرديناند دي لسبس". وما أن أُنشئت القناة حتّى أدرك الانكليز أهميّتها للدفاع عن الهند وللاتّصال بها.

وينقل المؤرّخ زين نور الدين زين ما كتبه، في أثناء الحرب العالميّة الثانية، "لويس ا. فرتشلنغ" بمناسبة بحثه "استراتيجيّة الحلفاء في الشرق الأدنى" في مجلّة "تقارير السياسة الخارجيّة Foreing Policy Reports" في الأوّل من شهر شباط - فبراير ١٩٤٢ (المجلّد ١٧، عدد ٢٢) حيث قال:

إنّ منطقة الشرق الأدنى التي تقع جنوبي شرقي الجبهة الروسيّة الطويلة"، وشرقي ساحات المعارك الصحراويّة في ليبيا، وغربي منطقة الصراع الشاسعة في القسم الجنوبيّ الشرقيّ من آسيا، تحتلّ اليوم مركزًا رئيسيًّا في الاستراتيجيّة العالميّة. فإنّ طرق النقل تخترقها برًّا وبحرًا، ما يوفّر نقل الجيوش والمعدّات من جبهة إلى أخرى، كما تخترقها أيضًا طرق المواصلات التي تضمن تنسيق العمليّات المختلفة لجيوش الحلفاء. ولذا فإنّ منطقة الشرق الأدنى تُعتبر حجر الزاوية في خطط الحلفاء الدفاعيّة.

كما ينقل عن جريدة "التايمز" اللندنيّة ما كتبته في عددها الصادر في ٢٤ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٣، حيث جاء:

إنّ مجرى الحرب بأكمله قد أظهر لنا بوضوح أهميّة الشرق الأوسط بالنسبة إلى المصالح البريطانيّة. وفضلاً عن هذا، فإنّنا تعلّمنا أنّ بلدان المشرق، ولا سيّما لبنان، من أعظم المناطق الحيويّة، فإنّ أهميّتها بالنسبة إلينا لا تقتصر على كونها مناطق تقع على خطوط مواصلاتنا إلى الشرق،

ولكن أصبح من الواضح جدًا أنّه لو تمركزت قوّة جويّة كبيرة لأعدائنا من قاذفات قنابل في الجبال المنيعة الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان الغربيّة منهما والشرقيّة، مع جميع إمكانات تحصينها تحصينًا قويًّا، تستطيع السيطرة فورًا على قناة السويس، وعلى حقول البترول في كركوك وخطوط الأنابيب"...

ويقول زين إنّه حتّى في زمن قريب منّا، أي في ١٩ حزيران ـ يونيو ١٩٥٢، أصدر الملحق الصحافيّ البريطانيّ في بيروت بيانًا إعلاميًّا بمناسبة افتتاح مؤتمر لندن للدبلوماسيّين البريطانيّين في إحدى عشرة دولة من دول الشرق الأوسط، ذكر فيه الخطوط العريضة للمصالح البريطانيّة في منطقة الشرق الأوسط. وكان من جملة المصالح الأربع التي أوضحها البيان ثلاث منها مصالح استراتيجيّة، وهي:

أوّلاً المحافظة على حريّة خطوط المواصلات الدوليّة الحيويّة التي تشكّلها منطقة الشرق الأوسط جغرافيًّا، والإبقاء عليها مفتوحة؛ ثانيًا المحافظة على حريّة الانتفاع بمخزون حقول النفط لصالح العالم الحرّ ولمنفعة بلدان الشرق الأوسط؛ ثالثًا تشجيع العمل على اتّخاذ إجراءات فعّالة للدفاع عن هذه المنطقة ضدّ أيّ اعتداء عليها من الخارج.

وقبل هذا بخمس سنوات، عبّر وزير الخارجيّة البريطانيّة، "إرنست بفن Bevin"، عن هذه الفكرة، ولكن بكلمات قليلة، في المؤتمر الوطنيّ لحزب العمّال الذي عُقد في ٢٩ أيّار ـ مايو ١٩٤٧، بقوله:

إنّه ليس من صالح بريطانيا أن تفقد مكانتها في الشرق الأوسط.

في هذا الوقت، كان دخول الولايات المتّحدة الحرب العالميّة الثانية بدء اهتمامها المباشر بشؤون الشرق الأدنى كجزء من سياستها الوطنيّة. ففي أثناء الحرب، وبعدها، وقعت سلسلة من الأحداث التي جذبت الولايات المتّحدة أكثر فأكثر إلى دوّامة سياسة

الشرق الأدنى. ذلك أنّه في ٣ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٤١، أعلن الرئيس "روزفلت" أنّ "الدفاع عن تركيا أمر حيويّ للدفاع عن الولايات المتّحدة". وبعد خمس سنوات أدلى الرئيس "ترومان" بالبيان التاريخيّ التالي الذي ألقاه بمناسبة "خطاب الجيش" في ٦ نيسان ـ إبريل ١٩٤٦:

في هذه المنطقة (الشرق الأدنى) موارد طبيعيّة هائلة، فضلاً عن أنّها منطقة تقع عبر أفضل الطرق البريّة والمواصلات الجويّة والمائيّة. فهي لذلك بقعة ذات أهميّة اقتصاديّة واستراتيجيّة عظيمة، غير أنّ شعوبها ليست من القوّة بحيث أنّ الدولة الواحدة، أو كلّها مجتمعة، لا تستطيع أن تقاوم العدوان القويّ إذا أتاها من الخارج. ولذلك يسهل على المرء أن يدرك كيف أنّ الشرق الأدنى والأوسط يمكن أن يصبح يومًا ما حلبة لمنافسة عنيفة بين القوى الخارجيّة، وكيف أنّ تنافسًا كهذا يمكن أن يتحوّل فجأة إلى نزاع مسلّح.

ويضيف زين: كما أنّه ينبغي لنا أن نتذكّر أن اكتشاف حقول غنيّة بالنفط في إيران والعراق والجزيرة العربيّة قد زاد كثيرًا من أهميّة هذه المنطقة الاستراتيجيّة في النصف الأوّل من القرن العشرين. وقد أنشئت أنابيب عبر مئات الأميال مخترقة الصحراء والسهول والجبال ليسيل هذا السائل الثمين إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسّط[1]...

ويرى باحثون أنّه فجأة، لم يعد لمنطقة الشرق الأدنى أهميّة كبيرة بدءًا من النصف الثاني من القرن العشرين. ويعتبرون أنّ أوّل الأسباب في ذلك وأهمّها كان في ذلك التغيير الذي "خفّض" من قيمة أهميّة الشرق الأدنى استراتيجيًا تقدّم العلوم الطبيعيّة

---

١ ـ زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص٩ ـ ١٧.

الصاعق المذهل الذي أسفر عن إنتاج القنبلة الذريّة، وبناء الطائرة ذات المدى البعيد التي تفوق سرعتها سرعة الصوت، وصنع الصواريخ العابرة للقارّات... فأصبح الإنسان يستطيع بلوغ أيّ جزء من أجزاء سطح الأرض بواسطة الجوّ سواء كان هذا للخير أم للشرّ. وقد فقدت الحواجز البريّة، والحدود الطبيعيّة، أهميّتها وخطورتها...

أمّا على الصعيد السياسيّ، فإنّ قيام دول عربيّة مستقلّة، ونشوء قوميّة عربيّة ذات ملمح معاد للغرب، وإنشاء دولة إسرائيل... جميع هذه العوامل قضت على سيطرة الغرب المباشرة على منطقة الشرق الأدنى. هذا مع الإشارة إلى تحوّل آخر جرى في المنطقة وهو أنّ قناة السويس فقدت أهميّتها بعد حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧، كطريق مائيّ دوليّ للتجارة والمواصلات.

وأهمّ من هذه العوامل جميعًا، عامل خطير الشأن: نيل الهند استقلالها... ففي شهر آب ـ أغسطس ١٩٤٧، حدث أمر لم يسبق له مثيل في تاريخ الإمبرياليّة، وهو أنّ بريطانيا، آخر الأمبراطوريّات العظيمة في التاريخ، منحت الهند، أقدم جزء في أمبراطوريّتها وأكبره وأغناه وأكثره سكّانًا، استقلالها. ولكن إذا كانت قيمة الشرق الأدنى وأهميّته الاستراتيجيّة قد انخفضت كثيرًا بالنسبة إلى أرضه كمرتكز، فإنّ أهميّة بحره، أي البحر الأبيض المتوسّط، وبصورة خاصّة الجزء الشرقيّ منه، قد ازدادت خطورة أكثر من ذي قبل. وفي هذه البقعة بالذات، سبّب الاتّحاد السوفياتيّ "قلقًا عميقًا" للعالم الغربيّ، لا سيّما بعد أن أحرز نجاحًا عظيمًا على الأرض العربيّة في تلك الحقبة بصفته نصيرًا للقوميّة العربيّة وحامي استقلال بعض الدول العربيّة... وكان الروس قد توصّلوا في نهاية الأمر إلى ما كانوا يصبون إليه منذ زمن بعيد: أن يكونوا قوّة عسكريّة في البحر الأبيض المتوسّط. وأصبحت السفن الحربيّة السوفياتيّة التي تسير بقوّة نوويّة، إلى جانب السفن الحربيّة التقليديّة والمدمّرات والغوّاصات المجهّزة

بالصواريخ الموجّهة وغيرها، تمخر عباب المتوسّط، أحيانًا في اتّجاه معاكس، وأحيانًا في الاتّجاه ذاته الذي يسير فيه الأسطول الأميركيّ السادس، وأساطيل أخرى لدول غربيّة، وذلك "حفاظًا على سلامة وأمن الحدود الجنوبيّة للاتّحاد السوفياتيّ"، وإعلامًا لمن يهمّهم الأمر بأنّ الاتّحاد السوفياتيّ له "حقوق سيادة"، لاستخدام هذا "البحر المفتوح" من وجهة نظر "تاريخيّة وسياسيّة واقتصاديّة وجغرافيّة"[1].

وخلافًا لما أصبح راسخًا في أذهان أكثر العرب من أنّ الاتّحاد السوفياتيّ كان مناهضًا لنشوء دولة إسرائيل، فإنّ العكس هو الصحيح. ففي جلسة مجلس الأمن بتاريخ ١٣ تشرين الأول ـ أكتوبر عام ١٩٤٧، تحدّث المندوب السوفياتيّ "سيمون تساربكين" فقال: "إن الحجج القانونيّة والتاريخيّة التي يقدّمها العرب، ليست الآن بذات شأن، فأهميّتها باطلة جدًا بعد أن أقرّت الأمم المتّحدة قرار التقسيم... وليس للإتّحاد السوفياتيّ رغبة بالدخول في الجدل البيزنطيّ مع العرب... يكفي أن نعلم بأنّ اليهود عانوا ويعانون الإضطهاد، وفي طليعة المسؤوليّات علينا في الأمم المتّحدة أن نضمن لليهود وطنًا خاصًّا بهم، ومن الظلم ألاّ نساعدهم على ضمان مثل هذا الوطن. ومن الحقّ الشرعيّ الكامل لليهود أن يفرضوا سيادتهم على وطن فلسطين، فلا يكونوا تحت رحمة العرب... إنّ الإتّحاد السوفياتيّ يدعو ويؤيد ويعمل من أجل إقامة الدولة اليهوديّة وضمانها"[2].

وفي جلسة ٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٧، أوضح "أندريه غروميكو" الأهداف البعيدة التي كانت ترمي إليها الدول الإشتراكيّة من خلال إنشاء دولة إسرائيل، إذ قال:

---

١ ـ راجع: زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ص١٨ ـ ١٩.

٢ ـ قلعجي قدري، مناقشة آراء العلماء والسادة السوفيات، دار الكتاب العربي (بيروت،١٩٧٢) ص١١٢.

"إن الإتّحاد السوفياتيّ قد رفض الرأي القائل بإعلان استقلال فلسطين في دولة واحدة، وأيّد خلق دولة لليهود وأخرى للعرب... إنّ للعرب واليهود جذورًا تاريخيّة قديمة وراسخة في فلسطين، فمِن حقّ اليهود أن يبنوا دولة لهم هناك، دولة ديموقراطيّة تكون نموذجًا للمؤمنين بالديموقراطيّة في المنطقة"[1].

وفي جلسة أخرى، أكملَ المندوب السوفياتيّ "جاكوب ماليك" ما لم يوضحه غروميكو، إذ قال في جلسة الأوّل من تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٨: "لا تستغربوا أيّها السادة إذا وجدنا أنفسنا ذات يوم، أمام وضع تقوم فيه الأطراف المعنيّة بالأمر، العرب واليهود أنفسهم، مدفوعين بمصالحهم الخاصة، مصالح الجماهير التقدميّة، للتفاوض السلميّ والتعايش السلميّ والأخوّة التقدميّة، ويفاجئوا العالم بالأمر الواقع... إن الإتحاد السوفياتيّ لن يكلّ عن السعي للمساعدة والتأييد بالترحيب لمثل هذا المسعى العربي اليهودي"[2].

ومن أوضح ما تبيّنه مناقشات السوفيات والكتلة الإشتراكيّة حول الهدف الأمميّ من تقسيم المنطقة، هو ما ذكره الدكتور "سكارلانج"، مندوب بولونيا، أمام اللجنة السياسيّة الموقّتة في مجلس الأمن في ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٤٧، إذ قال: "صدّقوني أيّها الزملاء، إنّ انتصارنا في هذه القضية (قضيّة إقامة الدولة اليهوديّة في فلسطين) سيفتح آفاقًا واسعة لنا جميعًا لنتعاون في تحرير دياركم من الإستعمار... فهنالك مصالح كثيرة مشتركة بين العرب واليهود في النضال ضدّ الإستعمار على أساس المبادئ الإشتراكية" وبعد أن اشاد "بالحكمة العقائديّة التي تتحلّى بها القيادات

---

١ ـ قلعجي، مناقشة آراء العلماء والسادة السوفيات، ص ١١٤.

٢ ـ قلعجي، مناقشة آراء العلماء والسادة السوفيات، ص ١٢٣.

اليهوديّة"، وعدّد وجوه الحياة والمعاش التي تجمع الجماهير العربيّة واليهوديّة على صعيد واحد، وأكّد على أنّ العمّال والفلاّحين والمثقّفين "في كلتي الجماعتين العربيّة واليهوديّة" ذوو مصلحة واحدة، قال: "وإنّي لشديد الأمل والإيمان بأنّ التعاون العقائديّ سيتمّ بين الجماهير ونقابات العمّال والإتّحادات والهيئات الديموقراطيّة التحرّريّة، فإنّ الفوارق بين الجانبين ستزول ويعمّ المنطقة الإخاء بين الجماهير[1]...".

لقد كان عاهل المملكة العربيّة السعوديّة الملك فيصل، رحمه اللّه، من حكماء العالم العربيّ، وفي وقت طغت خلاله العماهة العربيّة على الأبعاد الحقيقيّة للأهداف الدوليّة في الشرق الأوسط، بقي ذلك الرجل الحكيم متيقّظًا مترفّعًا فوق الظرفيّات، متفهّمًا، بفضل نظرته الثاقبة وحسّه السياسيّ، حقيقة ما يجري.

فخلال جولته المكّوكية، زار "هنري كيسنجر" الملك فيصل الذي كان يصغي إليه شارحًا موقف بلاده، فكان العاهل السعودي "يطبق شفتيه بشكل ينمّ عن الإشمئزاز"، وفي النهاية قال الملك موجّهًا كلامه لكيسنجر: "شكرًا لك على إيضاحاتك... أودّ أن أذكّرك بما سبق وقلته للرئيس "نيكسون" ولوزير خارجيّته "روجرز"... إنّ الأمر الأساسيّ هو إرغام إسرائيل على الجلاء عن الأراضي العربيّة المحتلّة... إنّك لا تجهل أن الشيوعيّة تريد أن يظلّ الموقف حرجًا... إن إسرائيل تدعم الأهداف الشيوعيّة... إنّ "ستالين" هو الذي طرح في مؤتمر "يالطا" فكرة الدولة اليهوديّة... يجب أن تكون فلسطين دولة مختلطة، يتعايش فيها المسلمون واليهود... إنّ معظم اللاجئين الإسرائيليّين يأتي من الاتحاد

---

١ ـ قلعجي، مناقشة آراء العلماء والسادة السوفيات، ص١١٣.

السوفياتيّ، وهؤلاء يريدون قيام قاعدة شيوعيّة في الشرق الأوسط... إنّ الشيوعيّين مجرّدون من الإيمان... انّهم لا يؤمنون باللّه"[1].

المنظّمة الإشتراكيّة الإسرائيليّة "ماتسبن"، التي كانت تمثّل الجناح اليساريّ المتطرّف في إسرائيل، وقد سبق أن أقامت حوارًا مع "الرّفاق" العرب حول المصير المشترك، طرحت الرؤية الأمميّة التي تراها، وتعمل لها، من أجل مستقبل إسرائيل والدول المحيطة بها على الشكل التالي:

"... الحلّ الجذريّ... هو الذي يستشفّ الواقع الجديد للمنطقة بعد هزيمة الرجعيّة والإمبرياليّة والصهيونيّة، وبقيام "جمهوريّة الشرق الأوسط الإشتراكيّة" ضمن هذا الواقع الجديد، لن تكون هناك قضيّة فلسطينيّة منعزلة، بل وجود أقليّات قوميّة كثيرة وحسب (أكراد، يهود، سودانيّون جنوبيّون...) وهي مسألة تتطلّب حلاً ثوريًّا على أساس مبدإ تقرير المصير للأقليّات القوميّة وضمان حقوقها الوطنيّة الأساسيّة ضمن "الجمهوريّة الإشتراكيّة"[2].

ويردّ "الرفاق" العرب على هذا الإقتراح الأمميّ الإسرائيليّ الهادف إلى تقسيم المنطقة إلى أقاليم قوميّة من أجل اتّحادها في ما بعد مع إسرائيل، يردّون بأنّ "هذا الحلّ لن يتحقّق عبر فرضه بالقوّة على الشعب الإسرائيليّ، بل عن طريق دعوته لقبوله طوعيًّا للمشاركة في بناء الإشتراكيّة مع الجماهير

---

١ ـ أسرار مفاوضات كيسنجر في الشرق الأوسط، ص ٢٨، نقلاً عن مجلة "فورين بوليسي" الأميركيّة، بقلم "إدوارد شيهان"، الصحافي الأميركي العضو في مركز الشؤون الدوليّة في جامعة هارفرد، وقد رافق كيسنجر في رحلاته المكّوكيّة.

٢ ـ راجع مجلّة "القضايا المعاصرة"، الجزء ٧ ـ ٨ ، المجلّد الثاني، كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٢، ص١٧٩.

العربيّة المتحرّرة من أغلال الماضي واستلاب أيديولوجيّات الطبقات التي قادتها وقمعتها"[1].

على أيّ حال، فمع انفراط عقد الاتّحاد السوفياتيّ في العام ١٩٩١، شهدت هذه المنطقة الحسّاسة من العالم تطوّرًا خطيرًا، إذ إنّ أحد اللاعبين الكبار قد غادر المسرح... وبعد عقد من الزمن، وبعد خلوّ المسرح من أحد كبار لاعبيه، جاءت أحداث الحادي عشر من أيلول ـ سبتمبر ٢٠٠١ التي وقعت في نيويورك وواشنطن لتخلق تطوّرًا آخر بالغ الخطورة، ولتُدخلَ الولايات المتّحدة الأميركيّة والغرب مباشرة إلى مسرح الأحداث الشرق أوسطيّة بشكل سافر ومن دون أقنعة ولا تمويه...

طوال ما يزيد على قرن من الزمن، كان للاستخبارات المتعدّدة الجنسيّات أدوار على هذا المسرح المتواصل الحركة، كما نشأت وتطوّرت أجهزة استخبارات محليّة في مواجهة تلك القادمة من البعيد، وتلك الأخطر: الإستخبارات الإسرائيليّة.

وعلى العموم، فإنّ منطقة الشرق الأوسط التي لها كلّ هذه الأهميّة الجيوسياسيّة والاستراتيجيّة على صعيد العالم ككلّ، قد شهدت فصولاً من أعمال المخابرات وأنشطتها، ولا تزال، لعلّها من أكثر الفصول حيويّة وتنوّعًا في تاريخ التجسّس والاستخبارات في العالم.

---

١ ـ العفيف الأخضر، مجلّة "القضايا المعاصرة"، الجزء ٧ ـ ٨، المجلد الثاني، كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٢، ص١٨٠.

عالِمُ الآثار والجاسوس البريطانيّ المستعرب

قبل ختام القرن التاسع عشر، كانت قد أخذت شمس دولة أوروبيّة جديدة تبزغ على الأفق العثمانيّ، هي ألمانيا. وكان القيصر وليم قد رسم لها سياسة "التوسّع نحو الشرق"، فأتاحت لها هذه السياسة نفوذًا سريعًا في الشؤون التركيّة. وكان ذلك في عهد عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩)، وهو من أعنف الحكّام الذين اعتلوا العرش العثمانيّ في نزعته الرجعيّة. وقد آنس السلطان من القيصر صديقًا جديدًا يستحقّ الترحيب، فقام الأمبراطور وزوجته الأمبراطورة سنة ١٨٩٨ بزيارة إلى القسطنطينيّة، واستأنفا السير منها إلى القدس فدمشق، حيث وضعا إكليلاً من الزهر على قبر صلاح الدين الأيّوبيّ. وفي خطبة مثيرة أكّد الأمبراطور للسلطان، ومعه "ثلاثمئة مليون مسلم يجلّونه بوصفه خليفة عليهم"، أنّ أمبراطور ألمانيا، كان وسيظلّ أبدًا، صديقهم الحميم[١].

وعلى الأثر، مُنحت شركة ألمانيّة إمتياز خطّ بغداد الحديديّ عبر شمالي سورية[٢]. وكان هذا الخطّ الحديديّ أحد الأسباب التي أدّت إلى نشوب الحرب العالميّة الأولى. وقد أخذ في الوقت نفسه ضبّاط ألمان يفدون إلى تركيا ليعيدوا تنظيم الجيش التركيّ.

---

١ - Antonius George, *The Arab Awakening* (Philadelphia,1939), p.77.

٢ - Earle Edward Mead, *Turkey, The Great powers and the Bagdad Railwail* (New York,1923) pp. 67-71.

كانت نقطة الانطلاق في سياسة عبد الحميد رأيه في أنّ الطابع الأسيويّ ينبغي أن يكون أغلب على الدولة من الطابع الأوروبيّ. وتحقيقًا لهذا المبدأ، لجأ إلى نظام قديم هو نظام الخلافة، وحاول أن يبعث فيه الحيويّة من جديد. فعمد إلى توثيق سلطة الخلافة الأولى السياسيّة، ومثلها الأعلى: "الجامعة الإسلاميّة"، راجيًا أن يحتفظ، عن هذا الطريق، بولاء العناصر الإسلاميّة غير التركيّة في داخل الأمبراطوريّة، وأن يكسب إلى جانبه جميع المسلمين خارج حدودها. وقد ظفر تدريجيًّا بمسخ وزرائه إلى كتّاب مساعدين، وبتركيز إدارة البلاد في قبضة يديه. فوضع الصحافة تحت رقابة شديدة، وألغى جميع التدابير التي تؤمّن حريّة الفكر مهما كان نوعها، ونشر شبكة محكمة من الدسّ والتجسّس في جميع أنحاء البلاد. ولمّا كان شديد الخوف على عرشه وحياته، عمد إلى الاعتصام بالمزيد من العزلة وراء أسوار قصر يلدز. ثمّ إنّه أجرى الاعتقالات بالجملة، ونفّذ أحكام الإعدام على نحو جماعيّ، وأمعن في الأرمن فتكًا وتذبيحًا، فأكسبه ذلك لقب "السلطان الأحمر".

واستئنافًا لسياسته بإيجاد جامعة إسلاميّة، أكمل الخليفة السلطان سنة ١٩٠٨ خطّ الحديد الحجازيّ الذي وصل القسطنطينيّة بالمدينة المنوّرة، مخترقًا سورية من الشمال إلى الجنوب؛ فكان ما أنفقه على هذا المشروع ثلاثة ملايين ليرة، جمع ثلثه من تبرّعات المسلمين في العالم بأسره[1].

إنّ هذا الخطّ هو الذي عمل "لورانس العرب" على نسف جسوره إبّان الحرب العالميّة الأولى"[2]. فمن هو لورانس هذا؟

---

١ - حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبّور، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٩) ص٣٤٩ - ٣٥٠.

٢ - Lawrence T. E., *Seven Pillars of Wisdom* (New York,1938) pp. 198-203, 207-211.

في تعريف مقتضب عن "لورانس" جاء أنّ اسمه الكامل "توماس إدوارد لورانس" (١٨٨٨ ـ ١٩٣٥)، وأنّه كان مغامرًا وجنديًا وباحثًا بريطانيًا، تعلّم في أكسفورد، وانضمّ إلى بعثة بريطانيّة للتنقيب عن الآثار في بلاد ما بين النهرين سنة ١٩١١، وبقي في الأقطار العربيّة يتعلمّ العربيّة المحكيّة حتّى عام ١٩١٤. وعند إعلان الحرب العالميّة الأولى، التحق لورانس بقسم المخابرات في الجيش البريطانيّ بمصر. انضمّ سنة ١٩١٦ إلى القوّات العربيّة المحاربة بقيادة فيصل بن الحسين وساعد في إيقاد جذوة الثورة ضدّ الحكم التركيّ. عمل في قطع سكّة حديد المدينة المنوّرة ـ دمشق. ثمّ قاد الجنود العرب في احتلال ميناء العقبة. دخل دمشق بجنوده العرب سنة ١٩١٨ قبل أن يحتلّها القائد اللنبي، ولكن لم يُوفّق إلى تحقيق أماني العرب في مؤتمر فرساي. انضمّ إلى القوّات الجويّة البريطانيّة باسم مستعار هو "روس"، وفي الوقت عينه اتّخذ "ت. أ. شو" إسمًا شرعيًا له، كما اشتهر باسم "لورانس العرب"، وأطلق عليه أيضًا إسم "أمير مكّة" وإسم "ملك العرب غير المتوّج" نظرًا لنشاطاته وأهميّته ودقّة معلوماته التي نقلها إلى الاستخبارات البريطانيّة. وجذب إليه انتباه الرأي العام حين نشر مذكّراته بعنوان "ثورة في الصحراء" عام ١٩٢٧. وألّف كتابًا كاملاً بعنوان "أعمدة الحكمة السبعة" نشر عام ١٩٢٦، وكتاب "دار سكّ النقود"، وهو وصف لحياته في القوّات الجويّة البريطانيّة، كما ترجم "الأوديسّا" إلى الإنكليزية. مات بحادث اصطدام سيّارة بدرّاجته البخاريّة. إختلف بعض مؤلّفي التراجم في تقييم شخصيّته[1].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، ط٢ (بيروت،٢٠٠١) ٤: ٢١٠١ ـ ٢١٠٢.

أمّا حكاية هذا الرجل المتعدّد المواهب والذي اجتهد الباحثون في تحديد شخصيّته، فتبدأ بولادته في مقاطعة "ويلز" البريطانيّة في ١٦ آب ـ أغسطس ١٨٨٨. وهو إبن غير شرعيّ لـ"السير إدوارد روبرت تشابمان" من السيّدة "سارة مادن"، التي يرجّح أنّها غير شرعيّة أيضًا من أب نروجيّ وأمّ إنكليزيّة، وهي مربّية بنات السير إدوارد الأربع من زوجته الأولى. إلاّ أنّ توماس غيّر اسم عائلته بعدما هاجر من إيرلندا إلى إنكلترا، وأصبح يُعرف باسم "لورانس" منذ ذلك الحين.

في تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٠٧، التحق إدوارد لورانس بكليّة يسوع في أوكسفورد. وهناك سجّل لنفسه عدّة اكتشافات رائعة عندما كان يقوم بأعمال التنقيب عن الآثار تحت المياه. واستطاع من خلال ذلك أن يسترعي انتباه بعض مشاهير علماء الآثار الذين كانوا يتمتّعون بمراكز هامّة في الاستخبارات، وكان على رأسهم الدكتور "ديفيد هوغارث"، أستاذ لورانس، وكذلك "ليونارد وولي".

كان هوغارث ضابط الاستخبارات البريطانيّة المتخصّص بشؤون الشرق الأوسط، وكانت معلوماته عن أوضاع البلدان العربيّة في ظلّ الحكم العثماني لا تضاهى في ذلك الحين. فقد أمضى وقتًا طويلاً يدرس أحوال هذه المنطقة من النواحي السياسيّة والوطنيّة والدينيّة، والحركات السرّيّة ونوعيّة قياداتها، ونشاط الألمان والفرنسيّين، والبوليس السرّي التابع لهم، وطبيعة الأرض الإسلاميّة، ونفسيّة الحكّام العسكريّين فيها، وجوّ المعارك المتوقّع في حال نشوب حرب[1].

كان للدكتور هوغارث تأثير هامّ على مجرى حياة لورانس. كما لم يكن ذلك بعيدًا عن نشاطات الاستخبارات البريطانيّة في محاولتها كسب لورانس إلى صفوفها، حيث

---

١ ـ الفاتح زهدي، لورانس العرب على خطّ هرتزل، دار النفائس (بيروت،١٩٧١) ص٣٣.

أشارت إلى أستاذه بضرورة الاهتمام به بعد نجاحاته واكتشافاته وتفوّقه، وتجيير كلّ ذلك لصالح السياسة البريطانيّة بمجملها. وهكذا تمكّن لورانس، بواسطة هوغارث، من الحصول على منحة خوّلته الاشتراك في رحلة علميّة للقيام بالبحث والتنقيب عن الآثار في وادي الفرات. وكانت البعثة برئاسة الدكتور هوغارث نفسه، الذي عيّن لورانس في بعثته رئيسًا على فرق العمل التي كانت تتألّف من الأكراد والتركمان والأرمن والعرب. وقد نجحت هذه البعثة في العثور على مدينة "كركميش" التي كانت قديمًا عاصمة الأمبراطوريّة الحثيّة. ويضمّ متحف "أشمولين" في أكسفورد اليوم الكثير من الآثار التي وهبها لورانس له لعرضها فيه قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

ظلّت مهمّة هذه البعثة سرًّا دفينًا، إلاّ أنّ أفرادها كانوا يعملون في مناطق مهمّة للغاية، عسكريًّا واستراتيجيًّا، ويمكن تشبيه مهمّة هذه البعثة وممولّيها بأيّ بعثة أميركيّة مماثلة في هذه الأيّام، تموّلها المخابرات المركزيّة الأميركيّة[1].

قام لورانس برحلة على الأقدام في عدد من بلدان الشرق الأوسط، اجتاز خلالها نحو ألف ميل، شملت سوريا وفلسطين والأردن ولبنان. تعرّف لورانس على كلّ المواقع الاستراتيجيّة في المنطقة، وهو الذي كان يتجوّل في جميع أرجائها سيرًا على الأقدام، ويطّلع على مواقعها ويدرس ويدقّق ويبحث، حتّى "أصبح مرجعًا للمعلومات الدقيقة عن منطقة الشرق الأوسط، وطبيعة تكوينها، ومعالمها الطوبوغرافيّة"[2].

---

١ ـ الفاتح، لورانس العرب على خطّ هرتزل، ص٣٣ ـ ٣٤.

٢ ـ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٤٠ ـ ٤١، عن: أنتوني ولويل توماس، لورانس لغز الجزيرة العربيّة، ص٣٠.

إلتحق هوغارث في نهاية شباط ـ فبراير ١٩١٠ بلورانس، ثمّ توجّها معًا بالبحر لزيارة جبل الكرمل والناصرة وقرى اليرموك. ومن درعا استقلاّ قطار خطّ الحجاز إلى الشام، فحمص فحلب حتّى وصلا إلى قرقميش في نهاية آذار ـ مارس.

وقد بلغ لورانس حدًّا من النشاط جعل الأتراك يرتابون بأمره في عام ١٩١٢، عندما شعر بملاحقته ومراقبته من قبلهم، وكتب إلى أستاذه هوغارث يقول: "... هذه الدولة العجوز، ما زال فيها بعض حياة بعد، إنّها تراقبني"[١].

وقد رأى باحثون[٢] أنّه "من خلال هذه الكلمات تتوضّح مهمّة لورانس بالتحديد، ويتوضّح تجاوز العلاقة العلميّة بينه وبين أستاذه إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، عبر استغلال اختصاصه بتوجيهات إستخباراتيّة، يمثّل هوغارث حلقة الاتّصال المركزيّة فيها. ولو كان نشاطه بعيدًا عن هذا الواقع، لَما أظهر قلقه وخوفه من المراقبة العثمانيّة، ليبلّغ الاستخبارات البريطانيّة وحدها بما يتعرّض له"... ويرى هؤلاء الباحثون أنّ لورانس قد عبّر بنفسه عن طبيعة العلاقة الوثيقة التي تربطه بالاستخبارات عبر أستاذه، عالم الآثار، حيث أُلحق بمدرسة المرسلين الأميركيّين في جبل لبنان، لتحسين لغته العربيّة. وقد قال في ذلك: "لسبب ما، يريدني هوغارث أن أتقن العربيّة". ويرون أنّ هذا السبب قد توضّح في ما بعد، عندما عمدت الاستخبارات البريطانيّة إلى تحويله من عالم آثار إلى عسكريّ خبير في شؤون المنطقة. وفي هذا المجال برزت موهبة لورانس العسكريّة النابعة من معرفته لكلّ التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بمنطقة عمله. لذلك عُيّن في دائرة الخرائط التابعة لرئاسة القوّات البريطانيّة

---

١ ـ الفاتح، لورانس العرب على خطّ هرتزل، ص٣٤.

٢ ـ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، ص٤١.

في الشرق الأوسط، حتّى أنَ الضبّاط أنفسهم كانوا يستشيرونه بشأن أيَ خطّة يريدون الاتّفاق عليها، مع العلم أنّه كان واحدًا من فرقة خاصّة تتألّف إلى جانبه من "ليونارد وولي" و"نيوكومب"، عهد إليها الإنكليز مهمّة القيام بوضع الخرائط، خاصّة لتلك المنطقة المتعلّقة بشبه جزيرة سيناء، بعد توغّلهم فيها متخفّين. ونجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا.

شُغف لورانس بمطالعة الكتب العسكريّة ووقائع الحروب، وتعمّق في دراستها واستيعابها. وبالنظر لتأثّره بها، فإنّه اختار موضوع الهندسة المعماريّة العسكريّة التي شيّد الصليبيّون قلاعهم بموجبها موضوعًا لأطروحته الجامعيّة تحت عنوان "قلاع الصليبيّين"، ونال عليها مرتبة الشرف الأولى.

في كانون الثاني - يناير ١٩١٤، انخرط لورانس رسميًّا في سلك الاستخبارات البريطانيّة العسكريّة. ونُقل من قسم الخرائط إلى دائرة المخابرات السرّيّة التي كان عملها منحصرًا في المناطق التي يحتلّها الأتراك، حيث عُيّن رئيسًا لأحد فروع تلك الدائرة. ولكي يكون جديرًا بالمسؤوليّة الجديدة، وناجحًا في تنفيذ سياسة أسياده، فإنّه سعى لتجنيد عدد من الشبّان المحلّيّين في دائرته، إنطلاقًا من التسهيلات المتوفّرة لهم في التوغّل إلى ما وراء المناطق المحتلّة والخروج منها بعد حصولهم على كافّة المعلومات المطلوبة. وفي الوقت نفسه تولّى عمليّة استجواب أسرى الأتراك توصّلاً إلى معرفة أماكن قوّاتهم وعددها. وبالفعل فقد نجح لورانس في هذا المجال نجاحًا كبيرًا واعتُبر رجل مخابرات من الطراز الأوّل.

كانت علاقات لورانس المباشرة مع القادة الإنكليز، سياسيّين وعسكريّين، لها الطابع الفاعل والمؤثّر على مجمل السياسة البريطانيّة، من خلال لقاءاته مع اللورد "كيتشنر" المقيم البريطاني في مصر؛ والكولونيل "غليبرت كلايتون" رئيس قلم

الاستخبارات البريطانيّة في القاهرة؛ والآنسة "غروترودويل" المستشارة السياسيّة للسير "بيرسي كوكس" رئيس المكتب السياسي في الشرق بصورة غير رسميّة؛ والكولونيل "بيتش" الضابط البارز في قسم الإستعلامات التابع للفرقة التي يقودها الجنرال "تاونسند"، بالإضافة إلى الدكتور هوغارث" ضابط الاستخبارات المتخصّص بشؤون الشرق الأوسط وأستاذ لورانس في علم الآثار، وعدد من زملاء لورانس العلماء أمثال "مارك سايكس"، و"لوبري هوبرت"، و"كورنواليس"، و"نيوكومب"، و"ايونارد وولي"، و"لويد جورج" وسواهم.

وقد وصف باحثون لورانس بأنّه "كان دماغ بريطانيا في المنطقة العربيّة"... وبرز دوره الكبير في الحرب العالميّة الأولى من خلال أيّ مهمّة كُلّف بها، إن كان في مصر أو في العراق أو سوريا أو الجزيرة العربيّة. كما برز نشاطه واضحًا في المجال السياسيّ والعسكريّ والاجتماعيّ والاستخباريّ... وانطلاقًا من التوجيهات التي تلقّاها لورانس من المخابرات البريطانيّة، زعم مناصرته للقضايا العربيّة والوقوف بجانب قادة الثورة ضدّ الأتراك دفاعًا عن الحقّ العربيّ. بيد أنّ ذلك لم يكن إلاّ من أجل تفويت الفرصة على الفرنسيّين. وقد ذكر لورانس في رسالة بعث بها إلى هوغارث تفاصيل خطّة "لاحتلال سوريا بمساعدة الشريف حسين، شريف مكّة المكرّمة"، وعبّر فيها عن مخاوفه من أطماع فرنسا في الشرق الأوسط... ثمّ قال: "إنّني أرى فرنسا لا تركيا، هي عدوّتنا في ما يتعلّق بسوريا".

كان لورانس يكثر من الظهور باللباس العربيّ، سواء في القاهرة أو في غيرها من المدن العربيّة والأجنبيّة، خاصّة في باريس أثناء انعقاد مؤتمر السلم، كي يلفت الأنظار إلى شخصه. وقد رفض ارتداء الملابس العسكريّة عندما اشترط عليه ذلك الجنرال "ويمبس" قائد القوّات البريطانيّة في مصر، عند مرافقته

إلى الخرطوم في السودان للقاء الجنرال "ويغانت"، القائد العام للقوات البريطانيّة في شبه الجزيرة العربيّة.

تظهر حقيقة أهداف لورانس من ذلك التمظهر بنصرة العرب على حقيقتها من خلال التقارير السريّة التي كان يبعث بها إلى القيادة البريطانيّة. وفي أحد هذه التقارير حدّد لورانس في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩١٦، الأهداف الرئيسيّة لبريطانيا، إذا قال: "... أهدافنا الرئيسيّة هي: تفتيت الوحدة الإسلاميّة ودحر الأمبراطوريّة العثمانيّة وتدميرها... وإذا عرفنا كيف نعامل العرب، وهم الأقلّ وعيًا للاستقرار من الأتراك، فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسيّة داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك، إلاّ أنّها على استعداد دائم لتشكيل قوّة موحّدة ضدّ أيّ قوّة خارجيّة"[1].

وهنا تبرز بصمات لورانس واضحة في توقيع اتّفاقيّة سايكس ـ بيكو وبنودها، خاصّة وأن "مارك سايكس" كان أحد زملاء لورانس وأصدقائه. وقد برهنت هذه المعاهدة عن النوايا الاستعماريّة وأسلوب الخداع لتحقيقها، حيث كانت بريطانيا تفاوض العرب واعدة إيّاهم بالاستقلال والتخلّص من الحكم التركيّ، ولعب لورانس دورًا هامًّا في هذا المجال.

كما أنّ لورانس، الذي كان يعمل لإقامة دولة عربيّة قوميّة في سوريا، تحت الحماية البريطانيّة، لم يُخفِ تأييده لوعد بلفور، الذي اعتبره وسيلة لإبعاد مطامع الفرنسيّين عن فلسطين وسوريا كلّها. وعندما طُلب إليه إنكار مضمون رسالة شتم وتحقير وجّهها إلى الأب الدكتور "ماك أنيس"، كاهن الكنيسة الأنكليكانيّة في القدس،

---

١ ـ الفاتح، لورانس العرب على خطّ هرتزل، ص٦٤، عن كتاب: الوقائع السريّة في حياة لورانس العرب، ص٥٢ ـ ٥٣.

لاعتراض الأخير على فكرة إقامة "وطن قوميّ لليهود" في فلسطين، رفض ذلك وعاود الكتابة إلى الكاهن يلومه على احتجاجه بقول: "كان من الأفضل لك أن تفعل شيئًا آخر غير الاحتجاج، لكنّك غير صالح حتّى لتنظيف حذاء وايزمن"[1]. والمقول إنّ لورانس كان "يقدّر تقديرًا كبيرًا "حاييم وايزمن" منذ التقيا في فلسطين بعد سقوط القدس، ليبحث مع الأمير فيصل المقترحات الصهيونيّة الخاصّة بتوطين اليهود في الديار المقدّسة"[2].

في مؤتمر الصلح الذي عُقد في فرساي إثر نهاية الحرب العالميّة الأولى، ظهر لورانس باللباس العربيّ مدّعيًا تمثيل العرب وخدمة قضيّتهم في هذا المؤتمر الدوليّ.

في ١٣ أيّار ـ مايو ١٩٣٥، قُتل لورانس بحادث درّاجة ناريّة، كان يقودها. وقد بكى تشرشل في جنازته ووصفه بأنّه "الأكثر شهرة بين رجالات بريطانيا العظماء"، مؤكّدًا أنّه "لن يظهر مثيل له، مهما كانت الحاجة إليه ماسّة". وقد أُقيم تمثال للورانس إلى جانب تمثالَي "نلسون" و"ولنغتون" في كاتدرائيّة "سان بول" ببريطانيا[3].

---

١ ـ الفاتح، لورانس العرب على خطّ هرتزل، ص٢٩، عن: نايتلي فيليب وسمبسون كولن، تقارير لورانس السريّة، منشورات نلسون (لندن،١٩٦٩) ص١٠٨، ١٧٦.

٢ ـ زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، ص٤٦، عن: أنتوني ولويل توماس، لورانس لغز الجزيرة العربيّة، ص٢٣٨.

٣ ـ الفاتح، لورانس العرب على خطّ هرتزل، ص٣٥.

الدعم المخابَراتي الصهيُوني للبَريطانيّين

تلقّى البريطانيّون دعمًا كبيرًا من شبكات التجسّس الصهيونيّة في فلسطين خلال الحرب العالميّة الأولى، وقد تمثّل هذا الدعم من خلال ثلاث شبكات صهيونيّة عملت على أرض فلسطين:

الأولى هي شبكة "شبكة آل أرونسون" التي اشترك فيها كلّ من الأشقّاء "هارون جاك أرونسون" عالم النبات، و"ألكسي جاك أرونسون" الذي قُتل على أثر سقوط الطائرة التي كان يستقلّها في طريقه إلى مؤتمر فرساي، و" سارة جاك أرونسون" التي انتحرت بعد اعتقالها من قبل الأتراك بإطلاق النار على نفسها من مسدّس كانت تضعه في رزمة من القطن.

والثانية هي شبكة رجل الأعمال اليهوديّ الأميركيّ "آلتر صموئيل ليفي"، الذي تقرّب من جمال باشا السفّاح ونال ثقته، وكانت شبكته تضمّ "ليديا مردوخ سيمونفيتش" وأعضاء آخرين تمكّنوا جميعًا من الإفلات من قبضة الأتراك.

أمّا الشبكة الثالثة فكانت شبكة "أبراهام وارتنبرغ"، التي تأسّست في حيفا وانتقلت من ثمّ إلى بيروت بعد اكتشاف أمر الشبكة الأولى، وضمّت هذه الشبكة إلى وارتنبرغ كلاًّ من: "بخور جودا"، "عزرا كوهين"، "مردخاي عزرا ليفي"، و"إيزاك جاك رابينوفيتش".. وقد اعتقل أعضاء هذه الشبكة وأعدموا تباعًا ولم يفلت منهم سوى واتنبرغ.

بعد الحرب العالميّة الأولى ازداد التعاون الاستخباراتي بين البريطانيّن والصهاينة، خاصّة بعد المناصرة البريطانيّة للمشروع الصهيوني في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩. وقد عمدت السلطات البريطانيّة، بواسطة استخباراتها المتعاونة مع الصهيونيّة، إلى تهريب اليهود إلى فلسطين من مناطق عديدة، حيث استخدمت في أحيان كثيرة سفناً بريطانيّة لهذه الغاية. وعندما تزايدت النقمة العربيّة ضدّ هجرة اليهود إلى فلسطين عام ١٩٣٦، وقام أطول إضراب في التاريخ من قبل العرب الفلسطينيّن، استقدم الإنكليز أحد ضبّاط استخباراتهم العسكريّة: "تشارلز أورد ونغيت"، ليعمل على قمع الفلسطينيّين العرب. وفي عام ١٩٣٨، وبمباركة قائد القوّات الإنكليزيّة في فلسطين، أقام ونغيت "سرايا الليل الخاصّة" المؤلّفة من رجال منظّمة الهاغاناه بقيادة خبراء بريطانيّين لقمع الفلسطينيّين. وقام ونغيت بتدري هذه السرايا على أساليب الاستخبارات والتحقيق والقمع.

وبعد أن تزايدت النقمة العربيّة الفلسطينيّة في وجه الصهيونيّة والإنكليز، عمل المتحالفون على إنشاء "الدائرة العربيّة" في الاستخبارات الصهيونيّة التابعة لمنظّمة الهاغاناه، تحت إسم "الشاي"، وذلك في شهر حزيران - يونيو ١٩٤٠ برئاسة "عزرا دنين"، وكلّفت الشاي بتأسيس أرشيف للمعلومات عن التركيبة الاجتماعيّة للمدن والقرى العربيّة في فلسطين، بالإضافة إلى إقامة شبكة من المخبرين العرب. وعندما لوحظ أنّ عمل هذه الشعبة لم يتقدّم بما فيه الكفاية، كُلّف "يعقوب شمعوني" بتولّي رئاستها حيث استمرّ في جمع المعلومات لملفّات القرى العربيّة، وكُلّفت وحدات الاستطلاع الإهتمام بالنواحي الطوبوغرافيّة لتلك القرى، بالإضافة إلى وضع أرشيف منظّم للسكّان يشمل بطاقات جمعت فيها التفاصيل الشخصيّة عن الزعماء العرب المحليّين، كما جرت أعمال تقصّ واسعة بشأن بعض الأشخاص الذين ظهر أنّه من

الممكن أن يصبحوا من زعماء المستقبل، بما في ذلك جمع التفاصيل عن أمكنة سكنهم وتحرّكاتهم وأماكن عملهم. وقد برع من الضبّاط الانكليز في تنظيم الاستخبارات الصهيونيّة في تلك الحقبة عقيد يهوديّ عيّن رئيسًا للدائرة السياسيّة في الوكالة اليهوديّة التي أنشئت عام ١٩٢٠، وقدّم خدمات هائلة للصهيونيّة، وهو "فرِد كيش"، الذي قال عنه أوّل رئيس جمهوريّة للدولة الإسرائيليّة: "كيش ينتمي إلى العالَمين الإنكليزي واليهوديّ"[١].

١ ـ عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦) ص٧ ـ ٩.

جواسيس للعرب داخل إسرائيل

قبل إعلان قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين العربيّة اغتصابًا، وفي منتصف شهر أيّار - مايو عام ١٩٤٨ بحوالى سنة، كان رجال المقاومة العربيّة في حيفا قد تمكّنوا من تجنيد اليهودي "إسحق شلوسكي" للتجسّس لصالحهم.

عمل شلوسكي الذي كان "معبوده المال" حيث كانت المقاومة العربيّة تغدق عليه الأموال بالجنيه الاسترليني، أو بالليرة الفلسطينيّة، التي كانت متداولة قبل قيام الكيان الصهيوني، لعدّة شهور متواصلة في خدمة قوّات المقاومة العربيّة.

في شهر كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٤٧، أمعن شلوسكي في تضليل قوّات الهاغاناه اليهوديّة التي كانت تحارب الفلسطينيّين المقاومين، وعرض عليهم العمل لصالح جهاز خدمة المعلومات في حزب الهاغاناه، أي "جهاز المخابرات". وقبِل ذلك الجهاز عرض شلوسكي شاكرًا، وأثبت هذا قدرته على التردّد على ذلك الجزء من حيفا الذي كان تحت سلطة القوّات العربيّة.

ولكن بعد أن أحكمت الحواجز بين جزءي المدينة، أثارت قدرة شلوسكي على تخطّي جميع الحواجز ليلاً، شكوك قوّات الهاغاناه.

بعد إحدى عمليّاته الناجحة، وعودته من الجزء العربي من المدينة، اعتقلته مخابرات الهاغاناه، وحقّقت معه، فاعترف بالتجسّس للعرب وتزويدهم بالمعلومات التي طلبوها، وكانت النتيجة أن حوكم شلوسكي، وحكم عليه بالإعدام الذي نُفّذ فيه فورًا

باعتبار أنّ عصابة الهاغاناه كانت بدائيّة وهمجيّة في تعاطيها الأحكام، ولها باع طويل في الاغتيالات والقتل والتصفيات.

وفي مدينة يافا الفلسطينيّة، تمكّن ضابط المخابرات في منظّمة "النجّادة" العربيّة للسنوات (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨) من تجنيد اليهوديّة "حايا زايد نبرغ" التي كانت تعمل ممرّضة في المستشفى الوطني الفلسطيني في يافا، وتقيم في "خولون" الواقعة إلى الجنوب من تلّ أبيب، وكانت هذه الممرّضة اليهوديّة الجميلة مغرمة أو عاشقة للضابط العربي "داود ياسميني"، الشاب الجميل المظهر والأنيق المهذّب. وعندما أقام ياسميني في فندق كونتينانتال في يافا، حيث قيادة النجّادة، ازدادت علاقته بحايا، ولم تتردّد هذه في قبول طلبه إليها التجسّس على الهاغاناه.

عندما تحوّلت الحدود بين تلّ أبيب ويافا إلى خطّ جبهة لا يمكن عبوره بسهولة، أصبحت معلومات حايا الدقيقة عن جميع مواقع الهاغاناه في تلّ أبيب قطعًا نادرًا، بالنسبة إلى قوّات المقاومة العربيّة.

ظلّت حايا تعبر الحدود بشكل متواصل، مستفيدة من كونها يهوديّة وممرّضة، دون أيّ اعتراض، إلى أن كُشف أمرها، ونفّذت فيها عصابة "ليحي" حكمًا بالإعدام رميًا بالرصاص في اليوم الأوّل من شهر شباط ـ فبراير ١٩٤٨. لكنّ حقيقة أسلوب كشفها ما زالت غامضة حتّى الآن...

تقول رواية أولى إنّ شابّة عربيّة موظّفة في دائرة بريد يافا، كانت تحبّ داود ياسميني، وتغار عليه، وفي إحدى مكالماته الهاتفيّة تمكّنت تلك الموظّفة من معرفة الإسم الأوّل للممرّضة اليهوديّة حايا، فأبلغت صحافيًا أجنبيًا بما لديها من معلومات ليوصلها إلى الهاغاناه... ولم يخب ظنّ موظّفة البريد، حيث أخبر الصحافي الهاغاناه بقصّة الجاسوسة اليهوديّة حايا، لكنّ هؤلاء تأخّروا في التوصّل إلى هويّتها الكاملة،

وعندما عرفوها، وحاولوا القبض عليها، عثروا عليها جثّة هامدة في مؤسّسة دفن الموتى اليهوديّة، وقرأوا خبر إعدامها في بيان ألصقوه على جدران تلّ أبيب.

أمّا الرواية الثانية فتقول إنّ جهاز الاستماع التابع لعصابة ليحي، تمكّن يوم ٣٠ كانون الثاني - يناير ١٩٤٨ من التقاط مكالمة بين حايا وياسميني، الذي طلب من الجاسوسة إدخال سيّارة متفجّرات إلى قلب تلّ أبيب، فوعدت هذه بالتنفيذ خلال يومين.

وهنا أيضًا لم يُعرف إلاّ الإسم الأوّل للجاسوسة، فأجرت عصابة ليحي سباقًا مع الزمن، وتوصّلت إلى هويّة حايا الكاملة وعنوانها، فذهبوا إلى بيتها، وطلبوا إليها مرافقتهم بعد أن قدّموا أنفسهم كأعضاء في الهاغاناه، وليس في ليحي، وذلك في مطلع شهر شباط - فبراير...

وأُحضرت حايا إلى بيت منفرد قرب "هدار - رماتايم" شمال تلّ أبيب، حيث حُقّق معها، فاعترفت، وأُعدمت بطلق ناريّ.

وإذا كان شلوسكي وحايا قد كُشفا فقُتلا، فإنّ عشرات غيرهما من اليهود الذين تجسّسوا لصالح العرب قبلهما وبعدهما لم يُكشفوا ولم يُقتلوا، ولم تُنشر قصص تجسّسهم، ولن تنشر في المستقبل أيضًا.

ويقول باحثون:

جميع الفلسطينيّين من الرعيل الأوّل، وحتّى الأجانب المسالمين الذين كانوا يعيشون في ربوع القدس، يتذكّرون الحرب العالميّة الأولى، ووجود الجيش البريطاني المستعمر لفلسطين في حينه وقائده في تلك الحقبة اللورد الجنرال أللنبي، عندما يمرّون أمام المقهى المسمّى باسمه: "مقهى أللنبي"، لكنّ القليلين من بين هؤلاء، يعرفون أنّه بين كراسي ذلك المقهى وطاولاته ظلّت تخطو بدلال خلال أشهر متواصلة

من سنتي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ واحدة من أوائل الجاسوسات اللواتي قدّمن للعرب خدمات لا تنسى.

أمور عديدة جعلت من مقهى أللنبي في القدس، أحد أماكن اللقاء والراحة المفضّلين بالنسبة إلى عدد كبير من ضبّاط وأفراد العصابات الصهيونيّة، مثل الهاغاناه وإيتسيل وليحي، ومن بين تلك الأمور موقع المقهى في وسط المدينة الجديدة خارج السور، واستمرار العمل فيه حتّى ساعة متقدّمة من الليل. لكنّ أكثر ما جعل ضبّاط وأفراد تلك العصابات يفضّلون مقهى اللنبي على سواه، كان دون شكّ عمل تلك المضيفة الجميلة فيه، وهي السيّدة اليهوديّة "فيرا دوكس"، التي كانت تعاملهم بودٍّ ظاهر، وتفوقهم إتقانًا للغة العبريّة، إضافة إلى الإنكليزيّة والألمانيّة.

كان جميع روّاد المقهى يعرفون أنّ السيّدة الجميلة دوكس، مطلّقة يهوديّة، هاجرت تسيكوسلوفاكيا مع طفلها، ضمن موجات المهاجرين اليهود، واستوطنت القدس حيث بدأت عملها كمضيفة في المقهى... ما رشّحها لأن تكون موضع تنافس بين روّاد المقهى، لا موضع شكّ...

إستفادت فيرا دوكس من مؤهّلاتها هذه أشهرًا عدّة، كانت تسجّل خلالها على أوراقي المقهى الخاصّة طلبات الزبائن، وتسجّل في ذاكرتها ما يصل إلى سمعها من أحاديث الزبائن عن مواقع ومعسكرات العصابات الصهيونيّة وتحرّكاتها، وتنقل في نهاية كلّ يوم عمل، ما حفظته على أوراق تتحوّل إلى تقارير تجد طريقها بسهولة إلى قيادة القوّات العربيّة في المدينة.

وبطريق الصدفة فقط، ألقى أفراد عصابة ليحي القبض على فيرا دوكس، حيث اعترفت هذه بأنّها مسيحيّة لا يهوديّة، وبأنّها كانت ترفع يوميًّا إلى القوّات العربيّة تقريرًا مفصّلاً عن مواقع وحواجز العصابات الصهيونيّة في "الطالبيّة" و"رحافيا". وإذا

كان الإعلام الصهيوني قد نجح في التقليل من أهميّة هذه القصّة في أعين اليهود بحجّة أنّ بطلتها ليست خائنة، بل مدسوسة على اليهوديّة، فإنّ ذلك الإعلام قد وقف عاجزًا أمام قصّة أخرى، كان بطلها هذه المرّة مهاجرًا من تشيكوسلوفاكيا، ولكنّه كان يهوديًّا غير مزوّر.

حتّى أواسط سنة ١٩٥٦، كانت جميع الكتب الإسرائيليّة عن حرب ١٩٤٨، وخاصّة المصوّرة منها، تهتمّ كثيرًا بتاريخ ١١ آذار - مارس ١٩٤٩، وتردّ ذلك إلى ثلاثة أسباب:

١ - أنّه في ذلك التاريخ انتهت آخر معارك الاحتلال قبل توقيع اتّفاقيّة وقف إطلاق النار الثانية في رودس.

٢ - أنّه في ذلك التاريخ أيضًا، وصلت قوّات الاحتلال إلى خليج العقبة على البحر الأحمر، وتمّ احتلال "أمّ الرشراش"، التي أصبحت تُعرف في ما بعد باسم "إيلات".

٣ - أنّ المجموعة الأولى من قوّات الاحتلال التي وصلت إلى شاطئ البحر الأحمر، لم يكن معها علم عادي لدولة الاحتلال، فرفع هؤلاء علمًا غريبًا بالحبر الأزرق على كوفيّة أحدهم. وكان مع أحد أفراد المجموعة آلة تصوير سجّل بها بعض اللقطات، التي كانت أهمّها صورة رفع العلم الغريب... لكن ما أضحك الإسرائيليّين كثيرًا، هو أنّه خلف صورة رافعي العلم، ظهرت صورة "ألكسندر يولين"، أحد أفراد المجموعة، وهو عار تمامًا ويركض باتّجاه الموج...

ومع تكرار نشر الصورة، أصبحت هذه إسم علم... وموضوع تسلية بالنسبة إلى الاسرائيليّين، إلى أن كانت سنة ١٩٥٦، وتبيّن أنّ صاحب تلك الصورة العارية، أو الصورة التاريخيّة، وهو ألكسندر يولين، الذي يعرفه أصدقاؤه باسم "ساشكا بوليتروك"،

رغم أنّ اسمه الأصلي "تواح فيدل"، وهو جاسوس جنّدته مخابرات إحدى الدول العربيّة في ما بعد للعمل لصالحها داخل الكيان الصهيوني.

كان يولين أو ساشاكا قد وُلد في الاتّحاد السوفياتي عام ١٩١٦، حيث أكمل دراسته الثانويّة ثمّ تخصّص في الصحافة، ومع نشوب الحرب العالميّة الثانية، جرى تجنيده في "الجيش السوفياتي الأحمر"، وتخرّج بدرجة امتياز من كليّة الضبّاط السوفياتيّة، وعمل في الفرع الرابع في الجيش، وهو المخابرات السوفياتيّة قبل الثورة قبل الـ KGB.

بعد انتهاء خدمته في الجيش الأحمر التي قام خلالها بأعمال حربيّة ومخابراتيّة عديدة خلف خطوط القوّات الألمانيّة، لمع نجمه فيها، هاجر يولين إلى بولونيا، ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا، وعُيّن هناك حاكمًا لإحدى المدن، إلى أن اتّصل بمبعوثي الهاغاناه، وهاجر إلى فلسطين بعد ذلك.

خدم يولين في جيش الاحتلال الإسرائيلي وشارك في عمليّات عدّة، ومنها عمليّة احتلال أمّ الرشراش، ولم يترك الجيش حتّى بعدما أنهى خدمته الإجباريّة فيه برتبة ملازم أول.

في سنة ١٩٥٦، سافر يولين، بعد طلاقه من زوجته الثانية، إلى سويسرا، ثمّ إلى فرنسا، حيث اتّصل بسفارة عربيّة في باريس، وأعرب لها عن استعداده لتقديم معلومات عن جيش إسرائيل مقابل مبلغ من المال... ولم يكتف المسؤولون العرب بالحصول على تلك المعلومات القيّمة، بل قرّروا أن يستفيدوا من ذلك الكنز إلى أقصى حدّ ممكن، فأرسله الملحق العسكري في السفارة العربيّة في باريس إلى أثينا، حيث كانت هناك في ذلك الحين، قاعدة سريّة مستأجرة لتجنيد عملاء دولته.

في أثينا، أُعطي يولين جواز سفر ألمانيًّا سافر به إلى عاصمة بلد الملحق العسكري حيث قضى هناك غالبيّة أيّام شهر آب ـ أغسطس ١٩٥٦، وتدرّب على

تحليل الشيفرة والكتابة بها، وكذلك على البثّ بالاسلكي والكتابة بالحبر السرّي، ثمّ أعيد إلى أثينا، وسلّم هناك جواز السفر الألماني واستعاد جوازه الإسرائيلي وعاد لإسرائيل.

ظلّ يولين يعمل لصالح المخابرات العربيّة، إلى أن وقع في خطأه الأول... والأخير، باقتراحه العمل لمصلحة المخابرات الإسرائيليّة كعميل مزدوج، فاضطرّ إلى الاعتراف، عن طيبة خاطر، بعلاقته بالعرب، فحوكم وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات، ولم يخفّف الحكم رغم استئناف يولين إلى المحكمة العليا في القدس.

أمضى يولين هذه العقوبة حيث خرج من السجن وهو تائه لا يدري أين يعمل أو يبدأ حياة جديدة، وهنا تدخّلت المخابرات الإسرائيليّة في حياته مرّة ثانية، حيث استُدعي إلى المركز الرئيسي للمخابرات الإسرائيليّة في تلّ أبيب، وعرض عليه العمل لصالحهم لكي يكفّر عن ذنبه السابق بالتجسّس لصالح القوّات العربيّة. وقد قبل يولين العمل للمخابرات الإسرائيليّة مرغمًا، بأعمال وظيفيّة في تلّ أبيب بدون أن تكون له أيّ قيمة، حتّى طلب السفر إلى تشيكوسلوفاكيا للعيش بين بعض أقاربه هناك، وسُمح له بعد أن أصبح في نهاية العمر...

قبل أن يتمكّن الإعلام الإسرائيلي من التقليل من أهميّة اكتشاف العميل العربي الملازم يولين، في جيش الدفاع الإسرائيلي، وهو العامل لمصلحة المخابرات العربيّة، الذي حوكم وحكمت عليه المحكمة بالسجن خمس سنوات، فوجئ هذا الإعلام وجميع الإسرائيليّين بالكشف عن جاسوس جديد أخطر وأهمّ كثيرًا من الضابط يولين...

هذا الجاسوس الجديد كان "أهارون كوهين"، وهو بالطبع ليس الجاسوس الإسرائيلي "إيلي كوهين" الذي كشفته المخابرات العربيّة وأُعدم في دمشق كما ذكرنا في مكان آخر من هذا المجلّد.

إعتقلت المخابرات الإسرائيليّة الجاسوس أهارون كوهين في تلّ أبيب بتاريخ ١٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٨، حيث أحدث اعتقاله صدمة عنيفة للكثيرين من الذين عرفوه عبر دراساته الأكاديميّة وأبحاثه وكتبه، فمن هو أهارون كوهين؟...

في مطلع سنة ١٩٥٨، لم يبقَ شكّ لدى رؤساء أجهزة الأمن بخصوص وجود جاسوس سوفياتي في شمال البلاد، ولم يكن هؤلاء يعرفون أيّ شيء آخر. لم يعرفوا من هو ذلك الجاسوس أو أين يقيم أو حتّى طبيعة المعلومات التي يعطيها. وضاعت كلّ جهودهم عبثًا.

كان مصدر هذه القناعة بوجود جاسوس، هو الملاحقات... فأكثر من مرّة، خرجت من تلّ أبيب باتّجاه الشمال سيّارة تابعة للسفارة السوفياتيّة، تمكّنت من تضليل ملاحقيها في شوارع وطرق الشمال. وفي إحدى المرّات، تمكّن الملاحقون من مراقبة السيّارة السوفياتيّة إلى أن وصلت هذه إلى حيفا، وضاعت هناك آثارها.

في ١٧ نيسان ـ إبريل ١٩٥٨، لاحظ شاويش شرطة وجود سيّارة تحمل لوحة دبلوماسيّة وتقف في مكان ليس بعيدًا عن الطريق الموصلة إلى كيبوتس "شاعر هعمكيم"، أي "بوّابة السهول"، وتذكّر الشاويش أنّه رأى في المكان ذاته قبل شهر تقريبًا، سيّارة شبيهة بالسيّارة المتوقّفة هناك، فسارع إلى كتابة تقرير وصل إلى المخابرات يوم ٢٥ نيسان ـ إبريل، ليفاجأ هؤلاء بأنّ تلك السيّارة تابعة لسفارة الاتّحاد السوفياتي، وهي السيّارة ذاتها التي ضلّلت ملاحقيها في شوارع الشمال. وبمراجعات سريعة، عرف ضبّاط المخابرات الإسرائيليّة أنّ السيّارة لممثّل إحدى المؤسّسات العلميّة السوفياتيّة في إسرائيل، الذي يتستّر بإعداد أبحاث علميّة، وهو في الواقع يعمل على إعداد أبحاث من نوع مختلف تمامًا... كما يقول تحقيق المخابرات.

في ١٥ أيّار - مايو ١٩٥٨، كشفت دوريّة مراقبة خاصّة هويّة السيّارة التي تقدّمت على الطريق، وهي مطفأة الأنوار الكاشفة، ثمّ انحرفت عن الشارع الرئيسيّ وتوقّفت، حيث نزل منها ذلك الممثّل للمؤسّسة العلميّة، وضاع أثره تمامًا بين اكتظاظ بيوت ذلك الكيبوتس.

وفي ١٥ تمّوز - يوليو ١٩٥٨، عادت السيّارة مرّة أخرى، ورأى المراقبون الممثّل السوفياتي ينزل منها ويلتقي بشخص كان ينتظره، ويدخلان معًا أحد بيوت أهارون كوهين.

عندما علم أركان المخابرات الإسرائيليّة بهويّة صاحب البيت، أصيبوا بخيبة أمل كبيرة، إذ لا يعقل أن يكون كوهين جاسوسًا للمخابرات السوفياتيّة طيلة هذه السنوات.

كان أهارون كوهين قد هاجر من صربيا إلى فلسطين سنة ١٩٣٧ وانضمّ إلى اليسار المتطرّف في حزب "المبام"، ولم يتركه إثر الانشقاق الكبير الذي حدث فيه سنة ١٩٥٣.

أصدر كوهين كتابه الأوّل "الشرق العربي" سنة ١٩٥٥، وأصدر كتابه الثاني "العالم العربي في أيّامنا" سنة ١٩٥٨، وكتب قبل وأثناء ذلك العديد من المقالات حول الشرق الأوسط، وحاضر حول هذه المواضيع في وحدات جيش إسرائيل... وكان كوهين معروفًا لدى الإسرائيليّين كمستشرق وصحافي وباحث وواحد من زعماء حركة "هشعير" وأحد رجال حزب "المبام" المركزيّين. لكنّ جميع الصفات والمواصفات لم تمنع مخابرات إسرائيل من اعتقاله بعد استدعائه بالخدعة إلى مكتب العلاقات في وزارة الخارجيّة في تلّ أبيب، للمحافظة على سريّة الاعتقال.

تبيّن في التحقيق أنّ اتّصالات أهارون كوهين بالموظّف السوفياتي قد بدأت منذ سنة ١٩٥٥، وهي السنة التي تمّ فيها التقارب الكبير بين دول المعسكر الشرقي والدول

العربيّة على حدّ تعبير المخابرات الإسرائيليّة. وبرغم ثبوت تعامل كوهين مع المخابرات السوفياتيّة، والعربيّة بالتالي، كما تقول المصادر الإسرائيليّة ذات العلاقة بالمخابرات، فإنّ خبر الاعتقال قد أدّى إلى تحرك أعضاء حزب المبام للدفاع عن زعيمهم، بعدما أفاق هؤلاء من حدّة المفاجأة...

بعد انتهاء التحقيق معه، قُدّم بتاريخ ١٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٥٩ أمام المحكمة المركزيّة الإسرائيليّة في حيفا وحوكم بتهمتين: جمع معلومات هامّة عن إسرائيل تفيد العدوّ؛ وتسليم تلك المعلومات إلى عميل حكومة أجنبيّة.

ظلّت محاكمة أهارون كوهين تؤجّل، مرّة بعد مرّة، نتيجة تدخّلات حزبه "المبام" الذي قلّل من قيمة تجسّسه إلى أن صدر الحكم عليه بالسجن خمس سنوات في شهر كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٢، فتقدّم محامو حزب المبام باستئناف هذا الحكم أمام محكمة الاستئناف العليا فخفّضت هذه المحكمة مدّة السجن إلى النصف، أي لسنتين ونصف السنة، رغم قناعة المحكمة وإدانتها للمتّهم الجاسوس بالتهمتين، فخرج من السجن وكأنّ شيئًا لم يكن، لأنّ مدّة نصف الحكم كان قد أمضاها سجينًا مرفّهًا أثناء التأجيلات المصطنعة لقضيّته...

لم تمضِ أشهر قليلة على اعتقال الجاسوس أهارون كوهين، حتّى صدرت الصحف الإسرائيليّة أواخر صيف ١٩٥٩ وهي تحمل في صفحاتها الأولى خبر اعتقال المخابرات الإسرائيليّة لجاسوس إسرائيلي الأصل والفصل هو المهندس "إسحق زلبرمان"، من يهود عكّا، الذي كان الحلقة التالية في مسلسل هؤلاء الجواسيس...

برغم أنّ إسم المهندس "زلبرمان" لم يكن مشهورًا ومعروفًا مثل إسم "أهارون"، فإنّ اعترافه بالتجسّس لصالح مخابرات ألمانيا الشرقيّة في حينه، قد هزّ إسرائيل مثل اعتقال أهارون لسببين هما: طول مدّة عمله كجاسوس (١٩٥١ ـ ١٩٥٩) دون أن

تكتشفه المخابرات الإسرائيليّة؛ وخطورة المعلومات التي نقلها إلى المخابرات الألمانيّة الشرقيّة. وسبب وجود خطورة وضرر نتيجة الأخبار التي نقلها وهي تلك المعلومات التي حصل عليها من أماكن عمله المتعدّدة والتي كان آخرها وأخطرها في قرية الصلب التابعة لشركة "كور" قرب عكّا، حيث عمل هناك كمهندس، وكانت وظيفته الرسميّة تقع تحت إسم "مخطّط كبير"، فكان على اطّلاع تامّ وكامل على جميع أنواع وإنتاج الصناعات الحربيّة الإسرائيليّة الهامّة.

إعتُقل زلبرمان عن طريق مراقبة بريده ورسائله من قبل المخابرات الإسرائيليّة بشكل روتيني، بسبب عمله كمهندس ومخطّط كبير في مشاريع الصناعة العسكريّة الإسرائيليّة. فاكتشفت هذه المخابرات تجسّسه من رسائله التي فضحته وأثبتت عليه التجسّس، فأُلقي القبض عليه.

في الثاني من شهر تشرين الثاني - نومبر ١٩٥٩، حُكم على زلبرمان بالسجن لمدّة سبع سنوات، لكن استئناف المدّعي العام لدى المحكمة العسكريّة العليا في القدس أدّى إلى رفع هذه العقوبة إلى تسع سنوات عوضًا من تخفيضها، واختفى هذا الجاسوس في سجون إسرائيل ليظهر جاسوس آخر يعمل لصالح العرب.

الجاسوس الجديد الذي دخل الجسم الصهيوني تخلّصًا من الأسر أثناء الحرب هو المدعو "أولبريخ شنافط"، الذي كان اسمه مرّة "غفرئيل زيسمان"، ومرّة أخرى "دافيد فايتسبرغ"، وكان بالإمكان اعتباره "سائحًا جاسوسًا"، ويمكن اعتباره أيضًا "خائنًا" بالمقاييس الإسرائيليّة طبعًا، كما كان يمكن اعتباره "جاسوسًا محترفًا"، بل بالإمكان أن تنطبق عليه جميع هذه الصفات معًا، مضافًا إليها شيء آخر، إلى درجة جعلته عن حقّ مؤهّلاً لاحتلال صفة متميّزة في تاريخ التجسّس العربي في إسرائيل.

من المعروف أنّ اليهودي الذكر يتعرّض، أو من الواجب أن يكون مختونًا، والختان يقال له باللغة العربيّة العاميّة "الطهور" أو "التطهير"، ويتمّ بطريقة طبيّة مدروسة، ولكن ختان أيّ يهودي غير صاحب هذه القصّة يبدأ في أيّام حياته الأولى، بينما بدأ فصل ختان أولبريخ عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، وهو معتقل في معسكر للأسرى الألمان في شمال إيطاليا، إبّان الحرب العالميّة الثانية، حيث تمّ أسره بعد إصابته بشظيّة قنبلة وهو يقاتل مع غيره من الآلاف من الجنود الألمان على الجبهة الشرقيّة بعد أن أعيد إلى ألمانيا وتمّت معالجته وأُرسل إلى سهل "البو" في إيطاليا حيث أسره الأميركيّون هناك. وكان من حسن حظّ أولبريخ أنّه قام، قبل أسره بلحظات، بإبادة جميع الوثائق الرسميّة التي كان يحملها والتي تثبّت جنسيّته الألمانيّة. وكان أسره على أساس الشكّ في ألمانيّته وليس الثقة بها.

وقبيل انتهاء الحرب العالميّة الثانية، خطرت في ذهن الأسير أولبريخ فكرة ذكيّة تساعده على الخلاص من الأسر، وما بعد الأسر أيضًا، وكانت الفكرة باختصار أن يتقمّص شخصيّة يهودي ألماني عادي.

أولى الخطوات العمليّة على طريق تحقيق هذه الفكرة كانت أن ينهي عمليّة الختان دون ضجّة، وقبل أن يتمّ فرز الأسرى نهائيًا... وكما كانت الفكرة جهنميّة، كان التنفيذ أيضًا... وبعد أشهر معدودة من الختان على سنّة إسحق وابراهيم، أصبح أولبريخ يتجوّل في أوروبّا مشرّدًا مثل غيره من الذين شرّدتهم الحرب العالميّة الثانية، دون أن يخطر بباله ولو للحظة أن يعود إلى بلده الأصلي في "كيغسبرغ"، التي كانت في حينه قد سقطت في يد الجيش الأحمر، وذلك خشية اكتشاف حقيقته وهويّته الأصليّة...

لكنّ حياة التشرّد لم ترق له، على ما يبدو، وقاده تفكيره إلى قناعة تقول بأنّ أكثر الأماكن أمنًا بالنسبة إليه ليست إلاّ "دولة إسرائيل".

بعد أشهر من الإعداد الدقيق، وصل أولبريخ إلى مكاتب وكالة "هياس" في "كيلن"، وقصّ على المسؤولين هناك قصّة حياته التي ملخّصها أنّ والديه اليهوديّين قد أبادهما النازيّون، وأنّه شخصيًا أُرغم على العمل بالسخرة في مصنع ألماني صغير قرب برلين.

كانت قصّة أولبريخ شبيهة تمامًا بآلاف القصص والروايات الأخرى التي منحت أصحابها "حقّ" الهجرة إلى فلسطين...

وبالفعل، وصل أولبريخ إلى الأرض المحتلّة في شباط ـ فبراير ١٩٤٩، وأصبح بعد أيّام من وصوله جنديًا عاديًا في "جيش الدفاع الإسرائيلي"، تحت إسم "غفرئيل زيسمان".

بعد انتهاء الخدمة من الجيش، برتبة ملازم في سلاح المدفعيّة، بدأ أولبريخ ـ زيسمان، وبناء على طلبه، العمل في الزراعة، وكان جميع معارفه وجيرانه في بلده الجديد في النقب يحبّونه ويقدّرونه بعدما لاحظوا جودة عمله وإنتاجه.

سنة ١٩٥٤، وفي أحد أيّام شهر أيّار ـ مايو بالتحديد، سافر زيسمان، كعادته في نهاية كلّ أسبوع، إلى تلّ أبيب، حيث تعرّف هناك إلى فتاة يهوديّة، وبنى معها علاقات صداقة وودّ ومحبّة.

بعد تناول العشاء في مساء ذلك اليوم، ظلّ زيسمان مواظبًا على طلب زجاجات البيرة، واحدة تلو الأخرى، إلى أن سكر تمامًا، وفقد القدرة في السيطرة على تصرّفاته وكلامه... وفي إحدى تلك اللحظات، سمعته الصديقة وهو يقول، وكأنّما يتحدّث لنفسه: "هذه بيرة هذه؟ ها؟ هذه ليمونادة... في الوطن كان عندنا بيرة حقيقيَة"!

وسألت الصديقة: أيّ وطن تقصد؟

وأجابها زيسمان دون تردّد: ألمانيا طبعًا!... ماذا؟ ألا تصدّقين؟... أنظري إذن..

وأخرج من حقيبته صورة صغيرة ظهر فيها وهو بلباس الجيش النازي، وخلفه "كنيس" مشتعل...

ودّعته صديقته الجديدة وتوجّهت إلى الشرطة فورًا...

بعد أيّام من تلك الحادثة، اعتقلت الشرطة الإسرائيليّة غفرئيل زيسمان، وسلّمته إلى المخابرات، حيث اعترف هناك بأنّه ليس غفرئيل زيسمان، وإنّما هو الألماني الأصل أولبريخ شنافط.

برغم جميع التحقيقات معه، فإنّه لم يدلِ بكلمة واحدة عن حقيقة نشاطاته خلال سنواته الأربع التي قضاها في العمل كمزارع، في حين تابعت الصحف الألمانيّة التأكيد على أنّ أولبريخ كان خلال تلك السنوات على علاقة واتّصال بأجهزة المخابرات العربيّة في دولة قريبة من بلده الجديد في النقب. وإزاء استمرار صمت أولبريخ، لم تتمكّن أجهزة المخابرات الإسرائيليّة من تقديمه إلى المحاكمة، واكتفت بسحب جنسيّته الإسرائيليّة التي كان قد حصل عليها مثل أيّ يهودي آخر، وطردت تلك السلطات أولبريخ من الأرض المحتلّة بعدما زوّدته بوثيقة سفر صالحة لسفرة واحدة، وصل بها وبتذكرة السفر التي أعطيت له، إلى إيطاليا.

لم يمضِ وقت طويل، حتّى كان أولبريخ قد وصل إلى سفارة مصر العربيّة التي كان يعمل لمصلحتها في سني إقامته في إسرائيل، باسمه اليهودي... وبعد أسئلة عديدة للتيقّن والتأكّد من حقيقة هويّة أولبريخ، أرسل هذا إلى القاهرة، حيث أقام أشهرًا عديدة بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٥٧، وقدّم هناك خدمات لا تحصى، كان أهمّها تعليم اللغة العبريّة وتدريس طبيعة الأرض المحتلّة لدورات عدّة من ضبّاط الجيش العرب.

قبل نهاية عام ١٩٥٧، قبل أولبريخ إقتراحًا جديدًا من المخابرات العربيّة يقضي بعودته ثانية إلى الأرض المحتلّة.

وفعلاً، وصل أولبريخ من جديد إلى ميناء حيفا قادمًا من أوروبّا بجواز سفر مزوّر تحت إسم "دافيد فايتسبرغ"، وأقام في مدينة حيفا نفسها، متّخذًا إيّاها منطلقًا للعمل لصالح المخابرات العربيّة، ومستفيدًا من إتقانه للغة العبريّة ومعرفته لجميع المدن والقرى والكيبوتسات والطرق في الأرض المحتلّة. لكنّ السكر الذي فضحه في المرّة الأولى عاد وأفشله في المرّة الثانية... إذ بعد انتهاء إحدى جولاته الليليّة، مرّ بأحد البارات في شارع "الاستقلال"، الذي كان من قبل "شارع الملوك" في مدينة حيفا قرب الميناء.

بعدما سكر أولبريخ، أخرج من جيبه مسدّسًا على شكل قلم حبر زوّدته به المخابرات العربيّة ليثبت للبحّارة في ذلك البار أنّه شجاع مثلهم... وعندما لم ينفعل البحّارة وينبهروا بمسدّس أولبريخ الذي كان قد سكر، اشتاط غضبًا، وبدأ يشتمهم ويؤكّد قدرته على قتلهم جميعًا... ومؤكّدًا أيضًا أنّه "قتل كثيرين منهم في الحرب العالميّة الثانية أيّام جيش الفوهرر عندما كان في هذا الجيش"...

لم يتأخّر ردّ الفعل، حيث عاد أحد البحّارة الأميركيّين بعد دقائق ومعه شرطيّان إسرائيليّان، اعتقلا أولبريخ الذي حاول الخروج من المعتقل بمساعدة جواز سفره المزوّر... لكنّ بصمات أصابع أولبريخ كشفت حقيقة هويّته، فأخذ إلى التحقيق، حيث أصرّ هناك من جديد على عدم التحدّث عن سنوات عمله في جنوب الأرض المحتلّة، مكتفيًا بالقول: "كنت مزارعًا"...

في المحكمة، لم تنفع أولبريخ ـ زيسمان ـ فايتسبرغ ولم تساعده أيضًا روايته عن حبّ فاشل ربطه بفتاة يهوديّة إسرائيليّة ودفع به، على حدّ قوله، إلى الانتقام من

إسرائيل بعملـه ضدّها، وصدر عليه الحكم بالسجن سبع سنوات، طُرد بعدها من الأرض المحتلّة، بعدما وُزّعت صوره على مخافر الشرطة في الأرض المحتلّـة، لمنع عودته من جديد وبأيّ إسم أو صفة.

***

إذا كانت قصّة تجسّس أولبريخ لمصلحة المخابرات العربيّة قد شغلت الإسرائيليّين من باب كونها قصّة خطيرة وطريفة، فإنّ قصّة تجسّس "سامي باروخ" للمخابرات العربيّة أيضًا قد شغلت الإسرائيليّين من جهة كونها قصّة خطيرة، وخطيرة للغاية، أثبتت لهم جميعًا أنّ المجتمع الإسرائيلي ليس مجتمعًا منزّهًا كما تحاول أجهزة إعلامه أن تصوّره، بل هو أكثر من مجرّد مجتمع فاسد، يعمل في التجسّس عليه، ولمصلحة عدوّه، أفراد عديدون من الذين يُعتبرون "عليّة القوم"، مقابل الأموال وغيرها.

ليس أمرًا عاديًّا أن يعمل في التجسّس ضدّ بلده وجيشه شخص مثل "سامي باروخ"، الذي كان مهندسًا وصناعيًّا كبيرًا، ومن وجوه المجتمع الإسرائيلي المعروفة. أكثر من ذلك، كان مرشّحًا لاحتلال مقعد في الكنيست: برلمان إسرائيل.

إذا كان تعبير "سمكة تجسّس" يطلق عادة على من يندمج تمامًا في مجتمع ما، ويتجسّس عليه، فإنّ مخابرات إسرائيل وسلطاتها استصغرت هذا التعبير، ووصفت سامي باروخ بأنّه "حوت تجسّس"... فمَن هو سامي باروخ؟

ولد سنة ١٩٢٤ في القدس العربيّة، لعائلة يهوديّة غنيّة تحمل الجنسيّة الفرنسيّة. وعندما بلغ "شموئيل باروخ"، المعروف باسم "سامي باروخ"، سنّ الشباب، أرسله والده إلى إحدى مدارس بريطانيا، لكنّه في سنة ١٩٤٦ أوقف تعليمه، وتجنّد في الجيش البريطاني الذي خدم فيه أربع سنوات كاملة.

في سنة ١٩٤٦، تسجّل سامي باروخ في "الكليّة التكنولوجيّة" في لندن، وتخرّج منها بعد ثلاثة سنوات بشهادة مهندس نسيج. وبنى مصنعًا للنسيج في مدينة "مانشستر" البريطانيّة، وتزوّج من فتاة يهوديّة إبنة إحدى عائلات تلك المدينة الغنيّة. وبعد تسع سنوات من اطّراد نجاح مصنعه، قرّر سامي باروخ الهجرة إلى الأرض المحتلّة، فهاجر وأقام مصنعًا للنسيج في "كريات غات" وسمّاه مصنع "أراغدين".

لكنّ مصنع سامي باروخ الجديد في جنوب فلسطين، لم ينجح، وأعلن إفلاسه في شهر شباط ـ فبراير ١٩٥٩، أي بعد أشهر معدودة فقط من إقامته، دون أن يؤثّر ذلك بأيّ شكل على مستوى وأسلوب حياة سامي باروخ الخاصّة.

تقول الرواية الإسرائيليّة إنّه في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٣، سافر سامي باروخ إلى سويسرا، واتّصل هناك بسفارة إحدى الدول العربيّة، وعرض عليها عرضًا قبلته على الفور، ويقضي بأن تساعد تلك الدولة العربيّة سامي باروخ على إعادة تشغيل مصنعه، مقابل استيعابه في هذا المصنع كلّ من ترسله إليه المخابرات العربيّة على أنّه خبير في أعمال النسيج، وعلى أن يساعد هؤلاء "الخبراء" على الاندماج في المجتمع الإسرائيلي...

عندما سأل سامي باروخ مسؤول المخابرات العربيّة عن رأيه في عمله السياسي كعضو بارز في حركة "إسرائيل الشابّة"، شجّعه ذلك المسؤول على الاستمرار في عمله، بل وطلب منه زيادة ومضاعفة نشاطه في تلك الحركة.

وبمجرّد عودة سامي باروخ إلى الأرض المحتلّة، وإعادته تشغيل مصنعه بأموال عربيّة، بدأ بإرسال التقارير إلى المخابرات العربيّة على عناوين متّفق عليها في أوروبّا، وتنوّعت هذه التقارير وتعدّدت، بين تقارير عن الوضع العسكري، إلى تقارير

عن الحالة السياسيّة والوضع الاقتصادي وما شابه ذلك في مختلف الشؤون الإسرائيليّة الهامّة.

ظلّ سامي باروخ في حركة "إسرائيل الشابّة"، وتسلّم مسؤوليّة الحركة من الناحية الماليّة، وكان أحد مرشّحيها إلى الانتخابات البرلمانيّة الإسرائيليّة. لكنّ نشاط سامي باروخ المتشعّب والمهمّ أوقف فجأة عندما عثرت المخابرات في حقائبه وهو مسافر عبر ميناء حيفا يوم ٢٥ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٤، على مستمسكات أثبتت عمله التجسّسي ضدّ إسرائيل، فاعتُقل، وقُدّم إلى المحكمة التي قضت في ٨ كانون الثاني - يناير ١٩٦٥ بسجنه لمدّة ١٨ سنة، على أنّ المخابرات الإسرائيليّة، حاولت أن تخفّف من الصدمة التي أصيب بها الإسرائيليّون باكتشافهم أنّ أحد زعمائهم يعمل جاسوسًا لمصلحة العرب بإلصاق تهم مشينة به، معتقدة أنّ سامي باروخ الذي حُكم ١٨ سنة، لن يكون شديد الحماسة للدفاع عن نفسه، وهو يعرف مسبقًا أنّ الحكم عليه بأيّ تهمة أخرى لن يزيد من المدّة التي فرض عليه قضاؤها في السجن.

ولكنّ المدّعي العام الإسرائيلي، الذي قدّم سامي باروخ إلى المحكمة الجنائيّة بتهمة سرقة شكّ بمبلغ ٢٥,٠٠٠ ليرة إسرائيليّة، فوجئ بسامي باروخ ينقضّ بضراوة مدافعًا عن نفسه، ومثبتًا للمحكمة بالدليل القاطع براءته من هذه التهمة، ولم ترَ المحكمة مفرًّا من الحكم بالبراءة لهذه الجهة.

عندما استأنف سامي باروخ الحكم بالتجسس أمام المحكمة العليا في القدس، نظرت تلك المحكمة في قضيّته من جديد، فصادقت على تجريمه بالتآمر لتسليم معلومات للعدوّ بهدف الإخلال بأمن الدولة، وبقيامه فعلاً بتسليم معلومات من هذا النوع، وكذلك بجمع معلومات جديدة بهدف تسليمها، وثبّتت الحكم عليه من جديد بالسجن ١٨ سنة، وهو واحد من أقسى الأحكام التي صدرت في إسرائيل في مثل هذه التهم.

في أحد أيّام سنة ١٩٦١، نفذ صبر "مردخاي لوك"، ونفّذ ما كان يحلم به عندما تسلّل عبر حدود الأرض المحتلّة، وسلّم نفسه إلى المخابرات المصريّة، وزوّدها بمعلومات عسكريّة وأمنيّة هامّة. لكنّ المخابرات المصريّة أبقت مردخاي في السجن، وتابعت التحقيق معه على محورين: التحقيق في ما رواه عن نفسه وهويّته، والتحقيق في المعلومات العسكريّة التي قدّمها، وأرسلت تسأل عنه عملاءها داخل إسرائيل.

عندما تبيّن صدق رواية مردخاي، ابتداء من ولادته في المغرب وانتهاء بعبوره الحدود، مرورًا بماجريات حياته في الأرض المحتلّة، وصدق ما نقله من معلومات عسكريّة وأمنيّة، بدأت المرحلة التالية من مراحل قصّته.

كانت هذه المرحلة هي تدريب مردخاي لوك على أساليب التجسّس الحديث، ثمّ إعداده للسفر إلى الخارج بجواز سفر مزوّر حمل تحت صورته إسم "يوسف دهّان".

في النصف الثاني من سنة ١٩٦٣، سافر دهّان بأمر المخابرات المصريّة إلى فرانكفورت في ألمانيا الغربيّة، ثمّ نُقل بعد ذلك بأسبوعين إلى مدينة نابولي في إيطاليا. وبوصول "يوسف دهّان" إلى نابولي، أقام في أحد فنادقها الرخيصة في ساحة غاريبالدي، ثمّ نقلته المخابرات المصريّة إلى غرفة استأجرتها له في بنسيون هادئ في شارع أنونتيلتا رقم ٣٠.

وتغطية لحقيقة عمل دهّان، فقد أمرته المخابرات المصريّة بأن يسجّل نفسه في سجلاّت الشرطة في تلك المدينة على أنّه طالب جامعي بعد أن زوّدته بوثائق رسميّة تتيح له الدراسة الجامعيّة.

وزيادة في ضمان عدم انكشاف حقيقته، بدأ يوسف دهّان العمل في أحد مكاتب السفريّات المحليّة في نابولي.

وطوال الأشهر المتبقّية من سنة ١٩٦٣، والأشهر العشرة الأولى من سنة ١٩٦٤، واظب دهّان على رفع التقارير إلى المخابرات العربيّة، وكانت مهمّته الأساسيّة في تلك الفترة، مراقبة تحركات سفن سلاح البحريّة الإسرائيليّة التي كانت تتردّد على ميناء نابولي، وكذلك سفن الأسطول الأميركي السادس في البحر المتوسّط، الذي كانت نابولي إحدى قواعده الهامّة.

بعد انتهاء هذه الفترة، جاء دور المرحلة الثالثة، وهي اللغز الأكبر الذي لم يُكشف حتّى الآن.

في بداية هذه المرحلة، انتقل دهّان إلى روما، واختفى هناك عن الأنظار، ليظهر فجأة داخل الحقيبة الكبيرة التي أخذت تتدحرج كسفينة وسط بحر هائج، وهي فوق الشريط المتحرك في مطار روما... فاعتقلته الشرطة الإيطاليّة بدون أن تعرف من وضعه بالحقيبة، وقد استفادت المخابرات الإسرائيليّة من هذا الغموض إلى أبعد حدود، حيث راحت تسرّب إلى الصحف الصهيونيّة في إيطاليا وغيرها إشاعات تقول إنّ يوسف دهّان كان عميلاً إسرائيليًّا... أو في أحسن الأحوال عميلاً مزدوجًا لهم وللمخابرات العربيّة...

عندما أعرب دهّان عن استعداده وتمنّيه العودة إلى إسرائيل، بعد ترداده أمام محقّقي الشرطة الإيطاليّة أنّه ليس لديه ما يصرّح به، كادت إشاعات المخابرات الإسرائيليّة أن تتحوّل في أذهان المتابعين إلى حقائق. لكنّ خاتمة قصّة مغامرات لوك ـ دهّان، جاءت لتثبّت بما لا يدع مجالاً للشكّ، بطلان تلك الإشاعات، إذ بعد "فترة نقاهة" أعيد هذا الجاسوس إلى إسرائيل، فاعتُقل في مطار اللدّ بمجرّد وصوله، وقُدّم إلى المحكمة الإسرائيليّة التي قضت بسجنه إحدى عشرة سنة كاملة.

مع صدور الحكم عادت الصحف إلى قصّة "لوك ـ دهّان"، مؤكّدة على أنّه كان جاسوسًا للمخابرات المصريّة، إذ لو لم يكن كذلك بالفعل لأفرجت عنه السلطات الإسرائيليّة، أو على أقلّ تقدير كانت أصدرت بحقّه حكمًا مخفّفًا للغاية بدل الحكم الذي كان ثالث أقصى حكم يصدر ضدّ جاسوس يهودي إسرائيلي يعمل لمصلحة المخابرات العربيّة. ورغم انطواء قصّة هذا الجاسوس، فإنّ السؤال الذي ما زالت تطرحه جميع الصحف يدور حول عدم استبعاد أن تكون المخابرات المصريّة، قد طلبت إلى لوك ـ دهّان العودة إلى إسرائيل، فرفض التنفيذ خوفًا من انكشافه، ورفض العودة إلى الدولة العربيّة التي كان يعمل لمصلحتها خوفًا من العقاب لرفض الأوامر، ونتج عن كلّ ذلك تلك التطوّرات التي جعلت من الحقيبة... إسم علم.

***

في أواخر الخمسينات، اشترى "يهودا نتانئيل باخر" سفينة "كاليبسو"، وأقلع بها من إيلات إلى ميناء "مصوع" في إثيوبيا، وكان هو ربّانها ومالكها.

بوصول السفينة إلى ذلك الميناء، تعطّل محرّكها، فألقت مراسيها فيه، ولم ترفع إلى ظهرها شحنة الصدف التي تعهّد يهودا بنقلها إلى إيلات في إسرائيل.

ترك يهودا سفينته في ميناء "مصوع" وعاد بمفرده إلى إسرائيل، وبدأ يعمل في مناجم "تمناع" للنحاس في النقب حتّى شهر آذار ـ مارس سنة ١٩٦٠، حيث علم بقرار السلطات الإثيوبيّة عرض سفينته للبيع بالمزاد العلني، بعد تراكم رسوم الرسو عليها والتي لم تُسدّد.

في ذلك الشهر طار يهودا باخر إلى إثيوبيا، لمحاولة تخليص سفينته، ولإقامة علاقة بالمخابرات العربيّة. وإذا كان هدفه الأوّل لم يتحقّق، فإنّ هدفه الثاني حقّق نجاحًا واضحًا، حوّله من ربّان ومالك سفينة عادي، إلى ربّان جاسوس.

قام يهودا باخر بجولات عديدة رفع خلالها تقارير هامّة للمخابرات العربيّة، بعد أن انتقل من مصوع إلى أسمرا، التي أصبحت مركز عمله الجديد. لكنّ فترة عمله جاسوسًا لمصلحة المخابرات العربيّة لم تطل كثيرًا، حيث اعتُقل في إسرائيل، وحقّق معه وقدّم إلى المحكمة المركزيّة في القدس المحتلّة. وقد تمكّن المدّعي العام الإسرائيلي من إثبات بطلان كلّ ادّعاءات يهودا باخر، التي كان أوّلها إصراره على أنّه "إسرائيلي وطني"، حيث عرض المدّعي العام أمام المحكمة رسالة كان قد بعث بها يهودا من إثيوبيا إلى عائلته في الأرض المحتلّة، وجاء فيها قوله:

"لقد تخاصمت مع قنصل إسرائيل هنا، وأنا أعرف أنّ هذه الدولة (إسرائيل) قد ماتت بالنسبة إليّ... لست مستعدًّا للاستمرار على هذا المنوال... إنّني أكره هذه الدولة تمامًا بقدر ما كنت أحبّها من قبل".

وكانت هذه الرسالة هي السبب في كشفه.

عندما حاول يهودا باخر تبرير تجسّسه ضدّ إسرائيل لمصلحة المخابرات العربيّة بالضائقة الماليّة التي كانت تمرّ بها عائلته، أبرز المدّعي العام وثائق تثبّت أنّ زوجة يهودا تملك سفينة "دولفين" التي يقدّر ثمنها بعشرات الآلاف من الليرات الإسرائيليّة.

إزاء هذه الحقائق، لم تتردّد المحكمة في اعتبار يهودا باخر جاسوسًا وخائنًا، بالمقاييس الإسرائيليّة، وحكمت عليه بالسجن سبع سنوات، لأنّه حاول الاغتناء عن طريق "خدمة العدو"، رغم كثرة أبواب الكسب المشروع التي كانت مشرّعة أمامه...

***

إذا كان جميع من ورد ذكرهم من الجواسيس اليهود الإسرائيليّين، الذين بدأوا عملهم لمصلحة المخابرات العربيّة، وهم في خارج إسرائيل، قد موّلوا رحلاتهم

بأنفسهم، فإنّ وزارة الدفاع الإسرائيليّة قد موّلت رحلة الجاسوس اليهودي الإسرائيلي "حاييم عكفا".

في شهر آب ـ أغسطس ١٩٥٨، كان حاييم في روما ضمن بعثة من قبل وزارة الدفاع الإسرائيليّة، دون أن يكون في نيّته خدمة أمن الدولة، كما تقول المعلومات عن قصّة التجسّس العربي في إسرائيل.

لكنّ هذا لم يكن الأمر الوحيد الذي ميّز حاييم عكفا عن غيره من الجواسيس اليهود، حيث ميّزه أيضًا طلبه من المخابرات المصريّة مبلغ ٢٠ ألف دولار ثمن المعلومات الأوليّة التي قدّمها لهم.

رغم أنّ ضابط المخابرات المصريّة قد فوجئ بحجم المبلغ الذي طلبه حاييم، فقد عيّن موعدًا للقاء به في مقهى "فيافنتو" في روما، ثمّ في شقّة خاصّة بعد ذلك، حيث حصل منه على المعلومات التي بحوزته، ومدّه بمبلغ أقلّ من المبلغ الذي طلبه، ووعده بأن يستمرّ الدفع له باستمرار تقاريره عن جيش إسرائيل ومنشآته ومواقعه.

قبل عودة حاييم عكفا إلى إسرائيل، زوّده رجل المخابرات المصريّة برقم صندوق بريد في روما أمره بالكتابة إليه تحت إسم "روزماي مولين". وطوال سنوات عديدة، ظلّ حاييم يعمل بنشاط لمصلحة المخابرات المصريّة، ولم يُكشف إلاّ يوم ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٧، حيث اعتقل، وقُدّم إلى المحكمة بعد أشهر، وحُكم عليه بالسجن لمدّة عشر سنوات.

قبل أربعة أشهر من انكشاف حاييم عكفا، أي في شهر تموز ـ يوليو ١٩٦٧، كشفت السلطات الإسرائيليّة جاسوسًا يهوديًّا آخر هو "أفراهام دفني"، عمل لمصلحة المخابرات العربيّة طوال ثلاث سنوات.

ففي سنة ١٩٦٤، سافر أفراهام دفني، الذي كان شرطيًّا في إسرائيل لمدّة أربع سنوات إلى إيطاليا ثمّ إلى ألمانيا الغربيّة، وأخيرًا وصل إلى فرنسا حيث اتّصل هناك بسفارة إحدى الدول العربيّة وعرض عليها العمل لمصلحة مخابراتها مقابل مبالغ من المال تُدفع له، وتتلاءم مع أهميّة ما تحويه تقاريره. وبعد هذا الاتّفاق، بدأ أفراهام عمله من فرنسا، ثمّ عاد إلى إسرائيل سنة ١٩٦٦ وانكشف واعتقل عام ١٩٦٧.

يقول باحثون: إنّ قائمة أسماء الإسرائيليّين الذين عملوا في التجسّس ضدّ إسرائيل، ما زالت طويلة، رغم أنّها لا تحوي غير أسماء من كُشف عنهم، وهم ليسوا بالضرورة، كما تقول المصادر الإسرائيليّة، غالبيّة اليهود الذين يعملون في التجسّس لمصلحة العرب. لكن أكثر ما يُلاحظ في هذا المجال، هو وجود التنسيق التام بين أجهزة مخابرات العدو، وأجهزة إعلامه، حيث يعطي هذا التنسيق نتائج هي أخطر بكثير من نتائج نشاط العدوّ التجسّسي ذاته.

وبعد هذه المعلومات الحقيقيّة الموثّقة عن قصّة التجسّس العربي في إسرائيل، يُستفاد من الصحف الإسرائيليّة المترجمة أنّه داخل السجون الإسرائيليّة ومعتقلاتها الكثيرة، عشرات من اليهود الإسرائيليّين الذين عملوا كجواسيس حقيقيّين للمخابرات العربيّة المختلفة، بما فيها المخابرات اللبنانيّة التي كان لها عدد من العملاء فعلاً داخل الكيان الصهيوني[١].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٥: ١٥٥ ـ ١٩١.

المخابرات العربيّة عمومًا

ذكر باحثون في شؤون الاستخبارات أنّ الجميع يعرف أنّ المخابرات العربيّة قد أصبحت من القوّة بحيث لها رجالها المحترفون ومنجزاتها في حقل التجسّس، تضاهي المخابرات الأجنبيّة، حتّى أنّها تستعمل أحدث ما وصل إليه فنّ التجسّس من مخترعات دقيقة، وقد درّبت رجالها على استعمال جميع هذه المخترعات والأجهزة منذ سنين، إمّا بدورات تدريبيّة في الدول المنتجة لهذه الأجهزة، وإمّا باستخدام الخبراء من هذه الدول لنفس الغاية.

ويقول الباحثون أنفسهم إنّه لم يعد سرًا بأنّ للمخابرات العربيّة شبكات تجسّس منظّمة على أحدث الطرق، وموزّعة في أماكن مدروسة، تعمل في البلاد التي يهمّ الدول العربيّة معرفة أسرارها، والاطّلاع على ما يجري فيها، وهذه الشبكات تعمل بانتظام تامّ وسريّة مطلقة منذ إنشائها، ونادرًا ما يتعرّض بعضها إلى الكشف، وذلك بفضل حسن تدريب رجالها على أيدي أخصّائيّي المخابرات العربيّة، وتقوم هذه الشبكات بتزويد المخابرات العربيّة بجميع ما يطلب منها أوّلاً بأوّل، وبمختلف الوسائل، وأبطالها نذروا أنفسهم لخدمة بلادهم بصمت وصبر... وليس من دليل صادق على أنّ المخابرات العربيّة تقوم بواجبها خير قيام ممّا يطّلع عليه المراقبون في المنشورات والصحف والمجلاّت العربيّة والأجنبيّة أو قراءة أخبار اكتشاف شبكات التجسّس المعادية في سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر وحتّى في بعض دول الخليج. أمّا في العراق، فقد اكتشفت عدّة شبكات تجسّس أهمّها "شبكة تجسّس البصرة" التي حكم

على أغلب أعضائها شنقًا، ونُفّذ الحكم فيهم صباح ٢٧ كانون الثاني - يناير ١٩٦٩، وبعدها اكتُشفت عدّة حالات تجسّس، ونال جميع العملاء جزاءهم العادل بفضل يقظة رجال الاستخبارات العراقيّة في حينه. وفي الأردن اكتشف أفراد يقومون بالتجسّس لصالح إسرائيل، وحُكم على أغلبهم بالإعدام، وقد نُفّذ الحكم في الساحة العامّة قرب مسجد الحسين في عمّان، لأنّ المعروف أنّ رجال المخابرات الأردنيّة يقظون جدًا، ولا سيّما أنّ أغلبهم تلقّوا تدريبهم خارج المملكة الأردنيّة الهاشميّة في دورات خاصّة.

وفي دولة الكويت، لا يوجد مجال لقيام الأعداء بالتجسّس لأنّ جميع المقيمين في الكويت معروفون من قبل رجال الأمن، بالإضافة إلى أنّ كلّ شخص مقيم في الكويت قد ضمنه مواطن كويتي لدى السلطات وهذا الضامن يسمّى "الكفيل"، ويكون على اطّلاع عمّا يقوم به من أعمال، حتّى إذا ظهر منه أيّ شكّ يكون الكفيل تلقائيًا أوّل من يعلم السلطات عن هذا الشكّ، لا سيّما وقد كان سموّ الشيخ سعد العبدالله السالم الصبّاح رئيس مجلس الوزراء يرأس وزارتي الدفاع والداخليّة وقد أرسى بذلك دعائم الأمن والطمأنينة بفضل اهتمامه شخصيًا بجميع الأمور المتعلّقة بالأمن مباشرة، وقد استلم الأمانة منه الشيخ نوّاف الأحمد، فكان خير خلف لخير سلف، لمتابعة السهر على أمن الكويت، يعاونه في ذلك اللواء عبد اللطيف الثويني الذي سهر الليالي ليرعى مصالح وزارة الداخليّة ومنتسبيها، والسيّد محمّد الخمد مدير الأمن العام الذي كان له الفضل في تفويت عشرات الفرص على أعداء الكويت عندما كان يرأس المباحث الجنائيّة، ويعتبر العميد الحمد بحقّ العين الساهرة مع جميع رجال الأمن والشرطة الكويتيّين الذين يقفون بالمرصاد لكلّ من تسوّل له نفسه العبث بأمن الكويت حيث اكتشفوا العديد من جرائم التجسّس وأحبطوا غيرها في مهدها بفضل سهرهم، وقدّموا الجناة للقضاء الكويتي العادل لينالوا جزاءهم بما اقترفت أيديهم بحقّ الكويت.

وللمخابرات السوريّة "شعبة المخابرات" وقائع ثابتة في مراقبة العملاء ضمن الأراضي السوريّة، وإلقاء القبض عليهم متلبّسين بجرائم التجسّس، أو حتّى لدى ابتداء مهمّاتهم التجسّسيّة وتقديمهم للمحاكمة ونيلهم الجزاء العادل، وذلك هو الإعدام في أغلب الأحيان والحالات الخطيرة الثابتة.

وفي الجزائر يقف عشرات من رجال المخابرات التابعين لجيش التحرير الوطني في الجزائر بالمرصاد لجميع العملاء الذين يتربّصون للنيل من المنجزات الثوريّة الضخمة في الجزائر، أو الذين تدفعهم الدول الأجنبيّة ومن وراءها للاطّلاع على هذه المنجزات، فيجدون أنفسهم في قبضة المخابرات الجزائريّة، كقضيّة اكتشاف شبكة تخريب معادية للجزائر في ١٠ كانون الثاني - يناير ١٩٧٦ بعد إلقاء قنبلة على مكاتب مجلّة "المجاهد" الجزائريّة الرسميّة بتاريخ ٣ كانون الثاني - يناير ١٩٧٦. وقد سبّبت هذه القنبلة بعض الأضرار الماديّة فقط بينما كان لها تأثير معاد فانطلقت المخابرات الجزائريّة تبحث عن الفاعلين حتّى اعتقلتهم بعد أيّام رغم محاولاتهم الهرب. وقُدّموا للمحكمة في مدينة "ميديا" التي تبعد ٩٠ كيلومترًا إلى الجنوب من الجزائر. وبعد المحاكمة صدر الحكم عليهم، وهم ثلاثة، بالإعدام رميًا بالرصاص عملاً بقانون الجزائر.

وفي ليبيا، أصبحت المخابرات الليبيّة تضمّ خيرة الضبّاط الليبيّين المدرّبين خصيصًا لمكافحة التجسّس، وتعتبر المخابرات الليبيّة من أحدث المخابرات بحيث بدأت نتائج أعمالها بكشف العملاء والجواسيس الذين وفدوا إلى ليبيا... ومن أخبار المخابرات الليبيّة اعتقال أحد الجواسيس الخطرين في طرابلس الغرب، واعترافه الكامل بالأعمال التجسّسيّة التي قام بها في ليبيا من الاطّلاع على المرافق العامّة، وتسقّط الأخبار والدسّ. وقد أشرف على التحقيق

مع هذا الجاسوس الرائد الخويلدي الحميدي، عضو مجلس قيادة الثورة في ليبيا شخصيًا.

والمخابرات اللبنانيّة "الشعبة الثانية"، لها نشاط واضح في معرفة تحرّكات الجواسيس ورصد أعمالهم، وقد اعترفت السلطات الإسرائيليّة نفسها باكتشاف "عملاء" للمخابرات اللبنانيّة داخل إسرائيل.

أمّا المخابرات المصريّة، فقد أصبحت من القوّة بحيث تتمكّن من اكتشاف العملاء حتّى في أوروبّا قبل حضورهم إلى مصر. وفي القاهرة اكتشفت المخابرات المصريّة معظم شبكات التجسّس لصالح إسرائيل وأميركا، وأهمّها اكتشاف الجاسوس الألماني "لوتز" الذي كان يقوم بالتجسّس على العلماء الألمان الذين يعملون في المصانع الحربيّة المصريّة. وقد اعترف بفعلته وحُكم بالسجن المؤبّد، ولم يجر إعدامه كما هي العادة نظرًا لقيمته، وقد صحّ ذلك عندما سلّمت إسرائيل مصر مقابله خمسة آلاف أسير...

ودرجت المخابرات في أغلب الدول العربيّة على بذل جهودها لكشف الجواسيس. ومن جملة الإجراءات التي تتّخذها هذه المخابرات المراقبة الهاتفيّة، وطريقة المراقبة الهاتفيّة مأخوذة عن الدول الغربيّة وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأميركيّة... ولطالما كشفت المكالمات الهاتفيّة، ضمن المراقبة، أشياء تمسّ أمن البلاد، بحيث كان المتكلّمون لا يشعرون أنّ كلامهم مسجّل.

ويقول الباحث: هذا العرض الموجز الذي تسمح بنشره ضرورة الأمن القومي للبلاد العربيّة عن بعض المنجزات للمخابرات العربيّة... لا تستفيد منه المخابرات الإسرائيليّة التي لها عيون وآذان من ذوي الضمائر الضعيفة مع الأسف[١].

---

١ - الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت، لا.ت) ١: ٤٢ - ٤٧.

نشوء المُخَابَرات المصريَّة الحديثَة

دخلت الدول العربية معترك التجسّس ومكافحة الجاسوسيّة لمواجهة الخطر الذي يمثّله بروز الكيان الصهيونيّ باحتلال فلسطين، الذي هدّد استقرار الدول العربيّة وأمنها القوميّ.

كان "القسم السياسي" بوزارة الداخليّة المصريّة يمارس العمل الأمنيّ والاستخباري بمصر. وعندما قامت الثورة المصريّة، وبدأت مراجعتها لأجهزة الدولة المختلفة، وجدت أن الضرورة تحتّم بناء جهاز مخابرات عصري يقوم بمهام العمل الاستخباري في جمع المعلومات عن العدو الاسرائيليّ وغيره، ومكافحة الجاسوسيّة داخل مصر، وخصوصًا بعد اكتشاف شبكة التجسّس الاسرائيليّة الخاصّة وحدوث فضيحة "لافون" عام ١٩٥٤، والتأكد من أن الصهيونيّة تسعى للقضاء على الثورة المصريّة وإساءة علاقاتها الخارجيّة بهدف إيقاف المعونات الدوليّة عنها، وإثارة التوترات والقلاقل بالداخل، ونشر الدعاية السوداء لتشويه الثورة ورجالها ومهامّها، حتى يتكوّن رأي عامّ يقول بإعادة العسكريّين للثكنات العسكريّة، وبعودة الأحزاب التقليديّة لحكم مصر كما كان في العهد الملكيّ البائد... وذلك يعني اجهاض الثورة.

"المخابرات العامّة" المصريّة، التي تعتبر مؤسّسة رسميّة مدنيّة، أنشئت عام ١٩٥٧ بموجب قانون رقم ٥٧/٦٤ الذي نظّم وظيفتها واختصاصاتها، ووضع لها كادرًا خاصًّا يحكم شؤون العاملين فيها.

كان "صلاح محمّد نصر" قد تخرّج في الكليّة الحربيّة المصريّة ضابطًا بالجيش عام ١٩٣٩. عيّنه الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٥٦ نائبًا لمدير جهاز المخابرات العامة بدرجة وزير، ولكنّه اعتذر للرئيس عبد الناصر عن قبول المنصب بسبب عدم درايته بعلم المخابرات وأمورها، وبحجّة أنه ليس لديه أي معلومات عنها غير الدروس التي تلقاها عندما كان طالبًا حربيًّا... وأنّ فكرة الناس عن المخابرات لا تتعدّى المجال التجسّسي... إلا أنه استجاب لقرار التعيين في عام ١٩٥٧ بصفة مدير للمخابرات العامّة باعتباره تكليفًا من الثورة لأحد أبنائها... وبدأ مسيرته حتّى عام ١٩٦٧، حيث تعرّض خلالها لمحنة التشهير الكبرى.

بدأ صلاح نصر عمله في إعادة بناء جهاز المخابرات على وسائل حديثة حيث تمّ اختيار مجموعات من ضبّاط الجيش والشرطة وغيرهم من العناصر المتخصّصة، ووضعت هيكلة الجهاز الداخليّة واتصالاته الخارجيّة، كما تمّ التنسيق مع باقي الأجهزة الاستخباريّة والأمنيّة التي كانت في حالة عدم الانسجام بينها تعتبر من العقبات الكبيرة في إداء العمل الأمني والاستخباري المميّز.

إستطاع جهاز المخابرات المصريّة أن ينقضّ على أكثر من شبكة تجسّس إسرائيلية بمصر، كذلك استطاع أن يزرع عملاء لصالحه داخل اسرائيل. كما جعل الموساد الاسرائيلي يغيّر من مراكز التجسّس التابعة له ثلاث مرات، بسبب اكتشافها من قبل المخابرات المصريّة... كذلك تمّت إعادة تنظيم أجهزة المخابرات الاسرائيلية أكثر من مرة للسبب نفسه. وقد برز على سطح العمل الاستخباريّ العالمي جهاز المخابرات العامة المصريّة ليوقف تحركات العدوّ الاسرائيلي ومخابراته بالمنطقة ويلحق الهزائم بجهاز "الموساد" الاسرائيليّ الذي كان يشيع أنّه رابع أقوى جهاز مخابرات في العالم، باعتباره عضوًا بـ"المربّع الذهبيّ" للمخابرات العالميّة مع الـCIA

الأميركي، والـ KGB السوفياتي، والـ MI-6 البريطانيّ، خاصّة بعد عمليّة اختطاف الموساد لـ"أدولف آيخمان" في الأرجنتين.

دخول المخابرات المصريّة دائرة الصراع ضدّ المخابرات الاسرائيلية وكشفها للعديد من حلقات التجسّس والقبض عليها ومحاكمتها وتنفيذ أحكام الاعدام بأعضائها، أعطى مساحة كبيرة لأجهزة المخابرات العربية الوطنيّة في الكثير من الأقطار العربيّة لتعزيز هذه المواجهة ضد جهاز الموساد وأعوانه وجواسيسه وعملائه المنتشرين في الأقطار العربية، وتأثير ذلك على محاصرة المدّ الصهيونيّ وإيقاف تغلغله للتأثير على القيم الماديّة والمعنويّة للمواطن العربيّ الرافض للاحتلال الاسرائيليّ.

كان للدور المميّز لمدير المخابرات العامة المصريّة صلاح نصر في بناء جهاز المخابرات المصري وتحقيق العديد من الانتصارات، أثره في تاريخ بناء وإعادة بناء أجهزة المخابرات في الوطن العربيّ وبعض دول أفريقيا، حيث تمت الاستفادة من المؤلّفات الهامّة التي قام بإصدارها والتي عُرفت بما تحتوي من معان وقيم صادقة وتحليل موضوعيّ وتوجيهات لتطوير الاداء، حتى فرضت نفسها بقوّة لتكون من الأدبيّات التي تدرّس بمعاهد الأمن والمخابرات... كما أن القضايا التي اكتشفتها مكافحة التجسس المصريّة باتت تدرّس في معاهد ومدارس أجهزة الأمن كنموذج رفيع للعمل في ميدان التجسّس ومكافحة التجسّس، وحققت المخابرات المصرية انجازًا في الحصول على المعلومات وتحليلها عندما رفعت تقريرًا في ٢٥ أيّار ـ مايو ١٩٦٧ توقّع ما قد حدث في ٧ حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ حيث استطاع التقرير أن يحدّد موعد الهجوم الاسرائيلي في حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧...

إلاّ أن مدير المخابرات المصريّة ومؤسّسها تعرّض لحملة واسعة من التشهير، وقُدّم للمحاكمة حيث تمّت محاكمته بواسطة محكمة الثورة التي حكمت عليه بالسجن

٤٠ عامًا لمشاركته في مؤامرة لقلب نظام الحكم عام ١٩٦٧. وبعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وتعرّض المرحلة الناصريّة لأعنف هجوم من أعداء الثورة، كان صلاح نصر في مقدمة الذين شُنّ عليهم الهجوم وحملات التشهير الواسعة وخصوصًا من قبل بعض الذين سبق وتمّ اعتقالهم وقُدّموا لمحاكمات بتهمة الخيانة والتجسس على الوطن. ويُعتبر صلاح نصر، وهو من تنظيم "الضبّاط الأحرار" الذين نفّذوا ثورة تمّوز ـ يوليو ١٩٥٢، من أخلص أبنائها ومن أكثرهم وفاءًا لقائدها جمال عبد الناصر بعد وفاته... ومات "صلاح نصر" وترك حصيلة كبيرة من الكتب المتخصّصة في علم وعالم المخابرات، والتحليلات التاريخيّة لمسيرة الثورة الناصريّة، وهي غنيّة بالتجارب والخبرات والابتكار والإبداع في مجالات مكافحة الجاسوسية، وهي حصيلة خبرة واحد من أبرز قادة الأعمال الاستخباريّة في العالم، وهو صاحب الموقف الصارم الذي لا يتزعزع في دفاعه عن ثورة تمّوز ـ يوليو ١٩٥٢ التي قادها الراحل الرئيس جمال عبد الناصر[١].

بعد صلاح نصر، تولّى رئاسة المخابرات المصريّة أمين هويدي، وبعده حافظ اسماعيل الخبير السياسي، ثمّ أحمد كامل الذي كان محافظًا للإسكندريّة، ثمّ المشير أحمد اسماعيل الذي أصبح وزيرًا للدفاع، ثمّ كمال حسن رئيس الوزراء السابق، ثمّ اللواء نور عفيفي الذي خلفه في أوّل أيلول ـ سبتمبر ١٩٨٦ أمين نمر[٢].

وفقًا لقانون إنشائها، تعتبر "المخابرات العامة" المصريّة منظّمة مدنيّة وفقًا للقانون ٦٤/٥٧، وهي مخابرات سياسية تنحصر مهمتها في:

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٧٢ ـ ٧٥.

٢ ـ الجزائري سعيد، ملف التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ١: ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

ـ تقديم المعلومات المطلوبة عن الدول الأجنبيّة سواء في شكل تقارير أو تقديرات موقف، للقيادة السياسيّة التي تضع قرارها بناء على الدراسة التي تقدّم لها. كذلك مكافحة التجسس واكتشاف الجواسيس وحماية الوطن من العملاء. وهي تتبع رئيس الجمهوريّة. ورئيس المخابرات يعيّنه رئيس الجمهوريّة بدرجة وزير، ويكون مسؤولاً أمامه مسؤوليّة مباشرة.

وهناك في الدولة المصريّة أجهزة مخابرات أخرى لها مهامّ مختلفة، فالمخابرات الحربيّة تتبع القوّات المسلّحة، ومسؤوليّتها المعلومات العسكريّة وأمن القوّات المسلّحة؛ و"المباحث العامّة" جهاز أمن سياسيّ يتبع وزارة الداخليّة، ومسؤوليّته تنحصر في النشاط الداخليّ السياسيّ، سواء من ناحية الأحزاب أو الطوائف أو التيّارات والتكتّلات السياسيّة المختلفة؛ و"الشرطة العسكريّة" و"الشرطة الجنائيّة العسكريّة" هما جهازان عسكريّان يتبعان للقوّات المسلّحة؛ و"مخابرات قوّات الحدود" و"السواحل" و"الطيران" و"البر"، وكلّ منها يتبع سلاحه، ولا علاقة لها بأجهزة الأمن الأخرى. أما "الرقابة الاداريّة" فمسؤوليتها الرقابة الوظيفيّة للمصالح المختلفة؛ كما توجد "أجهزة المخابرات الخاصّة" التابعة لرئاسة الجمهوريّة.

نجح جهاز المخابرات المصريّة في تحجيم النشاط الاستخباري للعدو الصهيونيّ داخل مصر، واستطاع اكتشاف العديد من حلقات التجسّس الاسرائيليّة وتقديم أفرادها للمحاكمات وتنفيذ أحكام الإعدام بحقّهم، ونجح بشكل أكثر إيجابيّة عندما قام بزرع عملاء للتجسس داخل إسرائيل... ونفّذ كثيرًا من العمليّات، خارج مصر، التي كانت تستهدف المصالح القوميّة العليا... منها تدمير "الحفّار" الذي استأجرته إسرائيل للتنقيب عن البترول في البحر الأحمر عندما كانت تحتلّ صحراء سيناء بعد حرب ١٩٦٧، وزرع البطل المصري "رفعت على سليمان الجمّال" داخل إسرائيل باسم "رأفت

الهجّان"... وسجلّ المخابرات المصريّة مليء بالعمليّات الناجحة ونماذج التضحية المشرّفة، والمقاتلة والمصادمة والمطاردة لعناصر المخابرات الإسرائيليّة التي كانت تتهاوى تحت ضربات واكتشافات المخابرات المصرية لعملائها.

فقد كان أهم عوامل التعتيم والخداع والتضليل التي حقّقت انتصارات حرب تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٧٣، يكمن في دور أجهزة المخابرات المصريّة التي أثبتت تفوّقها بحسن استخدام المعلومات في الوقت المناسب، ونجاحها في إخفاء استعدادات الحرب، وإقناع الاستخبارات الإسرائيليّة بأنّ مصر لن تحارب ولن تبدأ سوريا بالهجوم على إسرائيل، حيث فشلت المخابرات الإسرائيليّة في التنبؤ بساعة الصفر لوقوع الحرب، ممّا أثبت عجزها عن تفسير ومعرفة ومتابعة الاستعدادات المصريّة والسوريّة قبل نشوب القتال، وهي التي كانت تدّعي بأنّها تملك معلومات مفصّلة عن كلّ ما يدور في أيّ من المجتمعات العربيّة، حيث أثبتت القدرات العربيّة المصريّة والسوريّة بأنّ المقاتل العربيّ هو الأكفأ وقادر على تحقيق النصر.

وما زالت المخابرات المصريّة تقوم بمهامّها في مكافحة عناصر التجسّس بالرغم من الاتفاقيات الموقّعة بين مصر وإسرائيل، لأنّ إسرائيل تواصل إرسال وزراعة جواسيسها داخل مصر لتنفيذ مهمامهم التجسّسيّة، وأيضًا ما زالت انتصارات المخابرات المصريّة مستمرّة في الإيقاع بعناصر شبكات التجسس الأجنبية.

وقد أورد باحثون بعض نماذج أداء عمل المخابرات المصرية كما يلي:

١ ـ عام ١٩٥٣ أصدرت محكمة الثورة قرارًا بإعدام كل من: ألفريد عوض ميخائيل، بولس مكسيموس، محمود صبري علي، محمّد عزّت محمّد، وتمّ تنفيذ الحكم بعد أن أدانتهم المحكمة بالاتصال بجهات أجنبيّة للاضرار بمصلحة البلاد والإضرار

بالمجهود الحربيّ الذي يبذله الفدائيون ضد الانجليز في منطقة قناة السويس، وقد كان يتم تعذيب الفدائيين المصريين الذين كان يتم أسرهم.

٢ ـ في ٢٢ حزيران ـ يونيو ١٩٥٧ صدر حكم عن محكمة جنايات القاهرة بإعدام "سيد أمين محمود" شنقًا وبالسجن المؤبد والمؤقت على أخرين وذلك بتهمة التخابر مع بريطانيا، وسمّيت تلك القضيّة بـ"قضيّة الجواسيس البريطانيّين" التي سعت فيها المخابرات البريطانية إلى تجميع أسرار عسكريّة عن الجيش المصريّ.

٣ ـ في ٣ أيّار ـ مايو ١٩٩٢ أصدرت المحكمة العسكريّة العليا حكم الإعدام على الجاسوس المصري "محمّد عبد السلام الشاهد"، وأوضحت المحكمة أنّه في غضون عامي ١٩٩٠ و١٩٩١ وفي النمسا، سعى المحكوم وتخابر لدى دولة أجنبيّة للإضرار بمركز مصر الحربيّ، وسلّم لدولة أجنبيّة سرًّا من أسرار الدفاع، وحرّض الغير على جريمتي السعي والتخابر، وقبِلَ أخذ جعل ماديّ من دولة أجنبيّة لارتكاب عمل ضارّ بمصلحة قوميّة، واشترك مع آخرين في ارتكاب جريمة تزوير واستعمل الأوراق المزورة... وتمّ تنفيذ الحكم شنقًا في ١٣ حزيران ـ يونيو ١٩٩٣.

٤ ـ إستطاعت براعة المخابرات المصريّة تجنيد عالم من علماء الذرة للتعامل معها ومدها بالمعلومات عن المفاعلات النوويّة والنشاط الذرّي والتعدين والعمليّات الجيولوجيّة الإسرائيليّة، بالرغم من الصعوبات التي تجدها المخابرات المصرية عند تجنيد عميل إسرائيليّ أو أوروبيّ لعدم وجود رأسمال مصريّ في أوروبا أو مؤسسات إعلاميّة لتجرى عملية التستر وراءها. وقد ساعد عمل هذا العالِم مع المخابرات المصريّة على إعطائها حصيلة وافرة من المعلومات الهامة والدقيقة عن النشاط النووي الإسرائيلي، إلا أن ارتكاب خطأ غير محسوب عندما لم يلتزم أحد عناصر

المخابرات المصريّة في أوروبا بسداد أجرة صندوف البريد الذي تتمّ عليه المراسلات، ما أعاد الرسائل الواردة لهذا الصندوق إلى "المرسل" كما هو متّبع في مثل هذه الحالات، قد أدّى إلى استلام رسالة "جان بيير" المعادة من قبل الموساد الذي اكتشف أمر تجسسه لصالح مصر، وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات.

٥ ـ "مازن الحلبي"، يهودي إسرائيلي من "السفرديم" الذين يشكّلون الأكثرية ويعتبرون من الدرجة الثانية. كان يعمل في قوّات الحدود الإسرائيليّة. وهو مغامر وعربيد ومعقد ومغرور ومدمن للخمر وزير نساء، ويشعر في قرارة نفسه بالضياع وبالظلم بسبب عدم ترقيته، وبسبب الفارق الاجتماعي بينه وبين اليهود "الاشكناز" الذين يمثلون الطبقة الراقية في إسرائيل. وقد تمّ تجنيده في حيفا لصالح المخابرات المصريّة عن طريق واحد من عناصرها المميزة بالخبرة والمهارة في الأرض المحتلّة. وحيث أنّ العملاء لا يكون المطلوب منهم دائمًا الحصول على الأسرار العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة على المستوى الاستراتيجيّ أو حتّى التكتيكيّ، فإنّ هناك نوعية من العملاء لا تطالبها المخابرات سوى بمهمّات خاصّة محدودة تتساوى مع قدراتهم، فهؤلاء يمكنهم أن يجمعوا أيّ معلومات يصلون إليها أو تقع تحت أيديهم بينما يكلف غيرهم بالباقي. وقد كانت مهمّة مازن تتلخّص في تمرير أدوات تفجير ومعدّات تجسّس لعملاء المخابرات المصريّة داخل إسرائيل دون أن يعرف محتوى الشحنات، بل عليه فقط استلامها من الساحل ووضعها في مخابئ معيّنة، وقد تمّ إدخال كميّات كبيرة من الشحنات لمجموعات من الفدائيّين داخل الأرض المحتلّة. وقد مات مازن في حادثة انقلاب سيارته الجيب...

٦ ـ "أحمد محمّد عبد الرحمن"، مواطن مصريّ وُلد بالسويس عام ١٩٣٩، استطاع أن يخدع الموساد لمدة ثمانية أعوام حيث جنده في أوروبا بغرض مدّه بأدقّ

المعلومات العسكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة عن مصر، وقد قام بتدريبه ليكون جاسوسًا جيّدًا، وسلّمه أحدث جهاز إلكترونيّ في العالم للإرسال والاستقبال لاستخدامه في إرسال المعلومات، وكان الجهاز حديثًا بحيث لا يمكن التشويش عليه أو اكتشاف موجاته الالكترونيّة، ومن المعروف أن الموساد لا يعطي مثل هذا الجهاز إلا للعميل الذي يثق فيه تمامًا، وقد توصلوا إلى أن يثقوا في عميلهم أحمد محمّد عبد الرحمن الذي استطاع أن يشعرهم بأنّه من جواسيسهم المخلصين، وقد قام بإرسال حوالي ٢٠٠ برقية اشتملت على معلومات مدروسة بدقّة متناهية لم يكشف الموساد أي خداع فيها، وقد نجح في أن لا يتطرق الشك أو تتزعزع ثقة المخابرات الاسرائيلية فيه. وقد كانت مفاجأة الموساد عندما تسلم برقيّة من المخابرات المصريّة تفيده بإنهاء العمليّة التي استمرّت ثمان سنوات حيث أن المواطن المصري أحمد محمّد عبد الرحمن قد أخطر المخابرات المصريّة فور عودته من أوروبا عندما عرض عليه الموساد أن يكون عميلاً له في مصر وبدأ التنسيق بينه وبين المخابرات المصريّة في الانتصار على الموساد في حرب الدهاء، وكان هذا المواطن نموذجًا لكثير من الشباب المصري والعربي الذين كانت إسرائيل تحاول أن توقع بهم في بئر الخيانة، حيث بادروا بإخطار أجهزة الاستخبارات الوطنيّة بما يتعرّضون له من إغراءات للتجنيد كعملاء بجهاز الموساد الصهيوني. وسنأتي على ذكر تفاصيل أوسع بشأن أحمد عبد الرحمن تاليًا.

٧ ـ في شباط ـ فبراير ١٩٧٠، استأجرت إسرائيل الحفار العملاق "كينتنغ" الإنكليزي الصنع من شركة "كينتنغ" الكنديّة للبترول الذي يقوده جرار هولنديّ يطلق عليه اسم "جاكوب فون ليمز إيرو" للحفر والتنقيب عن البترول لحساب إسرائيل في خليج السويس وشبه جزيرة سيناء الموجودة تحت الاحتلال، وقد فشلت كافة المحاولات الدبلوماسيّة للضغط على إسرائيل حتى لا تستمرّ في محاولاتها دون جدوى.

إتّخذ القرار بأن تقوم المخابرات العامّة المصريّة بالتعامل مع الحفّار بطريقتها الخاصة قبل دخوله البحر الأحمر عن طريق باب المندب، ووضعت الخطط والدراسات والبرامج لمتابعة الحفّار قبل أن يصل إلى هدفه حيث تتمّ عملية تدميره وإغراقه بواسطة أفراد من الضفادع البشريّة بالقوات المسلّحة تم تدريبهم وإعدادهم وتحريكهم بسريّة تامّة في عدة عواصم أوروبيّة وأفريقيّة للتمويه بكفاءة عالية.

تمّت عمليّة متابعة خطّ سير الحفّار على الساحل الأفريقيّ وهو يرسو في ميناء "أبيدجان" لساحل العاج، حيث تمّ تنفيذ العمليّة بنجاح بإلصاق كميّات من المتفجّرات في قاعته حيث تمّ تدميره، وأصبح الحفّار مهشّمًا وغير صالح للاستعمال، وأعلنت الشركة الكنديّة رسميًّا إلغاء مشروع استخدام الحفّار البحري العملاق التابع لها في التنقيب عن البترول لصالح إسرائيل، وتوقّفت تمامًا عمليّة القرصنة الاسرائيليّة بالاستيلاء على بترول خليج السويس. وتقديرًا للجهد الوطني البطوليّ الذي قام به أفراد العمليّة في المخاطرة بحياتهم والتضحية في صمت دون ضجّة، فقد أنعم عليهم الرئيس جمال عبد الناصر بالنياشين تكريمًا لهم.

وتُعدّ عمليّة إغراق الحفّار "كينتنغ" من العمليّات الجريئة الناجحة، بحيث ألحقت المخابرات العامة المصريّة ضربة قويّة وعنيفة واستفزازيّة لجهاز الموساد الاسرائيليّ الذي كان يعتقد أنّه أقوى أجهزة المخابرات بالمنطقة.

والجدير بالذكر أن جهاز المخابرات المصرية قد ألم بالوسائل اللازمة للتجسس والتي يعتمد عليها الموساد مثل: ١) الكتب المحفورة لتهريب الرسائل والنقود بداخلها؛ ٢) لعبة "العروس المجوّفة"، وعلبة الشوكولا التي تهرّب فيها النقود؛ ٣) علبة مسح

الأحذية التي تفرّغ ويوضع بداخلها رسائل أو نقود؛ ٤) الجهاز الإلكتروني الحديث؛ ٥) كتب الشيفرة؛ ٦) الكاميرا التي تلتقط الصور في الظلام[١]...

من دفاتر المخابرات المصريّة

يروي "عبد الفتّاح أبو الفضل" نائب رئيس المخابرات المصريّة سابقًا قصّته مع هذه المخابرات في بداية تشكيلها فيقول:

إنّه كُلّف بالعمل في جهاز المخابرات المصريّة بعد ثلاثة أيّام من قيام الثورة، وكان يعمل معه "كمال رفعت" عضو تنظيم الضبّاط الأحرار ووزير العمل والشؤون الإجتماعيّة في ما بعد، كما عمل معه "سعد عفرة" مدير إدارة الاستعلامات سابقًا.

قامت المخابرات المصريّة الحديثة من عام ١٩٥٢ حتّى جلاء الإنكليز عن مصر في صيف عام ١٩٥٦ بعمليّات مكثّفة للمقاومة الشعبيّة برز فيها دور عبد الفتّاح أبو الفضل وعشرات الأسماء التي أوردها في كتابه "كنت نائبًا لرئيس المخابرات" الذي صدر عام ١٩٨٨.

ويحكي أبو الفضل عن المرحلة الأولى من إنشاء المخابرات المصريّة فيؤكّد أنّ مشكلة تبعيّتها للمخابرات البريطانيّة منذ عام ١٩٣٦ كانت تؤرق العاملين فيها، حتّى استطاع مع زملائه من الضبّاط المصريّين إلغاء كلّ أشكال التبعيّة. ومنها أنّ السفارة البريطانيّة كانت تمدّ المخابرات المصريّة الحديثة بتقارير كاذبة عن مواطنين شرفاء

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٢٣ ـ ١٢٩.

تتّهمهم بمعاداة الحكومة والثورة وأيضًا. ومنها أيضًا إرتباط ضابط كبير من المخابرات المصريّة في حينه بالمخابرات البريطانيّة.

أمام المهام الكبرى التي ألقيت على عاتق المخابرات المصريّة، وبالخبرات المصريّة وأعلى درجات التقنية التي تتمتّع بها المخابرات العالميّة بدأت هذه المخابرات وحقّقت في سنواتها الأولى نجاحات متلاحقة على الساحتين الداخليّة والخارجيّة.

ويهدف جهاز المخابرات المصريّة إلى حماية الأمن القومي في الداخل والخارج، ويساعد في إنجاز هذا الهدف عدد كبير من المتخصّصين في مختلف المجالات. وعلى الرغم من أنّ اتّخاذ القرار يتمّ وفقًا للأسلوب الهرمي المتعارف عليه، إلاّ أنّ طبيعة العمل وأسلوبه يتمّان وفقًا للتنظيم العنقودي، ومن هنا فإنّ العنصر والمهمّة في حالة من المرونة تسمح باستخدام كلّ الطاقات والإمكانات لتحقيق الهدف.

لا ينحصر دور جهاز المخابرات المصريّة في مواجهة النشاط الإسرائيلي للمخابرات وأعمالها المكثّفة ضدّ مصر، وإنّما ذلك جزء من خريطة واسعة تستهدف ضمن أولويّاتها إيقاف النشاط التجسّسي الخارجي ضدّ مصر بكلّ أشكاله وأساليبه.

وقد صدر أوّل قانون لتنظيم عمل المخابرات المصريّة ويحمل الرقم ١٥٩ سنة ١٩٦٤، وقد ألغي هذا القانون وصدر القانون رقم ١٠٠ في تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٩٧١. وبعد تولّي الرئيس السادات الحكم نشر القانون الجديد في الجريدة الرسميّة بأعداد محدودة جدًّا. وعندما طُعن في القانون لعدم نشره بالطريقة القانونيّة التي تلزم نشره في الوثائق الرسميّة، أعيد نشره عام ١٩٧٦.

وجرى تعديل قانون المخابرات في كانون الأوّل - ديسمبر ١٩٨٨. وقد انتقد "د. محمّد حلمي مراد" وزير التعليم الأسبق والأمين العام لحزب العمل المعارض عدم نشر تلك التعديلات وذكر أنّ وراء إخفاء التعديلات إيقاف مجموعة الكتب التي كانت

تعدّ، آنذاك، عن التحقيقات التي جرت حول انحراف بعض أفراد المخابرات في عام ١٩٦٥.

ويقول د. حلمي مراد إنّ التعديل الجديد في القانون قد أضفى حصانة خاصّة على أفراد المخابرات لا يتمتّع بها أصحاب الحصانة البرلمانيّة، وأعضاء مجلس الشعب. وأهمّ ما جاء في تعديل القانون مدّ الحماية القانونيّة على عمل المخابرات والتي كانت تشمل المعلومات والبيانات التي تتضمّن سرًّا من الأسرار الخاصّة بعمل المخابرات لتشمل أسلوب عملها ووسائلها واعتبار الأخبار والمعلومات المتعلّقة بالأفراد العاملين في الجهاز من أسرار الدفاع، وأيضًا عدم معاقبة أفراد المخابرات في حالة الإخفاء أو الإتلاف إلاّ إذا أضرّ ذلك بمصالح العمل.

ويؤكّد "أحمد كامل" رئيس المخابرات سابقًا أنّ التحقيق في الاتّهامات الموجّهة إلى رجل المخابرات يتمّ قبل القبض على المتّهم ولا يمكن اعتقال أو حجز فرد دون تحريّات دقيقة وأدلّة وإثباتات وقرائن كافية. والنيابة أيضًا تقوم بالتحقيق في الموضوع قبل القبض على المتّهم. أي أنّ الصورة الجنائيّة تكون مكتملة قبل القبض، ولا يتمّ ذلك إلاّ بوجود بيّنة وقرائن تشير إلى أنّ المتّهم عمل ضدّ أمن الوطن.

وينفي أحمد كامل أن يكون جهاز المخابرات يستخدم وسائل التعذيب التي قيل بوجودها في فترة صلاح نصر، ويؤكّد أنّه ليس هناك إنسان لا تستطيع أن تحصل منه على معلومات لأنّ أساليب التحقيق والإستجواب المختلفة وضعت بمعايير دقيقة وعلميّة، وأعمال المخابرات في كلّ العالم تتمّ وفق نتائج بحوث علميّة وقواعد قانونيّة، وليست مسائل ارتجاليّة أو افتراضيّة. ويحصل رجل المخابرات على المعلومات التي يريدها عن طريق خطوات مدروسة ومعلومة توضع بعناية ودقّة وكفاءة وصبر.

ويقوم جهاز المخابرات بمتابعة كلّ القضايا التي تمسّ الأمن القومي والتي يتورّط فيها المتّهمون في علاقات مشبوهة مع دول أخرى. وآخر هذه القضايا التي أعلن عنها قضيّة "صلاح عبد الشافي" وآخرين التي صدرت فيها أحكام بتهمة التخابر مع المخابرات الليبيّة في آب ـ أغسطس عام ١٩٨٨.

كما أعلن الجهاز عن قضيّة تخابر مع إسرائيل حكم فيها على "محمود طايل" المدرّس في سيناء في عام ١٩٨٨.

وبين عام ١٩٥٢ وعام ١٩٧٠، كانت مهامّ المخابرات التي حقّقت فيها نجاحات باهرة انعكاسًا لسياسة مصر في الخارج في ذلك الوقت. وقد قامت المخابرات بدور رئيسي في إسقاط حلف بغداد والحلف المركزي وحماية الوحدة بين مصر وسوريا (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) ومواجهة النشاط التركي في تلك الحقبة ضدّ سوريا والعرب. فضلاً عن مساندة حركات التحرّر في الجزائر والكونغو واليمن وليبيا ومعظم الدول الأفريقيّة، وكانت ناميبيا هي آخر الدول الأفريقيّة التي قامت فيها المخابرات المصريّة بدور كبير حتّى حصلت على استقلالها.

وتستخدم المخابرات المصريّة أحدث نظم المعلوماتيّة للقيام بمهامّها، كما يتميّز العناصر التابعون للجهاز بقدرة عالية على التصرّف واستخدام كلّ الطرق المتاحة لتحقيق أغراض الجهاز. وهناك الآلاف من قصص النجاح التي يصفها "أمين هويدي" رئيس المخابرات الأسبق بأنّها "أوسمة شرف". وهناك أيضًا عدد محدود من قضايا الانحراف تمّت محاكمة فاعليها.

وقد بدأت المخابرات المصريّة قبل سنوات في الإفراج عن بعض أسرارها الخفيّة في مكافحة الجاسوسيّة ضمن خطّة لتثقيف المواطن أمنيًا.

في أيّار - مايو ١٩٨٤، صدر بيان يحمل تكريمًا لضبّاط من المخابرات حيث كـرّم الرئيس حسني مبارك "محمّد منير حسبو"، و"عـادل علـي جبريل"، و"عطـا محمّديـن"، واسم المرحوم "أحمد كامل العشماوي" وكلاء جهاز المخابرات السابقين ومنحهم أوسمة رسميّة من الدرجة الأولى والثانية[1].

صراعُ المخابَرات المصريَّة والمخابَرات الإسرائيليَّة

نظرًا لظروف الاحتلال الأجنبي لأراضي فلسطين، وإذ كـان فـي الشرق الأوسـط صراع بين العرب والصهيونيّة التي احتلّت أراض فلسطينيّة، وبينما كـانت الصهيونيّـة المزروعـة فـي قلـب الوطـن العربـي تنتهـج سياسـة المجازر والعدوان، وتنتهك كـلّ القوانين والأعراف الدوليّة في وقاحة، كان العرب يتسلّحون بأسلحة الكتلـة الشـرقيّة، ويـزوّد الغـرب إسـرائيل بالسـلاح ويسـاندها فـي المحـافل الدوليّـة. فاشـتعل الصـراع، ونشأت المخابرات العربيّة حديثًا في منتصف خمسينات القرن العشرين. وفي غضـون سنوات قليلـة استطاعت أن تبنـي قواعد عملها منذ اللبنـة الأولـى، ودرّبـت كوادرها المنتقاة بعناية من أكفأ رجالاتها، وانخرطت فـي حـرب ضـروس مـع مخـابرات العـدوّ الغاصب. وبعبقريّة فذّة، قامت المخابرات المصريّة بعمليّات جريئة لن يغفلها التـاريخ، عمليّات طالت مصالح العدوّ في الخارج وداخل إسرائيل نفسها، ووصلت تلك العمليّات إلى حدّ الكفاءة الماهرة والاقتدار، عندما فجّر رجال المخابرات المصريّـة سفن العـدوّ

---

١ - الجزائري سعيد، ملف التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ١: ٤٧٠ - ٤٧٤.

الحربيّة الرابضة في ميناء إيلات الإسرائيلي، وأغرقوا المدمّرة إيلات في البحر المتوسّط قبالة سواحل بور سعيد، وفجّروا الحفّار الإسرائيلي في ميناء أبيدجان، وزرعوا "رأفت الهجّان" لعشرين عامًا في تلّ أبيب، وجنّدوا العديد من ضبّاط اليهود أنفسهم في إسرائيل لصالح المخابرات المصريّة، وكان أشهرهم "ألكسندر بولين"، و"إسرائيل بيبر"، و"مردخاي كيدار"، و"أولريتش شنيفت"، وقاموا بمئات العمليّات السريّة التي لم يكشف عنها النقاب، وكانت كلّها عمليّات خارقة أربكت إسرائيل وجهاز مخابراتها الذي رُوّجت الإشاعات حوله، ونعت "الأسطورة التي لا تُقهر"[1].

تجسُّسٌ مصريٌّ دَاخِل إسرائيل

على الرغم من أنّ قوّات الرئيس جمال عبد الناصر كانت تخوض المعارك في اليمن أواسط ستّينات القرن العشرين، إلاّ أنّ عبد الناصر قد علم أنّ مصر وحدها لا يمكنها أن تسحق إسرائيل. وفي كانون الثاني - يناير ١٩٦٤، عقد مؤتمر قمّة عربيّة في القاهرة ضمّ جميع ملوك ورؤساء كافّة الدول العربيّة، وأعلن المؤتمر إنشاء هيئة جديدة هي "منظّمة التحرير الفلسطينيّة"، التي ستقاتل لاستعادة أرض فلسطين. وعلم عبد الناصر أيضًا أنّ المنظّمة الجديدة لن تكون كافية لتحقيق هذا الهدف، وهكذا قرّر مؤتمر القمّة أيضًا تحويل روافد نهر الأردن الحيويّة بالنسبة للتنمية الزراعيّة في إسرائيل. وأثارت أعمال التحويل إسرائيل ودفعتها إلى قصف الجرّافات في دول سوريا والأردن ولبنان المجاورة.

---

١ - الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص١٧ - ١٨.

تحقّق الزعماء العرب من أنّهم يحتاجون إلى قوّة مسلّحة لهزيمة إسرائيل، وهكذا أنشأوا قيادة عسكريّة موحّدة. كان ذلك هو الجانب العلنيّ لقوّة الدفع المتجمّعة تجاه العرب. وكان هناك أيضًا جانب سرّي.

فعلت المخابرات المصريّة والسوريّة كلّ ما تستطيعان لاختراق إسرائيل. فجنّدتا عددًا من المواطنين العرب في إسرائيل، وإن كان ذلك الخيار بعيدًا عن المثاليّة بحيث أنّ هؤلاء كانوا موضوعين في دائرة الشكّ وخاضعين للرقابة، وقامتا من حين إلى آخر بإرسال عملاء إلى الدولة اليهوديّة متظاهرين بأنّهم من السيّاح. وأكثر الأساليب جسارة التي استخدمتها المخابرات العربيّة كانت مماثلة لطريقة عمل الموساد، وهي أن يتعلّم عميل عربيّ كيف يتظاهر بأنّه يهوديّ ثمّ يتوجّه إلى إسرائيل كمهاجر غير ملحوظ وسط موجة من الوافدين الجدد المحتفى بهم.

إستطاع أحد هؤلاء، ويدعى "كوبروك يعقوبيان"، وهو أرمنيّ يعمل لحساب مصر، أن يمارس هذه الخدعة. فاتّخذ لنفسه شخصيّة مزيّفة تحت إسم "إسحق كوشاك"، وانتقل إلى إسرائيل في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦١، متظاهرًا بأنّه من البرازيل. وقد منحته القنصليّة الاسرائيليّة في ريو دي جانيرو تأشيرة، معتقدة أنّه يهوديّ يريد الهجرة إلى أرض التوراة.

وفي الواقع أنّ المخابرات المصريّة جنّدت يعقوبيان بينما كان في أحد السجون في القاهرة بتهمة جنائيّة غير خطيرة. وقد جرى ختانه ليبدو يهوديًّا مقنعًا من الناحية البدنيّة.

عمل يعقوبيان بوصفه كوشاك في كيبوتز لفترة قصيرة، ثمّ استقرّ في ميناء "عسقلون"، والتحق بالجيش الاسرائيليّ. وبالرغم من رغبته بالالتحاق في سلاح المدرّعات، إلاّ أنّ مؤهّلاته لم تسمح له سوى بالالتحاق بإحدى وحدات النقل

والمواصلات، ومع ذلك، فقد عمد إلى إرسال بعض المعلومات التي لها قيمة إلى القاهرة، قبل أن تمسك به وكالة المخابرات الاسرائيليّة شين بيت في كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٦٣. ولم يمض سوى بضع سنوات في سجن إسرائيليّ حتّى تمّ ترحيله إلى مصر في إحدى عمليّات تبادل الأسرى[١].

---

١ ـ رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١) ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

المَصريّ جَاك بيتُون

حقّق المصريّون نجاحًا ملحوظًا في مجال الاستخبارات الخارجيّة في نهاية ستّينات القرن العشرين. فقد بعثوا برجل إلى إسرائيل يعتبر من أفضل العملاء السريّين في إسرائيل، وأطلق عليه اسم "جاك بيتون"، وافتتح مكتبًا للسفريّات أو شركة سياحيّة في تلّ أبيب. وقد تظاهر الرجل بأنّه يهوديّ وجرى ختانه. وعلى عكس يعقوبيان، فإنّ بيتون الذي ظلّت شخصيّته مجهولة، لم يضبط أبدًا. بل إنّه جاسوس اختار أن يتقاعد، وهو ترف غير عاديّ. وسمح له المصريّون بالانتقال إلى ألمانيا الغربيّة، حيث استقرّ مع زوجته ليمضيا بقيّة أيّامهما.

حقّق تلفزيون الدولة في مصر نجاحًا هائلاً على الهواء في عام ١٩٨٨، عندما أذاع مسلسلاً في حلقات يستند إلى قصّة حياة بيتون. وفي البداية قال المسؤولون الاسرائيليّون إنّها "رواية عربيّة"، ولكن عندما تسرّبت تفاصيل أكثر من القاهرة، اضطرّوا للاعتراف بأنّ عميلاً للعدوّ قد هرب دون أن يلقى العقاب. وواصل الاسرائيليّون إصرارهم على أنّ بيتون سبّب أضرارًا ضئيلة أو إنّه لم يسبّب أذى على الاطلاق[١]. غير أنّ منطق الأحداث يشير إلى عكس ذلك تمامًا.

---

١ ـ رافيف ويوسي، كلّ جاسوس أمير، ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.

أحمَد عَبد الرَّحمن

بعد حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧، والدّمار الذي أصاب المدن المصريّة الواقعة على قناة السويس من جرّاء ما تعرّضت له من القصف الوحشيّ بأطنان القنابل الإسرائيليّة، علمًا بأن هذه المدن لا تحوي أهدافًا عسكريّة، نتج عن ذلك التدمير نزوح جماعيّ للسكّان الذين بقوا على قيد الحياة، باتّجاه القاهرة. وكان المناضل "أحمد عبد الرحمن" أحد هؤلاء الذين تركوا منازلهم وهربوا إلى العاصمة المصريّة مع زوجته وولديه "حمادة" و"مها" ليبدأ حياة جديدة فيها.

ولد أحمد عبد الرحمن في ٦ آب ـ أغسطس ١٩٣٩، وهو من سكّان السويس ـ حيّ الغريب. كان يعمل قبل نزوحه موظّفًا في "شركة سمبل للسياحة" في السويس. وحين وصل إلى القاهرة استقرّ موقّتًا لدى أقرباء له شاركهم المأكل والمشرب. ولم يستطع أن يجد عملاً يناسبه، وهو المواطن الراغب في أن يكسب خبزه بعرق جبينه، فقرّر السفر إلى اليونان، وودّع زوجته وولديه بعد أن أوصى بهم أقرباءه، ثمّ سافر إلى أثينا حيث تمكّن من إيجاد عمل على الباخرة "آرتا" التي تتجوّل في موانئ أوروبّا. وعندما وصلت الباخرة إلى ميناء "بريستون لانكشير" في إنكلترا، رست لإفراغ ما فيها من بضائع للتجّار البريطانيّين. ولمّا انتهى أحمد من عمله نزل إلى المدينة لإرسال بطاقة بريديّة إلى زوجته. وبعد ذلك جلس في أحد مقاهي الرصيف ليحتسي الشاي الإنكليزيّ، فتعرّف على فتاة بالغة الجمال، ادّعت أنّها إنكليزيّة وابنة مليونير. وربطت بينهما علاقة عاطفيّة بعد أن تمكّن أحمد من الحصول على إجازة من الباخرة التي

يعمل عليها لقضاء الليل في أحد الفنادق مع الفتاة الإنكليزيّة. ثمّ سافر في اليوم التـالي، وكانت صديقته التي زعمت أنّ اسمها "جوجو" واقفة على رصيف الميناء لوداعه. ثمّ راحت تلاحقه من ميناء إلى ميناء، وأحياناً كانت تنتقل بالطائرة لتلقاه في الميناء التي ترسو فيها باخرته... كما كانت ترسل له الخطابات الغراميّة... حتّى أنّها عرضت عليه ترك العمل في البحر ووعدته بأن تجد له عملاً مناسبًا، عند ذلك بدأ الشكّ يخامر نفس أحمد لنواياها... ورفض عرضها قائلاً إنّه يفضّل البقاء في البحر.

وصلت الباخرة "آرتا" إلى ميناء "كيل كنال" في ألمانيا الغربيّة، ونزل أحمد منها كالعادة بعد انتهاء دوام العمل للتجوّل في المدينة حيث تعرّف إلى شخصين ادّعيا أنّهما من رجال الأعمال، أحدهما يدعى "جاك" والآخر "أبراهام"، وحاولا التقرّب منه، ووجّها الدعوة له لقضاء الليل في المدينة، فوافق وهو الواثق من نفسه.

أثناء السهرة كرّر الرجلان نفس طلب صديقة أحمد المدعوّة "جوجو": ضرورة ترك العمل على الباخرة وسيجدا له العمل المناسب... حيث تأكّد لأحمد آنذاك أنّ جوجو يهوديّة، وذلك من خلال ربطه الأسماء والأحداث ببعضها: "جاك" وأبراهام"... والطلب إليه ترك العمل في البحر... وكانت جوجو قد اختفت عن المسرح بعد أن أرشدتهما إليه.... وأخبره جاك أنّ والده مليونير، وسيتوسّط له للعمل معه ويترك السفينة. وفي اليوم التالي تظاهر جاك بأنّ والده وافق على أن يعمل أحمد لديهم بعد جهد كبير... وعليه أن يترك العمل حالاً. ولكنّ أحمد، الصادق والملتزم، أجاب الرجلين متسائلا: "كيف لي أن أترك العمل مع كابتن يحترمني وساعدني؟"، فقالا له: "إفتعل مشاجرة على الباخرة"... فأجاب بأنّه ليس من أخلاقه الشجار. ولكي يضعاه أمام الأمر الواقع، أحضرا له رسالة باللغة العربيّة ضمن مظروف عليه طابع مصريّ، مرسلة إليه من والدته "المريضة جدًّا"، ليعرضها على الكابتن بهدف أن يوافق على أن

يترك العمل. وفعلاً نجحت الحيلة... ووافق القبطان على محاسبة أحمد، الذي قبض جميع ما ادّخره من رواتب طيلة الأشهر السابقة، وأعطاه علاوة على أجوره مبلغ مئة دولار مكافأة له، وطلب منه أن يلتحق بالباخرة عندما يطمئنَ إلى صحّة والدته، وودّعه متمنّيًا له التوفيق.

توجّه أحمد إلى الفندق حيث لاقاه جاك وأبراهام واصطحباه معهما للسهر احتفالاً بهذه المناسبة. وفي أثناء السهرة أعلم جاك أحمد بأنّ والده، المليونير المزعوم، قد وافق على أن يكون أحمد وكيلاً لشركته في القاهرة، وأنّ عمله سيكون الاستعلام عن المراكب الغارقة في قناة السويس، وحجم الغاطس، وطول المركب وعرضه... وهذه كلّها في الواقع معلومات وهميّة وبسيطة تُستعمل لجرّ العميل ليستسهل العمل المكلّف به... وسلّم جاك مبلغ ٥٠٠ دولار إلى أحمد كدفعة على الحساب، وبطاقة الطائرة، وعنوانيه هو وأبراهام في ألمانيا لبعث الرسائل والبرقيّات إليهما بعد استقراره في القاهرة.

في اليوم التالي ودّع جاك وأبراهام عميلهما الجديد أحمد في المطار، وتمنّيا له سفرًا سعيدًا، وهما يعتقدان أنّه أصبح عميلاً لهما بين ليلة وضحاها، لا سيّما وقد وعداه بإعادة المياه إلى مجاريها بينه وبين صديقته جوجو حين يفكّر بزيارتها في ألمانيا.

حين هبطت الطائرة في مطار القاهرة الدوليّ وخرج منها أحمد، لم يصدّق أنّه عاد بهذه السرعة إلى وطنه، وهو يروي قصّته قائلاً:

> عدتُ إلى بلدي مصر ورأسي يكاد ينفجر... لم أنم ليلة وصولي إلى القاهرة، حيث ضممت ولديّ حمادة ومها، وأنا أبكي بدموع لم تنزل... رأيت فيهما أطفال بلدي الصغار الذين فتكت بهم القنابل الإسرائيليّة بوحشيّة وهمجيّة... ورأيت في أمّي وزوجتي مصر العزيزة بكلّ شموخها

وأصالتها... رأيت في أهلي جميعًا ذكريات بلدي السويس وتذكّرت جاك وأبراهام... ماذا يريدان منّي؟ هل يظنّان، بهذه السذاجة، وأنا ابن السويس، أنّهما يمرّران عليّ ألاعيبهما ببساطة؟ هل تخيّلا للحظة واحدة أنّني بلعت "الطعم"؟... لقد قرأت كثيرًا عن طرق اصطيادهم للمصريّين في الخارج، قرأت كثيرًا عن أسلحتهم المعهودة... المال... الجنس... إيجاد العمل واستثمار حالات الضياع... لكنّني لن أضيع ما دامت تلتصق قدماي بأرضي الحبيبة، وما دمت أتذكّر إخوتي وأصدقائي وجيراني الذين صُرعوا برصاص الإسرائيليّين... وما دام يتحرّك في كياني كبرياء مصر، فلن أكون لهم ولن أخون بلدي مثل بعض ضعفاء النفوس الذين انتهوا على حبل المشنقة...

ويتابع المناضل أحمد عبد الرحمن كلامه بقوله:

نمت في الفجر ساعات قليلة وقد عزمت على أمر ما... وفي الساعة العاشرة خرجت من المنزل وتوجّهت إلى مبنى "المخابرات المصريّة"... لم أتردّد وأنا أدخله... وفي مكتب اللواء "ع. ف."، ارتميت على المقعد أمامه وشرحت له كلّ شيء... شرحت له القصّة كاملة من لحظة مغادرتي مصر حتّى عودتي... لم أخبئ أيّ تفصيلات... كنت أتكلّم وكأنّما أزيح عن صدري كابوسًا مخيفًا جثم على أنفاسي... وبعد أن انتهيت استرحت.

بعد ذلك عرض عليّ رجال المخابرات صورًا للعديد من عملاء المخابرات الاسرائيليّة في أوروبّا، فتعرّفت على صورتَي جاك وأبراهام...

على أثر اجتماع ضمّ كبار ضبّاط المخابرات المصريّة تمّت الموافقة على استمرار أحمد عبد الرحمن بتمثيل دور العميل، حيث أرسل لهما رسائل تتضمّن

معلومات مدروسة وُضعت بإشراف المخابرات، حتّى وصلته رسالة يطلب فيها جاك منه الحضور إلى إيطاليا. وأيضًا سمحت له المخابرات بالسفر، فسافر إلى جنوى، وأرسل من فندقه برقيّة إلى جاك على العنوان الموجود معه، فجاءه الجواب من جاك بأنّه موجود في نابولي، فسافر إليه. وتمّ اللقاء بينهما حيث أعطاه أحمد المعلومات التي حملها معه. وهنا كشف جاك النقاب عن شخصيّته وطلب من أحمد التعاون مباشرة مع المخابرات الإسرائيليّة وتزويدها بالمعلومات العسكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة في مصر. وأعطاه إسمًا رمزيًّا هو "جورج سايكو"، وأخبره بأنّ المخابرات الإسرائيليّة سوف تحميه. وقام بتدريبه على جمع المعلومات وطريقة إرسالها، وأعطاه مبلغ ألف دولار، وطلب إليه العودة إلى القاهرة لتنفيذ العمليّات الجديدة.

عاد أحمد إلى القاهرة وأعلم المخابرات المصريّة بما جرى معه. والجدير ذكره أنّ المخابرات المصريّة أرسلت ضابطًا برتبة رائد بدون علم أحمد، ليكون على اطّلاع على اتّصالاته بالمخابرات الاسرائيليّة في إيطاليا. ولمّا رجع أحمد إلى القاهرة، كان ضابط المخابرات المصريّة يتبعه كظلّه.

وثقت المخابرات المصريّة بأحمد، وسلّمته معلومات جديدة ليرسلها إلى المخابرات الاسرائيليّة. وبذلك استطاع أحمد أن يحوز على ثقة الموساد التامّة، حيث تكرّرت زياراته إلى أوروبّا لتسليم المعلومات التي يمكن إرسالها بريديًّا. وقد سلّمته المخابرات الاسرائيليّة جهاز اتّصال حديث ليبثّ عليه الرسائل الضروريّة، إلى أن جاءته برقيّة تعيّن له لقاء في روما، حيث تسلّم جواز سفر إسرائيليًّا باسم "يعقوب منصور"، وسافر إلى تلّ أبيب على إحدى طائرات شركة العال الإسرائيليّة، حيث التقى مجموعة من ضبّاط المخابرات الإسرائيليّة الذين رحّبوا به ترحيبًا حارًّا، وأنزل في فيلاّ فخمة في "بئر السبع" تحوي جميع متع الحياة، ومنها النساء، وجرى تدريبه أثناء ذلك على كيفيّة

التصوير وتحميض الأفلام وقراءة الميكروفيلم. وقضى هناك ٢٢ يومًا ثمّ عاد إلى القاهرة عن طريق روما، حيث التقى برجال المخابرات المصريّة، وشرح لهم ما جرى معه وما دُرّب عليه. كما أُعطي معلومات ليرسلها إلى إسرائيل. وبعد مدّة طُلب منه الحضور إلى أوروبّا حيث سُلّم من قبل المخابرات الإسرائيليّة جواز سفر إسرائيليّ وأُرسل إلى تلّ أبيب ليبحث معه كبار ضبّاط المخابرات الإسرائيليّة الأمور الهامّة في مصر على الطبيعة. وتعرّض في خلال ذلك للعديد من الاختبارات النفسيّة وخضع للفحص على "جهاز كشف الكذب" فنجح في جميع هذه الاختبارات. ولم يفطن رجال المخابرات الإسرائيليّة إلى حقيقته، ولم يتطرّق إليهم الشكّ في إخلاصه، وذلك بفضل توجيه المخابرات المصريّة له مع مراعاة كافّة الاحتمالات.

وفي شهر أيلول - سبتمبر ١٩٧٣ أرسلت له المخابرات الإسرائيليّة برقيّة مشفّرة تستفسر فيها عن الموقف العسكري في مصر خاصّة على الجبهة، وهل هناك احتمال للحرب مع إسرائيل؟ وكان الردّ ضمن خطّة الخداع الاستراتيجيّة الكبرى، حيث أشارت برقيّته الجوابيّة إلى أنّ ما يجري على الجبهة ليس إلاّ أحد تدريبات الجيش المصريّ، وأنّ احتمالات الحرب ليست قائمة على الإطلاق. وصدّقت المخابرات الإسرائيليّة مضمون البرقيّة ونقلتها إلى رئيسة الوزراء "غولدا مائير"، على أنّها برقيّة من أحد عملائها المخلصين. وكانت بعد ذلك حرب تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٧٣ أو "حرب رمضان" التي غسلت العار وأبرزت الكبرياء المصريّة السوريّة من الأعماق، وذلك كدليل على خداع المخابرات المصريّة للعدوّ الإسرائيليّ. واستُدعي أحمد عبد الرحمن في أعقاب الهزيمة القاسية ليسافر إلى تلّ أبيب، فسافر هذه المرّة عن طريق زوريخ، وكان قد تمّ إعداده من قبل المخابرات المصريّة لهذه الرحلة بعد الحرب

للتعرّف على الوضع الداخليّ في إسرائيل، وما تركته الحرب من بصمات على المجتمع والدولة الإسرائيليّين.

في مطار اللدّ، كان كلّ شيء مختلفًا هذه المرّة... كان الوجوم يسود الوجوه... وكان الحزن في كلّ مكان. ووجد أحمد عبد الرحمن وجوهًا جديدة في المخابرات الإسرائيليّة، والوجوه القديمة اختفت بعدما اعتُبرت مسؤولة عن الهزيمة. وقوبل أحمد بترحيب شديد، ونقلته سيّارة من المخابرات إلى شقّة فاخرة في شارع "ديز نفوت"، وهو أرقى شارع في تلّ أبيب. وأُعيد بعد استراحة قصيرة لمقابلة مدير المخابرات الإسرائيليّة الجديد الذي سمّى نفسه تمويهًا "داني"، وكانت تقوم على خدمته ضابطة برتبة ملازم أوّل جميلة جدًّا. وبعد أن رحّب به المدير أحاله إلى لجنة من ضبّاط المخابرات الإسرائيليّة تضمّ حوالى ١٨ ضابطًا أخذوا يكيلون له الأسئلة والاختبارات عن مصر وعن الأحوال العامّة بعد حرب رمضان. وكان أحمد يجيبهم بما دُرّب عليه من الإجابة في المخابرات المصريّة. وأخيرًا بعد أن اطمأنّوا إليه، جرى تسليمه أحدث جهاز إلكترونيّ في العالم للإرسال والاستقبال، لكي يستخدمه في إرسال المعلومات لهم، وقد قُدّر ثمن هذا الجهاز بمائتي ألف دولار أميركيّ، وهو يقوم بإرسال البرقيّة في حوالى الثانية، ولا يمكن التشويش عليه أو اكتشاف موجاته الإلكترونيّة. ومن المعروف أنّ المخابرات الإسرائيليّة لا تعطي مثل هذا الجهاز إلاّ للعميل الذي تثق به تمامًا.

كلّف الإسرائيليّون أحمد عبد الرحمن باليقظة وبإبلاغهم أوّلاً بأوّل عن الاستعدادات العسكريّة في مصر وإنذارهم بأيّ حالة من حالات الاستعداد العسكريّ مهما كانت؛ وهذا يعكس حالة الرعب والفزع التي عاشتها إسرائيل في أعقاب حرب رمضان، والتي زلزلت كيان المجتمع الصهيونيّ. كما طلبوا منه استئجار شقّة في

القاهرة لتكون مسرحًا لنشاطاته خشية اكتشاف أمره من قبل أهله وأصدقائه، وأُعطي مبلغ ألفي دولار لهذا الغرض، مع أنّه كان يستلم منهم دفعات شهريّة مغرية. وعاد إلى مصر ليقدّم الجهاز الإلكتروني "هديّة" للمخابرات المصريّة. غير أنّ الجهاز أُبقي معه وأُعطي شقّة مفروشة في القاهرة حسب طلب المخابرات الإسرائيليّة منه.

راح أحمد عبد الرحمن يرسل البرقيّات إلى إسرائيل عبر الجهاز، وبلغ مجموع البرقيّات التي أرسلها ٢٠٠ برقيّة اشتملت على معلومات مدروسة بدقّة متناهية حتّى لا تكتشف المخابرات الإسرائيليّة أيّ خداع فيها أو أيّ هفوة تدعوها للشكّ بعميلها ولو للحظة واحدة.

بعد ذلك سافر أحمد عبد الرحمن مرارًا إلى أوروبّا تحت حماية المخابرات المصريّة وإشرافها على كلّ الاتّصالات، حتّى لا يتعرّض لأيّ خطر أو ينكشف أمره. كما كانت المخابرات المصريّة تدرس كافّة الاحتمالات قبل سفره إلى أوروبّا أو تلّ أبيب، وتعدّ له الإجابات المسبقة على كلّ الأسئلة التي قد تطرحها عليه المخابرات الإسرائيليّة. ونظرًا لتكرار سفره إلى أوروبّا وإسرائيل في خلال سنوات، فقد زوّدوه طوال هذه المدّة بأحدث ما لديهم من الوسائل اللازمة للتجسّس، ومنها: كتب محفورة لتهريب الرسائل والنقود في باطنها، ومن هذه الكتب "المرايا"، "بائعة الخبز"، "أوّل الطريق"...؛ ولعبة مجوّفة تمثّل "عروسًا"؛ وعلبة شوكولا لتهريب النقود فيها؛ وعلبة مسح أحذية تُفرّغ ويوضع في داخلها كريستالات؛ وجهاز راديو لا سلكي؛ وجهاز إلكتروني؛ وكتب شيفرة؛ وكاميرا تصوّر في الظلام...

إستمرّت العمليّة طوال ثماني سنوات دون أن يتطرّق الشكّ أو تتزعزع ثقة المخابرات الإسرائيليّة بالعميل أحمد. واستمرّت عمليّة الاتّصالات والسفر إلى تلّ أبيب، وكانت آخر رحلة لأحمد عبد الرحمن إلى تلّ أبيب في شهر تمّوز ـ يونيو

١٩٧٦، حيث نقل إلى المخابرات المصريّة كافّة المعلومات المطلوبة بدقّة متناهية. عند هذا الحدَ، قرّرت المخابرات المصريّة إنهاء هذه العلميّة مع المخابرات الإسرائيليّة بعد أن حقّقت أهدافها، وبعد جهد شاقّ خارق للغاية بذلته المخابرات المصريّة إلى جانب المواطن المصريّ الشريف الذي ضرب مثلاً رائعًا في الوطنيّة والفداء والإخلاص لوطنه.

لقد كان الاتّفاق تامًّا بين المخابرات المصريّة والمواطن الشريف أحمد محمّد عبد الرحمن على إنهاء العمليّة لاستحالة السير بها أكثر من ذلك بعد أن استنفدت المخابرات المصريّة المخابرات الإسرائيليّة لآخر قطرة... وأعطت المخابرات المصريّة أحمد عبد الرحمن البرقيّة التالية ليرسلها على الجهاز الإلكتروني إلى المخابرات الإسرائيليّة:

> من المخابرات المصريّة إلى المخابرات الإسرائيليّة: نشكركم على إمدادنا بأدقّ وأخطر أسراركم التي كشفت لنا المزيد من عملائكم داخليًا وخارجيًّا على مدى ثماني سنوات. وإلى اللقاء في معارك ذهنيّة أخرى...

وهكذا أُسدل الستار على معركة من حرب الدهاء بين المخابرات المصريّة والمخابرات الصهيونيّة التي كان بطلها المناضل العربيّ المصريّ أحمد محمّد عبد الرحمن، الذي استحقّ إعجاب وتكريم واحترام كلّ مصريّ وكلّ مواطن عربيّ شريف[١].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، ملف الاستخبارات الإسرائيليّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٤١ ـ ١٤٩؛ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، منشورات مكتبة النوري (دمشق، لا.ت.) ٢: ١٤٩ ـ ١٥٥.

السُّودَانيُّ الذي أكَلَ طعمَ الموساد وأفلت من صنّارته

كانت المخابرات الإسرائيلية قد اختارت مدينة "أسمرا" مركزًا للتجسّس في أفرقيا لأسباب، منها أنّ هناك علاقة وطيدة بين إسرائيل ودولة إثيوبيا التي كانت تضم إقليم "إريتريا" قبل أن يعلَن دولة مستقلّة عام ١٩٩١ من الناحية السياسيّة والاقتصاديّة، ولقرب إثيوبيا من مصر بصفة خاصّة والدول العربيّة بصفة عامّة، وكذلك لمجاورتها لدول تربطها بمصر علاقات مميّزة مثل السودان والصومال وجيبوتي، ووجود علاقات وثيقة بين هذه الشعوب ومصر، فكان التركيز على أن يعمل جهاز الموساد الاسرائيلي لتجنيد بعض العناصر من بين أبناء هذه الدول للعمل ضدّ مصر، واختيار أفراد من أبناء هذه الدول الأفريقيّة المقيمين في مصر للعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية، لأنّهم يستطيعون القيام بأعمال التجسس دون إثارة شك أجهزة الأمن المصريّة، وفي حالة القبض عليهم ومحاكمتهم تبدأ الدعاية الصهيونيّة في إظهار مصر بمظهر الدولة التي تضطهد أفراد وأبناء الشعوب الأفريقيّة الشقيقة...

كما استطاع جهاز "الموساد" الاسرائيليّ تجنيد البعض من ذوي المراكز الحساسة في الأجهزة الأمنيّة والشرطة والجوازت وغيرها في إثيوبيا، ذلك بالإضافة لتجنيد مديري الفنادق والبنسيونات في عواصم أفريقيّة عديدة للحصول على كشوفات يوميّة حول العرب الزائرين لهذه الدول، وتسهيل تفتيش حجراتهم أثناء إقامتهم في الفنادق، ومحاولة التعرّف على أسباب الزيارة الحقيقيّة ومتابعتهم... وكانت هناك ضرورة لتجنيد أحد الشبّان السودانيّين بواسطة عميل لهم من اليهود الصهاينة الذين كانوا

يقيمون في السودان منذ مدّة طويلة ويعملون في التجارة... وبالفعل تم التركيز على شاب سوداني له صلة قرابة بأحد الضبّاط المصريّين من قيادة سلاح الطيران المصري بهدف الحصول على معلومات عسكريّة سريّة حيث أنّه لن يثير الانتباه أو الشكوك في محاولاته للحصول على تلك المعلومات، وتمّ وصله بمكتب الموساد "باسمرا" العاصمة الإريتريّة واختباره حتّى تمّ الاقتناع به للقيام بهذه المهمّة، ومن ثمّ بدأ عمليّة تدريبيّة على القيام بأعمال التجسّس وعلى الوسائل التي ستسلّم له بالقاهرة، والعملاء الجواسيس الذين سيتعامل معهم... وتمّ تسليمه المبالغ التي سيتمّ صرفها له لبدء العمل... وكان "الموساد" يتوقّع منه أن يحقّق إنجازات في مجالات الحصول على المعلومات العسكريّة السريّة المصريّة بتجنيد شخص بعيدًا عن شبهات أجهزة المخابرات المصريّة التي كانت بدأت تكتشف العديد من شبكات الجاسوسية التي تعمل لصالح إسرائيل.

لم يكن أمام المواطن السوداني الذي جنده "الموساد" إلاّ أن يدرك بحسّه القوميّ خطورة العمل الذي سيقوم به، والذي يُعتبر خيانة وطنيّة وقوميّة، وذلك بسبب التخابر مع العدو الإسرائيليّ ضد الأشقّاء المصريّين... فقام باتّصال مباشر مع المخابرات المصريّة بالقاهرة وأفادها بكافّة التفاصيل، وبدأ بعمليّة التنسيق معها ووضع الخطة المتقنة التي احتوت على كثير من عناصر التضليل والخداع لجهاز الموساد، حتّى تمّ إيقاع عملاء ذلك الجهاز في مصر بقبضة المخابرات المصرية[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٣١ ـ ١٣٢.

المُخَابَراتُ المصريَّةَ المعَاكسَة

حقّقت المخابرات المصريّة المعاكسة نجاحات باهرة في ملاحقة جواسيس إسرائيل وكشفهم وتفكيك شبكاتهم والقبض عليهم ومحاكمتهم وتنفيذ الأحكام بحقّهم أو في مبادلتهم بأسرى حرب. وفي ما يلي نماذج عن تلك العمليّات.

فَضيحَةُ لافُون

عرفت هذه القضيّة في مصر بـ"القضية الصهيونيّة الكبرى"، وفي إسرائيل بـ "فضيحة بنحاس لافون" وزير الدفاع الإسرائيلي في ذلك الوقت، أي في خمسينات القرن العشرين. فقد وضع جهاز الموساد خطّة تخريبيّة لتُنفّذ في القاهرة والإسكندريّة بغرض منع، أو على الأقلّ تأخير الاتفاقيّة البريطانيّة المصريّة الخاصّة بالجلاء، وزعزعة الثقة بين الثورة المصريّة والدول الغربيّة، وتدمير العلاقات الأميركيّة المصريّة، ومنع أيّ مساعدة اقتصاديّة أو عسكريّة لمصر. ونفّذت الخطّة في الإسكندريّة، وفي نفس الوقت اشتعلت النيران في المكتبة الأميركيّة بالقاهرة. وقد اكتشف المارّة أنّ شابًا يهوديًا كان يحمل بجيبه كميّة من المواد الحارقة وهو يسعى لإحراق سينما "ريّو" بالاسكندريّة، وقد اشتعلت فيه النيران، وتمّ القبض عليه عندما

سعى للهروب... واعترف بشركائه في الجريمة وعددهم ١٣ عميلاً للموساد، كلّفوه بمهمّة إشعال النيران في مراكز الاستعلامات الأميركيّة.

وقد قام القضاء المصريّ بمحاكمتهم وأصدرت المحكمة العسكريّة العليا حكمها بإعدام اثنين من المتّهمين، وبعقوبة السجن لمدد مختلفة على الآخرين، وتمّ إصدار حكم بالبراءة على اثنين من المتّهمين.

وتعتبر عمليّة تخريب وتدمير المراكز الثقافيّة الأميركيّة في القاهرة والاسكندريّة عام ١٩٥٤ من أهمّ العمليّات التي قام بها الموساد بشكل مباشر لعرقلة مسيرة الثورة المصريّة وضرب علاقتها الخارجيّة لمحاصرتها[١].

رأفت الهجّان

بعد فضيحة "لافون" بانفجارات مراكز الاستعلامات الأميركيّة بالقاهرة والاسكندريّة عام ١٩٥٤، وظهور أنشطة الموساد بشكل واضح ومكثّف لضرب العلاقات المصريّة الغربيّة والأميركيّة على وجه الخصوص لتعطيل مسيرة الثورة المصريّة، وفي الوقت الذي تمّ فيه بناء المخابرات العامة المصرية بواسطة مجموعة من الضبّاط الأحرار لتأمين الثورة وحماية منجزاتها، لذلك كان من الضروري معرفة ما يدور في وسط اليهود المقيمين في مصر والمناصرين للحركة الصهيونيّة، واتّضح أنّه من المهمّ أيضًا زرع عميل للمخابرات المصريّة داخل إسرائيل بمواصفات تمكّنه

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤.

من استمراريّة أداء مهمّته الوطنيّة بالتجّسس على الإسرائيليّين في عقر دارهم وجمع المعلومات العامّة والعسكريّة، وتكوين شبكة معلومات تضمّ عناصر الصفوة التي تعلم ببواطن الأمور ومراكز صناعة القرار. ولم تكن مهمّة اختيار هذا العنصر سهلة لما يتطلّبه من قدرات ومهارات خاصّة، وقابليّة للتدريب واستيعاب الدروس، وكذلك القبول بالمخاطرة بحياته للدخول لإسرائيل كواحد من الصهاينة الشباب المهاجرين بسبب الاضطهاد الذي يواجه اليهود بالخارج والرغبة في العودة لأرض الميعاد.

كان لا بدّ من إيجاد غطاء للعنصر غير قابل للشكّ فيه... وقد تمّ الاهتداء إلى وضع سيناريو استنادًا على أوراق هجرة مزيّفة لعائلة يهوديّة هاجرت إلى المغرب أثناء الحرب العالميّة الثانية وفقد أثرها تمامًا، ولربّما قتلتها القوات الإنكليزيّة أثناء العبور للمغرب. وأنّ لدى هذه العائلة ولد قد نجا من المذبحة وعاد للقاهرة ثائرًا ومتمرّدًا على أنواع الاضطهاد الذي صادفته بقتل جميع أفراد عائلته، مما جعله يتصدّر زعامة الشباب الصهيونيّ ويبرز اسمه كواحد من الثوار اليهود، خصوصًا وأنّ الأجهزة الأمنيّة المصريّة بدأت تطارده وتعتقله المرة تلو الأخرى حتى نال إعجاب اليهود بصموده أمام أجهزة التحقيق المصريّة، ومن جانب آخر كان لا بد من أن يلغي هذا الشاب ماضيه ويتجاوز حاضره ويفكّر في المستقبل بشكل دقيق وحذر لأن غلطة عاطفيّة صغيرة ستقود به إلى حبل المشنقة.

بدأ روّاد المخابرات العامّة الأوائل في البحث عمّن يقوم بأداء دور هذه الشخصيّة على أرض الواقع، وقد تمّ بالفعل التوجه إلى شاب مصري يدعى "رفعت علي سليمان الجمّال"، تنطبق عليه صفات المغامر الحذر الذي ليست لديه أي مسؤوليّات عائليّة تحول دون قبوله المغامرة، خصوصًا وأنّه كان يجيد اللغة الانكليزيّة بلكنة أداء الانكليز لها، واللغة الفرنسية بلكنة أبناء اللوفر... ومعرفته واسعة بما يجري من الأمور

الوطنيَة، ولكنّه فضّل الابتعاد عن الاهتمام بما يدور حوله وإغراق نفسه في واحة اللهو والمغامرة، وكان مظهره شبيهًا بمظهر الشاب اليهوديّ... وبدأت عمليّة ترويضه وتدريبه بدقّة وخطوة خطوة لتنفيذ السيناريو الموضوع إلى أن وصل تل أبيب وبدأ عمله الوطني حمايةً للأمن القوميّ العربيّ ببراعة واتقان وذكاء ونجاح منقطع النظير، حتّى أصبح من الشخصيّات المرموقة داخل مجتمع الصفوة الاسرائيليّ.

بدأت المعلومات تنهمر في كافة المجالات إلى المخابرات العامة للقيام بتحليلها ومعرفة تطورات الوضع السياسي والاقتصادي والعسكري والأمني داخل إسرائيل، ولمّا أرادت المخابرات العامّة إغلاق الملفّ أشارت لعميلها بالتوقّف عن العمل، وأعطت الموساد درسًا قاسيًا يدلّ على براعة العرب في المواجهة والجسارة والتحدي، وقد قُدّمت حكاية البطل المصريّ في دراما تلفزيونيّة عبر "مسلسل رأفت الهجان" الذي لاقى نجاحًا منقطع النظير داخل مصر وخارجها[1].

ليفي مزرَاحي

ولد اليهوديّ ليفي مزراحي سنة ١٩٢٤ في مدينة الإسكندريّة. وكان والده من يهود العراق قد هاجر إلى الإسكندريّة عند في بداية الحرب العالميّة الأولى سنة ١٩١٤.

تابع ليفي دراسته في جامعة فاروق الأوّل بالإسكندريّة في الصفّ الأوّل تحضيري ـ كليّة الهندسة عام ١٩٤٦، وكان مع طالب آخر يدعى "مراد سيماخ"، الطالبين

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

اليهوديّين الوحيدين اللذين قبلا في الجامعة في حينه. وفي عام ١٩٤٧ حاول ليفي الانتساب إلى الجيش لتأدية الخدمة الإلزاميّة، ذلك أنَ اليهود المصريّين كانوا يدفعون بدلات نقديّة عن الخدمة الإلزاميّة، ولكنّ ليفي آثر تقديم نفسه للجنديّة فرُفض، وحين نشأت دولة إسرائيل، هاجر أشقّاء ليفي إلى إسرائيل وبقي هو في الإسكندريّة لمتابعة دراسته الجامعيّة.

في هذه الأثناء، قامت ثورة ٢٣ تمّوز - يوليو في مصر، وكان ليفي من ضمن آلاف سكّان الإسكندريّة الذين شاهدوا خروج الملك فاروق وهو يرتدي بزّة أميرال بحريّ على ظهر الباخرة الملكيّة "المحروسة"، وقد حمل معه كنوزه التي لا تقدّر بثمن إلى منفاه، بينما اعتُقل ليفي في ما بعد مع عشرات من اليهود إثر تشديد إجراءات الأمن من قبل الحكّام الجدد في مصر، وكانت التهمة التي وُجّهت إليه "القيام بنشاطات صهيونيّة"، ولكن لم يثبت ضدّه شيء، فأخلي سبيله. ولدى عودته إلى الجامعة بعد أن شاع خبر توقيفه، واجه إحراجًا كبيرًا، وأصبح يحمل وصمة مثيري الشغب بعد أن كان يعتقد نفسه مواطنًا مصريًا صالحًا، وبالرغم من استعداده لدخول الامتحانات النهائيّة في الجامعة، فإنّه لم يحصل على العلامات المطلوبة، فاعتبر ذلك تمييزًا ضدّه من قبل أساتذته الذين علموا بتوقيفه، بالإضافة إلى أنّه أصبح مكروهًا من قبل الطلاّب لدرجة الاعتداء عليه مرارًا، حتّى انسحب من الجامعة نهائيًّا وأخذ يعمل في المحلاّت التجاريّة.

في هذه الأثناء انتسب رسميًّا إلى وكالة الهجرة لإسرائيل التي تنظّم النقل غير المشروع إلى فلسطين كساعي بريد، وسرعان ما دعم مركزه في هذه المنظّمة بأن فتح باب منزله لضبّاط الشرطة والجمارك وموظّفي الأمن العام - شعبة الجوازات ليقضوا فيه الساعات بين الخمر والمجون والطعام، بالإضافة إلى الرشوة، ليتغاضوا عن

المراحل القانونيّة لسفر اليهود، كما أقام ليفي علاقات طيّبة لنفس الغاية مع قناصل ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا، وبذلك استطاع تأمين سفر جميع أفراد عائلته إلى إسرائيل[1].

أُبعد ليفي من مصر عام ١٩٥٧ بعد حرب السويس. وسرعان ما انضمّ إلى الموساد وتلقّى تدريبًا على عمليات التدمير ونسف القطارات والجسور والمنشآت، وتعلّم التمييز بين الأسلحة الروسيّة والغربيّة، كما تعلّم المطاردة والتنكّر واقتفاء أثر شخص بدون أن يشعر، كما تدرّب على شعائر الدين الإسلاميّ، وطلب من أحد المشايخ أن يجعله ملمًّا بأصول الدين الإسلاميّ، وأن يعرّفه على عادات وتقاليد المسلمين، بالإضافة إلى الصلوات الخمس وصلاة الجمعة ومواقيت الأعياد... وذلك استعدادًا لإرساله إلى القاهرة لمباشرة عمله كجاسوس للموساد تحت اسم "وحيد السعداوي"، ضمن قصّة تمّ اختراعها تقول بأنّه مسلم أصله مصريّ، وُلد في الإسكندرية عام ١٩٣٠، إسم والدته "عزّة إبراهيم"، وهي لبنانيّة، وقد هاجرت أسرته إلى الأرجنتين واستقرّت في "بوينس أيرس" حيث تعارف أبوه وأمّه، وعمل في وكالة للسياحة...

أعجبت هذه القصّة المركّبة ليفي مزراحي الذي عاد للاستقرار في القاهرة كما هو مخطّط له، وأسّس شركة باسم "وحيد للإستيراد والتصدير". واستطاع أن يتغلغل في مجتمع الصفوة القاهريّ من خلال حفلات ودعوات وتقديم هدايا وحضور حفلات إعلاميّة، حيث كان يمتصّ كلّ ما يسمعه ويرسله إلى إسرائيل.

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٨٨) ٢: ٤٦٧ ـ ٤٦٨.

رصدت المخـابرات المصريّـة إشارة لاسلكيّة صادرة من العمـارة التـي يقطنهـا "وحيد السعداوي"، وأثبتت تحريّاتها أنّه جاسوس يعمل لحساب إسرائيل. واستطاعت المخابرات المصريّة أن تتأكّد من أنّه اليهوديّ ليفي مزراحي الذي تمّ القبض عليه بعد فضيحة "لافون" ضمن مجموعة من اليهود تمّ إطلاق سراحهم بعد ذلك، وأنّه قد استعار شخصية وحيد السعداوي. وقد تم اعتقاله وصدر الحكم بإعدامه شنقًا بتهمة إلحاقه الأذى بالمواقع العسكريّة التي كشف عن بعضها للمخابرات الإسرائيليّة، وتمّ تنفيذ حكم الإعدام في الثامن عشر من أيّار ـ مايو ١٩٦٥[١].

القَبضُ علَى عبَّاس حِلمي في الأَرجنتِين

في بداية ستّينات القرن العشرين، اندفع قادة المخابرات الإسرائيليّة في جهودهم للحصول على طائرة سوفياتيّة الصنع بدافع من الجنرال "عـازر وايزمن" قائد سلاح الطيران المفعم بالنشاط. وجرى التفكير في عدد من الوسائل الممكنة التنفيذ عن طريق زرع عميل طيّار في أحد أسلحة الطيران العربيّة أو رشوة طيّار عربيّ. ولكن كيف يمكن رشوة طيّار يحيا حياة راغدة مثل تلك التي تقدّمها أيّ قوّات مسلّحة عربيّة لطيّاريها؟

وكانت الفكرة السائدة أنّ هذا الطريق، بالرغم من صعوبته، يعتبر أفضل فرص النجاح أمام إسرائيل. وقد جمعت وكالة الاستخبارات العسكريّة الاسرائيليّة "أمان" ووكالة الموساد بالفعل كميّة هائلة من المعلومات عن القوّات الجويّة لكلّ من مصر

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥.

والأردن وسوريا والعراق. وسجّلت ملفّات المخابرات الإسرائيليّة كافّة المعلومات الدقيقة عن الطيّارين في تلك الدول، ورتّبتها، وتمّ تخزينها في أجهزة الكومبيوتر لدى أمان، وأجهزة الموساد الجديدة. وكانت المعلومات شاملة للغاية إلى درجة أنّ المسؤولين عنها كانوا يشعرون كما لو أنّهم كانوا يعرفون مئات الطيّارين العرب معرفة شخصيّة.

لهذا السبب يرجع إحساس الإسرائيليّين بخيبة الأمل عندما هرب إليهم طيّار مصريّ في النهاية بطائرته السوفياتيّة الصنع، لأنّها كانت طائرة تدريب من طراز "ياك" لا تثير إلاّ اهتمامًا ضئيلاً لدى هؤلاء الذين كانوا يتحرّقون شوقًا لوضع أيديهم على طائرة مقاتلة. ولكن بالرغم من خيبة الأمل الواضحة لدى المخابرات الاسرائيليّة، فقد استُقبل النقيب "عبّاس حلمي" استقبالاً حارًّا في إسرائيل. فقد مثّلت المعلومات التي قدّمها لوكالة أمان إضافة هامّة للمعلومات التي جرى تجميعها بجهد بالغ عن أسلحة الطيران العربيّة. وقد استُخدم حلمي لأغراض أخرى، حيث أدان علنًا تدخّل الرئيس جمال عبد الناصر في اليمن، "حيث كان جيشه يحاول إجبار بلد آخر على الدخول في مجال الاشتراكيّة الراديكاليّة العربيّة" كما قال حلمي، الذي ادّعى أيضًا استخدام المصريّين للغازات السامّة ضدّ الملكيّين في اليمن.

منح المرتدّ المصريّ معونة ماليّة ووظيفة في إسرائيل، إلاّ أنّه لم يكن قادرًا على التأقلم على الحياة في الدولة اليهوديّة. وقرّر عبّاس حلمي الانتقال إلى أميركا الجنوبيّة بعد أن رفض نصائح رجال المخابرات المتعاملين معه في تلّ أبيب. وزوّده الموساد بوثائق هويّة جديدة، ومنحوه مبلغًا ضخمًا من المال لمساعدته على بدء حياة جديدة في الأرجنتين.

بمجرّد وصوله إلى بوينس أيرس، ارتكب عبّاس حلمي عددًا من الأخطاء القاتلة منتهكًا بذلك التعليمات التي زوّده الاسرائيليّون بها. ففي البداية أرسل بطاقة بريديّة إلى والدته في مصر، اعترضها البوليس السرّي المصريّ، واكتشف عن طريقها المكان الذي يختبئ فيه. وبعد ذلك صادق حلمي سيّدة مصريّة كان قد التقى بها في ناد ليليّ بالأرجنتين، ووعدته بممارسة الجنس معه فوافق على الذهاب إلى مسكنها. وكانت تلك هي الصيغة الأسهل لـ"فخّ العسل" الذي تستخدمه كافّة أجهزة الاستخبارات في العالم. وفي مسكن السيّدة، كان العملاء المصريّون في انتظار عبّاس حلمي حيث تمكّنوا من التغلّب عليه، ونقلوه في صندوق للشحن البحريّ إلى السفارة المصريّة، ومن هناك قاموا بتهريبه على متن سفينة شحن إلى مصر حيث أدين بتهمة الخيانة من قبل محكمة عسكريّة وأعدم رميًا بالرصاص.

وقد أدّت حادثة عبّاس حلمي إلى تلطيخ سمعة المخابرات الاسرائيليّة، ودفعت هذه الضربة المعنويّة بالموساد وأمان إلى إعادة النظر في خطّتهم للحصول على طائرة مقاتلة عربيّة[1].

---

١ ـ رافيف ويوسي، كلّ جاسوس أمير، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

بَهجَت يُوسُف حَمدان

وُلد بَهجَت يُوسُف حَمدان سنة ١٩٣٢ بالإسماعلية في مصر، وغادر مصر للإقامة في ألمانيا حيث تزوّج من ألمانيّة، ما لبثت أن جنّدته في الموساد وهو يسعى للبحث عن عمل. وقد تسلّمه أحد عملاء الموساد للعمل معه في سوق الأوراق الماليّة. واستطاع حمدان الحصول على الجنسيّة الألمانيّة بعد تنازله عن الجنسيّة المصريّة، وأصبح من رجال الأعمال.

عاد حمدان إلى مصر كوسيط تجاريّ في مجال البترول، واستطاع أن يجنّد صهره المهندس "محمّد مندور" الذي سلّمه الرسومات والخرائط التي تُعتبر من الأسرار العسكريّة الهامّة، وكان مندور يعمل في شركة "المقاولين العرب" التي كانت تشرف على مباني الأشغال العسكريّة. كذلك جنّد حمدان المحامي "جمعة خليفة" الذي استطاع من خلاله التعرف والاتصال بمجموعات من العسكريّين الذين خرجوا من الخدمة العسكريّة لاستخدامهم كمستشارين فنيّين، واختيار العناصر المناسبة لتجنيدها للموساد، ثمّ كلّفه بالحصول على بعض المعلومات الاقتصاديّة تحت ستار التعامل مع بعض المؤسسات في ألمانيا الغربيّة.

تجمّعت لدى المخابرات المصريّة المعلومات الكاملة عن نشاط هذه الشبكة الجاسوسيّة، وتمّ اعتقال أفرادها، والحكم على بهجت يوسف حمدان المصريّ الأصل والالماني الجنسيّة بالأشغال الشاقّة المؤبدة وبخمس سنوات على كلّ من المهندس مندور والمحامي جمعة خليفة[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

الجاسوس الإسرائيليّ فولفانغ لوتس

كان "فولفانغ لوتس"، يهوديًا من أصل ألمانيّ، فرّ إلى إسرائيل عندما تسلم هتلر الحكم. وتمّ اختياره من قبل الموساد للقيام بمهمّة تجسّس بمصر عام ١٩٦٣ بعد أن نال تدريبًا عاليًا في المجالات المتعدّدة، ترفع من قدرات ومهارات الجاسوس، حيث أرسله الموساد تحت قناع مدرّب فروسيّة لاجئًا من ألمانيا الشرقيّة للعمل في القاهرة، وفتح أكاديميّة للفروسيّة، ما أتاح له ولزوجته الاختلاط بالمجتمع المصريّ ليعلم بما يدور داخل غرف العمليّات السياسيّة والعسكريّة والثقافيّة واستطاع، أن يحقّق نجاحات في التعرّف على بعض الأسرار العسكريّة المصريّة، وتمكّن من الحصول على قائمة بأسماء الألمان الذين يقيمون في القاهرة ويعملون في مجال برنامج الصواريخ وتطوير الأسلحة المصريّة والذين تمّ اغتيالهم الواحد تلو الآخر بواسطة عملاء الموساد، حيث لم تستطع مصر الإستفادة من خبراتهم في المجالات المتعدّدة.

إلا أن المخابرات المصريّة قد اكتشفت جاسوس الموساد وتم اعتقاله وزوجته وقدّم لمحاكمة أصدرت الحكم عليه بالسجن مدى الحياة وعلى زوجته بالسجن ثلاث سنوات[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.

فؤاد حَسن عَلي حمُّودة: ضحية عشق نوسة

تم تجنيد فؤاد حَسن علي حمُّودة بواسطة رجال الموساد في بون بألمانيا الغربيّة، مستغلّين حاجته للمال والعمل. وتلقّى حمّودة الدورة التدريبيّة الخاصّة بالجواسيس بجوانبها المتعدّدة، وحُدّد له مرتّب شهريّ، ووُعد بمبالغ ستُمنح له في شكل مكافأة كلّما أتقن عملية التجسّس، وحصل على معلومات ذات فائدة لإسرائيل.

باشر حمّودة نشاطه المشبوه بين القاهرة والإسكندرية، واستأجر شقّة استُعملت "كوكر" يمارس فيه واجبات الضيافة لمصادر معلوماته، ويقدّم لهم الخمر والنساء وحشيشة الكيف، حيث راح يسترسل في طرح الأسئلة والاستفسارات لما يدور في الميناء والمطار والشؤون العامّة والأخبار المتعلّقة بالأعمال العسكريّة والأسلحة.

اكتشفت المخابرات المصرية خيانة حمّودة من خلال فرض مراقبة مكثّفة على حركاته واتصالاته وسفريّاته الخارجيّة، حتّى أدركت تمامًا بما لا يدع مجالاً للشك بأنّه يتّعامل مع الموساد. وتم إلقاء القبض عليه وحوكم ونُفّذ فيه حكم الإعدام شنقًا[1].

وفي تفاصيل قصّة فؤاد حَسن عَلي حمُّودة جاء:

أفاق على صوت مزلاج باب زنزانته الحديدي فارتعد جسده النحيل، ونظر باتجاه الباب في رعب لتصطدم عيناه بوجه الشاويش حمدون يطل عليه بملامحه الجامدة وشاربه الكث، وكأنه تمثال قدّ من صخر.

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٧٢.

دفع "جراية" الطعام بعيدًا وغاص في خوفه يتأمل بزته الحمراء فانتفض بدنه في رجفة لا إرادية.. ثم انكفأ بوجهه بين ركبتيه يحيطهما بيديه المرتعشتين وأجهش في بكاء مرير، وارتفع نشيجه يشق سكون الزنزانة الضيقة المعتمة، إنه يموت كل يوم آلاف المرات كلما سمع وقع أقدام تتحرك أو صوت مزلاج يفتح.

كان أمله الأخير ألا يصدّق رئيس الجمهورية على حكم المحكمة، ولكن خاب أمله وضاع. فلماذا إذن لا ينفذّون حكم الإعدام سريعًا؟ ولمَ هذا السكوت البطيء؟ هل إنّ الانتظار هو عقاب نفسيّ قبل الشنق؟

هكذا تساءل فؤاد حمودة وهو حبيس الزنزانة الانفرادية في سجن مزرعة طرة.. وتحسس رقبته للمرة المليون وصرخ بأعلى صوته.. لا.. لا.. لست جاسوسًا لإسرائيل.. أنا ضحية.. أنا ضحية الفقر.. وأخذ يضرب الأرض الباردة وهو يردد في وهن: وضحية حب نوسة..

وسكنت حركته بعدما استسلم لواقعه ولمصيره.. وتمدّد على "البرش" ثم تقلب وتكور متوسدًا إحدى يديه ضاغطاً بالأخرى على أذنه.. فيسمع صوتاً يشبه هدير موج يتعاقب، وضربات قلبه اللاهثة تدق في اضطراب تعلن عن مدى الخوف الذي سكن بأعماقه.. والرعب الذي يخترق أفكاره ويشتتها.

إرتد إلى الوراء يتذكر بدايته وتسلسل حياته إلى أن صار جاسوسًا لإسرائيل. مدفوعًا بحبّ نوسة العجيب.. حب دفع بالحبيب إلى حبل المشنقة.

وبعد إعدامه عثروا في زنزانته على لفافة من الورق سجل بها قصة حياته بإيجاز أحيانًا.. وبتفصيل مطول أحيانًا أخرى.

إنها قصته مع الحياة.. ومع الحب.. ومع الجاسوسية. يقول فؤاد في مذكراته التي خلفها وراءه:

... كان والدي موظفًا بسيطًا في الحكومة وأمي لا تعمل... وكانت الأسرة كبيرة العدد قليلة الدخل والأفواه لا تكف عن المضغ والطلبات ترهق الأب.. فتحيل نهاره إلى سعي وشقاء وليله إلى نوم متقطع وسعال.

كنت الإبن الثالث ومن بعدي ثلاثة آخرون. أنهيت تعليمي المتوسط وجلست أنتظر فرصة للعمل. ولم يخطر ببالي أنني كنت أنتظر نقطة البداية التي سأنطلق من خلالها إلى خط النهاية بسرعة البرق، مدفوعًا بقوة لا أستطيع مقاومتها.. ذلك أنني رفعت سماعة التليفون ذات مساء ممل.. فجاء صوتها كالنسيم رقيقًا حنونًا بعث الدفء بأعماقي.. ودار بيننا حديث طويل امتد لقرب الصباح.

كان اسمها "نوسة"، وهي طالبة في الدبلوم، تسكن في "سبورتنغ".. تكررت أحاديثنا التليفونية لعدة أيام متصلة.. فالتهبت حرارة الأسلاك وهي تحمل جرعات الرغبات المتزايدة التي ترسلها نوسة بصوتها الأنثوي المسكر.. وكأنه خمر ينصب رقراقًا خلال سماعة التليفون. ونسيت مع مكالماتها وحدتي برغم الزحام والضجيج في شقتنا.. واتجهت لكتابة الشعر.. تبدلت حياتي كلها.. إذ أصبحت نوسة هي شاغلي ومشاغلي.. أنام على صوتها وأصحو.. وأحس معها بالمرارة التي تغلفها أحيانًا رغم أنها وحيدة أبويها.. وتقوم أمها على خدمتها وتعاملها كملكة على عرش قلبها.

كانت فتاة مرفّهة إلى درجة الجنون، رقيقة لا تتصنع.. مثيرة لا تتركني أهدأ.. أو تخمد نيران رغباتي تجاهها برغم سنها الصغير وقلة خبرتها بالحياة.

لكنها برغم ذلك استطاعت أن تحكم قيدها حول حواسي.. فأدور في فلكها كالمنوَّم.. وحتى وهي تحاول أن تستدرجني لأحاديث الجنس كنت أبدو كالأبله.. فأنا لا أعلم شيئًا عنه. إلا أنها تمادت في استدراجي فتجاوبت معها عبر الأسلاك يشجعني صوتها الذي يحرك الجبل، وهتفت في نفسي لأرفض وهي تضغط. أرفض وهي تقتل

قوتي وتحصد مقاومتي ورفضي بتأوهات يفزر لها جسدي كبوتقة تغلي.. ولما فشلت معها أرقتني الرغبة المحبوسة فتأثرت لحالي.. وفوجئت بها تعرض عليَ أن أزورها بمنزلها بعد منتصف الليل. ثم تحول العرض إلى دعوة ملحة.. وضايقها ترددي وخوفي. لقد كان عمها المحامي يسكن في الشقة العلوية وهذا الأمر أخافني.. إلا أنها دبرت كل شيء في جرأة مدهشة.. فذهبت إليها بعد منتصف الليل في إحدى الليالي الباردة مدفوعًا برغبتي العنيفة.. وكان هذا أول تدريب لي على عمل الجاسوسية.

عندما جلست بجوارها على حافة السرير ـ على بعد خمسة أمتار من حجرة والدها ـ سألت نفسي: هل حبيبتي مومس تخدعني أم هي مراهقة تحب؟ وغادرت شقتها لا أصدق أنني نجوت بحياتي من مصير مجهول. وأعترف أنه برغم سعادتي برجولتي.. إلا أنني فقدت أشياء لذيذة كنت لا أريد مسها.. وأهمها أنني فقدت بعض ثقتي بها. ولكن صديقي حاتم أكد لي أن الحب أعمى.. وأن الفتاة تسلم كل شيء لحبيبها عن قناعة ورضا لأنها تحب.

بعد عدة أيام دعوتها إلى شقة أختي المسافرة إلى الخارج مع زوجها فجاءت نوسة بسهولة.. وبسهولة أكثر جعلتني أخلع عنها ملابسها دون أن تصدني ولو كذبًا وكأنما هي اعتادت ذلك من قبل.. لكن الذي أذهلني بحق هو أنني فوجئت بها ليست بكرًا..

صفعتني المفاجأة وتحطمت ثقتي بها وفي كل بنات جنسها وأغمضت عيني عن هذا الخطأ موقتًا. لقد كنت أحبها ولذلك تعمدت ألا أذكر هذا الأمر ثانية.. لكنها هاجمتني بعنف واتهمتني بأنني ضيّعتها. أخذتها إلى أشهر طبيب في الإسكندرية فلم يصارحني بالحقيقة.. ونسينا الأمر برمته، وكنت لا أستطيع فراقها أو ابتعادها عني. فلقد صارت في دمي..!!

وتصف لنا مذكرات جاسوس الإسكندرية أدق خلجاته وإحساساته. كتبها في لحظات صدق مع نفسه قبل أن يلتف حبل المشنقة حول رقبته. وكان قد تقدم بالتماس إلى الرئيس أنور السادات يطلب تخفيف حكم الإعدام ولم يصل الرد بعد على التماسه الذي كان هو الأمل الأخير له في إنقاذه.

ولأنه عاش كثيرًا يحلم بتحقيق هذا الأمل.. فقد اتسمت مذكراته بالسرد الدقيق والوصف الرائع لكل جوانب حياته. صفحات بلغت أكثر من مائتي صفحة تحمل مشاعر جاسوس خائن.. اعتقد أن الحب كان السبب الرئيسي في وقوعه في حبّ الجاسوسية العميق المظلم. يقول الجاسوس:

في زنزانتي الرطبة الضيقة.. أنام يقظًا مع انسحاب الشمس وأصحو مع أول خيوطها. وما بين النوم واليقظة ترتعش حواليّ كل الصور.. وترهبني خطوات السجانين طوال الليل.. فأظل أنصت مرعوبًا وهي تقترب فأحس باقتراب الموت.. وتبتعد فأتنهد.. ثم يتملكني الهلع. وهكذا كنت لا أنام ولا أهدأ.. أتخيل وجه نوسة الرائع وهي بين أحضاني.. أرتشف من أنوثتها لذاذات جميلة.. وأحسو شرابًا مسكرًا ومعتقًا.. وأعيش معها أجمل لحظات عمري نخوض معًا بحور المتعة.. ونجوب نبحث عن مشتقات أخرى للنشوة تغتال فينا الملل والكآبة.

ولم تكد تمر عدة أشهر.. إلا وخطبت نوسة فجأة وانشغل تليفونها عني في المساء، فجنّ جنوني وأقسمت أن أفوز بها ولا أتركها لغيري بعدما أدمنتها.. لكنها كانت تتهرب من لقائي وجنوني.. وتملكني الشعور القاتم بالهزيمة وأنا أضرب رأسي بيدي وأرتجف غضبًا وأردد: "أيتها المومس الحقيرة.. أحبك.. أحبك بوجهك الطفولي البريء وصوتك الساحر.. أحبك وأنت تصعدين ورائي إلى الطابق الخامس في شارع "الجلاء" ترتدين زي المدرسة وتحملين حقيبتك.. وتنشدين ما يكفيك من النشوة لعدة أيام قادمة.. أحبك

يا عاهرة كاذبة.. ولن أنسى يوم خطبتك لهذا المغفل الذي نزف عليك مئات الجنيهات كما نزفت أنا معك رجولتي".

يومها.. طلبت مني والدتي أن أقرأ عليها عدة صفحات من رواية عاطفية.. فجلست أقرأ... لا أدري أي سطور قرأت، وقد اختنق صوتي وتلجلج لساني.. وبكيت بكاء الضائع الذي فقد الطريق والأمان.

ثلاثة أشهر وعادت نوسة ذليلة يغشاها انكسار الهزيمة بعدما فشلت خطبتها.. ولم تمهلني الوقت لأفكر فاستردتني سريعًا واحتوتني من جديد فقلت لها:

ـ أنا لم أكرهك يومًا.. أحبك وإن كنت عاهرة تُستأجر.

ـ فؤاد ـ يا فؤادي.. يا حياتي.. اشترني ولا تبخس الثمن.

ـ أشتريك؟

ـ سافر وكافح من أجلي.. سافر إلى أي مكان في الدنيا وعد بالثمن.

قلت لها:

ـ لقد عينت في شركة مضارب الإسكندرية بسبعة عشر جنيهًا.

قالت في يأس:

ـ لن نتزوج إذن قبل عشر سنوات.

ـ أهلك يبالغون في المهر.

ـ سافر لعام واحد وسأنتظرك.. سافر.. إنه الحل الوحيد لنا.

ـ لا أملك مصاريف السفر.. أنت تعرفين كل الظروف.

- ألم تخبرني أن شقيقتك ستعود عما قريب؟

- نعم.. أرسلت لنا بأخبار عودتها بعد شهر ونصف.

- اقترض منها مبلغًا وخذ مني هذه الإسوارة.

وأضافت وأنفساها تلهب وجهي:

- إفعل شيئًا لأجلي. وسأظل أنتظرك وأنسج ثوب عرسي كما كانت تفعل "بنيلوبي" قديمًا (قصة جاءت في ملحمة الأوديسا لشاعر الإغريق هوميروس)

منذ تلك اللحظة.. قررت أن أسعى للسفر خارج مصر. كانت الأبواب مغلقة في وجهي.. وحرب الاستنزاف على أشدها بين مصر وإسرائيل.. وهناك مفاوضات من أجل الهدنة والأمور سيئة وتزداد سوءًا.

عادت شقيقتي من الخارج وعندما طلبت منها قرضًا أحالتني إلى زوجها الذي تهكم وسخر مني.. وعندما علم والدي عنفني بشدة.. وأشفقت والدتي على حالي فأعطتني آخر ما تملكه من حلى، فلمّا قبّلت يد شقيقتي مرة أخرى وقلت لها انقذيني من جنوني... منحتني سبعة وعشرين جنيهًا.. ولم تمر عدة أيام إلا وكنت أحمل في جيبي تذكرة طائرة إلى بون.. وسافرت إلى ألمانيا الغربية يملؤني إحساس بالمرارة والظلم والضعف.

كانت معي رسالة إلى أحد المعارف في مدينة دوسلدروف شمال بون.. وعندما التقيت به نظر إليّ كمن ينظر إلى كلب أجرب.. حتى صديقته الألمانيّة كانت تسخر مني وتضحك كأنها ترى "بلياتشو" برغم أنني لا أعرف كيف أكون مضحكًا فأضحك الناس. وكنت قد مررت في طريقي بمدينة ساحرة اسمها كولون.. فعقدت العزم على العودة إليها لأغامر علّني أوفّق بمفردي، ورجعت جنوبًا حتى كولون الواقعة على نهر الراين الخلاب.. فسحرتني المدينة الأنيقة واستولت على عقلي..

عـثرت علـى بنسـيون رخيـص اسـمه "فارسـبورغر" تديـره سـيدة بشـوش اسمها "بريجيت كلايـن"، كـانت تعـاملني بلطــف.. وبإنكليزيـة ركيكـة شـرحت لهـا ظروفي ورغبتـي فـي العثور علـى عمل، فتـأثرت لحـالي.. وبعد يوميـن ذهبت إلـى مصنع دهانات يمتلكه زوج ابنتهـا "بيتر راينهارد" يقـع علـى أطـراف المدينـة.. وبعد عمـل متصـل ليـل نهـار لعـدة شـهور اسـتطعت أن أجمـع خمسـة آلاف مـارك.. فأرسلت خطابي العاشر إلى نوسة أطمئنها. وبرغم إلحاحي في الـرد علـى رسـائلي لـم يصلني منها خطاب واحد.. فانتابني قلق شديد ولم أتمكن من مكالمتهـا تليفونيًـا، فكتبـت إلى صديقي حـاتم أطلـب منـه موافـاتي بأخبارهـا.. وكـان الانتظـار يقلقنـي بـل ويفتـك بأعصابي.

كانت نوسة رغم الجميـلات من حولـي هـي الأجمـل والأرق والأروع ولا تفـارق خيـالي للحظـة وأحلـم بـاليوم الـذي يجمعنـا.. لذلـك.. كنـت أعمـل بجد دوامًـا ونصفًـا، وأفترش ورق الكرتون وأنام.. يرفرف خيالها حولـي وذكرهـا يمدنـي بـالقوة ويمنحنـي الصبر.. وتعلمت كيـف أحـرم نفسـي مـن أبسـط الأشـياء لأدخـر وأعـود إليهـا مرفـوع الرأس.. ولما جاءني الخطاب المنتظر من حاتم ارتعش قلبي لرؤيته.. فما بين سـطوره يحدد لي مصيري واتجاهات حياتي.. وملأني شعور غامض بالخوف وأنا أفتح الورقـة المطوية.. وزلزلتني المفاجأة التي لم أتوقعها قط: نوسة تزوجـت منـذ شـهرين وانتقلـت للإقامة في "الكنغ مريوط".

لطمتني العبارة بعنف فأصابني دوار وأطبقت الجدران على أنفاسي.. وأيقنـت أنهـا ضاعت مني إلى الأبد. وأيقنت أيضًا أنها طراز غريب من النساء من الصعب نسيانه.. وعلى امتداد البصر في الخيال والواقع لا أرى سوى وجهها الطفولي الـبريء ويتجسـم أمامي جسدها الأنثوي فأتحسسه:

كان الجليد يتساقط كأنه ندف من القطن الأبيض الناصع في شهر فبراير ١٩٧٠ والباص يقلني إلى شارع "كلنغهاوس". مشيت وسط الزحام لا أنوي على شيء ودون قصد اتجهت إلى شارع "فينشا".. حيث أضواء الكباريهات تتلألأ متراقصة.. والداعرات يقفن على النواصي يساومن المارة. وما إن عبرت إلى الناحية الأخرى من الشارع متجهًا إلى كباريه "غوتن نخت" الشهير.. حتّى قذفت واحدة منهن بنفسها في طريقي فأزحتها بيدي.. ودلفت إلى داخل الكبارية لأول مرة في حياتي. شربت ورقصت وسكرت.. وبدلاً من الذهاب إلى حجرتي في المصنع، ذهبت إلى بنسيون فارسبورغر.

دهشت السيدة كلاين وطلبت منها ألا تسألني عن أي شيء فسحبتني إلى إحدى الحجرات.. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أقيم للأمور وزنًا..

تساوت عندي كل المتناقضات وأحاطتني قتامة من اليأس والاهتزاز.. وتفاعلت بداخلي ثورات من الشك والحزن والكآبة.. وصرت زبونًا دائمًا في غوتن نخت، أمر على محل "هورست" للملابس فأصحب "كريستينا" للعشاء ثم نسهر ونشرب حتى الثمالة.. هي الأخرى وحيدة مثلي هجرت أسرتها في "دار مشتات" هربًا من ذكرى حبيب غدر بها. وتركت البنسيون وأقمت معها في غرفتها نتعاطى الجنس كالطعام لننسى أننا خدعنا.

عندما أنفقت آخر مارك كان معي تأففت كريستينا وتملكها الضجر. فذهبت إلى المصنع مرة أخرى فلم أجد عملاً هناك. حاولت أن أجد فرصة عمل بمكان آخر لكن الظروف كانت كلها ضدي.. فعجزت عن الانفاق على نفسي.. وطردتني كريستينا من شقتها.. ونبهتني السيدة بريجيت كلاين صاحبة البنسيون لكثرة ديوني، ولما عضني الجوع ذهبت إلى الكباريه أطلب عملاً.. أي عمل.

ولأنني زبون معروف لديهم صعد بي أحدهم إلى الطابق العلوي حيث مكتب المدير الفخم.. استقبلني الرجل بحفاوة بعدما اكتشف أنني مصري.. وأخبرني أنه زار مصر منذ عدة سنوات وسألني عنها فقلت له بقرف "زي الزفت".. لقد كنت في حالة نفسية سيئة والجوع ينهش معدتي.. ويطاردني شبح ترحيلي إلى مصر خاوي الوفاض تنوء حقائبي بيأسي وفشلي.. وسألني الرجل مرة ثانية.

ـ لماذا جئت إلى هنا؟ "يقصد ألمانيا".

قلت في أسى:

ـ الفقر والحب..

وبعد أن سردت عليه حياتي بإيجاز.. أسف لحالي.. وبصوت به رنة الواثق قال:

ـ بإمكانك أن تصبح مليونيرًا.. المهم أن تكون أكثر ديناميكية وتعاونًا..

ضحكت في تعجب وسألته:

ـ مليونيرًا؟ كيف وفي جيبي أحد عشر ماركًا ونصف ولا أنطق بالدوتش وإنكليزيتي مهترئة.. كيف؟

ترك "جونثل هاوزن" مقعده خلف المكتب وجلس قبالتي يفرك يديه وقال:

ـ نشأت مغامرًا شجاعًا أكره الخوف والجبناء.. سنوات قليلة وكنت شريكًا في هذا النادي ثم امتلكته لأنني دست على أشياء كثيرة لكي أحقق طموحاتي.. وأعرف أن الرجل الشرقي عاطفي يخشى المغامرة ومقيد بتقاليد وأعراف.

ـ سيد هاوزن أنا مستعد لأيّ مغامرة تنتشلني من الفقر والضياع.

- إذن.. إنس أنك مصري.. مسلم.. وتذكر فقط أنك هنا.. في ألمانيا الغربيـة.. فـي أوروبا.

- سأنسى.. ولا أريد أن أتذكر هذا الماضي اللعين.. أريد أن أكون إنسانًا آخر.

ضغط الرجل على زرّ فجاءت رائعة مثيرة والتفت إلي قائلاً:

- هذه سيلفيا.. من الآن سترافقها في سفرها إلـى ألمانيـا الشرقية لبعض الأعمـال التجارية.

إبتسمت سيلفيا ونظرت إليهما في بلاهة.. وعندما أوشكت على سؤاله عـن عملـي الجديد أصدر أوامره إلى سيلفيا بأن تدفع حساب البنسيون وتصحبني إلى شقتها..

وقام إلى مكتبه وعد بعض النقود وناولها لي قائلاً:

- هذه لك.. وللعمل حساب آخر.

وبينما كان يسلم نقودًا أخرى لسيلفيا أدركت أن المبلغ ألف مارك.. فدارت الأسئلة في خيالي وتساءلت بيني وبين نفسي:

- "ماذا سأعمل بالضبط"؟

وقررت أن أغامر وألا أستسلم أبدًا مهما كانت المصاعب.. وأفقت على يـد سيلفيا تجذبنـي فمشيت وراءهـا.. وبدأت منذ ذلك الحيـن أولـى خطواتـي علـى الطريـق المجهول.. والذي في نهايته كانت تنتظرني المشنقة.

في شقة سيلفيا الرائعة التي تطل على نهر الراين.. حيث البانوراما تخلب الألبـاب وتدير الرؤوس.. تذوقت أنوثتها العجيبة التي أنسـتني نوسـة ولهيـب حبهـا. وبينمـا كنـا نستريح سألتها:

ـ سيلفيا ماذا سأعمل معك؟

أشعلت سيجارة وجذبت نفثًا عميقًا وقالت:

ـ التهريب..!!

قلت مستفسرًا وقد تملكني القلق:

ـ تهريب..؟ تهريب ماذا؟

وهي تنفث دخانها في وجهي:

ـ نحن ندخل الخمور والسجائر والساعات إلى ألمانيا الشرقية مهربة على الحدود.

قمت مسرعًا وارتديت ملابسي وأنا حانق.. واتجهت مباشرة إلى غوتن نخت وصعدت إلى مكتب المدير، وتعجب الرجل لرؤيتي وتساءل وهو يهز رأسه:

ـ ماذا بك؟

كان صوتي عاليًا في استنكار وأنا أقول:

ـ تهريب الخمور والسجائر يا سيدي لن يبني لي مجدًا أو يرفع من شأني.. إنه عمل تافه.

ـ نريد أن نزرع بك الجرأة ثم نوكل إليك الأهم والأكبر.

ـ لو لم أكن جريئًا ومثابرًا ما جئت إلى هنا لا أملك مالاً أو لغة.. أنا لست سوى فدائي مغامر.

في لهجة مليئة بالتحدي:

ـ أتريد أن تثبت لنفسك أنك مغامر..

فقلت في اندفاع الواثق:

ـ سيد هاوزن أريد أن أؤكد.. نعم أؤكد لكم أنني جريء لحد المغـامرة.. وأريد أن أعمل وأكسب لا أن أخبئ بعض علب السجائر والعصير وأعبر بها كاللص إلى الناحية الأخرى من ألمانيا.

ـ قلت لك يا فؤاد إن تهريب السلع تمرين لك لا أكثر.

ـ تمرين على ماذا؟

لمعت عيناه كعيني ثعلب ماكر وبصوت هامس قال:

ـ مهمة سرية جريئة ستكسب من ورائها نصف مليون مارك على الأقل.. إنه مبلـغ خيالي قد تشتري به حيًا بأكمله في الإسكندرية هه.. ماذا تقول؟

جف حلقومي فجأة وانحبس صوتي وأنا أقول:

ـ اعتبرني قد تمرنت وأنا الآن جاهز للمهمة الكبرى.. أريد هذا النصف مليون ولو كلفني ذلك أغلى ما أملك.. وكل ما أملك.

ابتسم هاوزن وأردف:

ـ أنت لا تملك شيئًا ولكننا نريدك أن تملك.

ـ أنا طوع أمرك يا سيدي.

تناول الرجل كارتًا صغيرًا وسلمه لي وهو يقول:

ـ إذهب غدًا إلى هذا العنوان.

وقرأت: السفارة الإسرائيلية بون شارع...

فرمقته بنظرة غليظة وقد سرت بأوصالي رعشة.. وقلت بصوت أجش:

- وما دخل إسرائيل في تهريب السلع إلى ألمانيا الأخرى؟

- في بون ستعرف كل شيء.. وسيدفعون لك بسخاء إذا تعاونت معهم.

كان الخوف قد بدأ يساورني وقلت في تلعثم:

- تريدونني جاسوسًا إذن؟

أجابني بسرعة وكأن رده كان جاهزًا:

- إسرائيل ليست بحاجة إليك لتعمل جاسوسًا.. فأنت لا تملك هذه الموهبة ولست بالشخص المهم الذي تستخلص منه معلومات سرية.

- قبل مغادرتي مصر بوقت قريب قرأت في الصحف عن جاسوس مصري عاطل لا يعمل بالحكومة ولم يؤد الخدمة العسكرية فلماذا اختير جاسوسًا وما الفائدة منه؟

- إسمع.. طالما نحن في حالة حرب مع العرب - فسوف ينظر إلى نياتنا بالريبة والشك..

تشققت شرايين عقلي عندما نطقها صريحة.. وأحسست بأنني أترنح وأرتجف.. لكني استجمعت قواي الخائرة في صعوبة وسألته:

- أنت إسرائيلي إذن سيد هاوزن؟

- أنا يهودي ألماني أحب إسرائيل والعرب وأحلم دائمًا بالوفاق بينهما.

ودخلت سيلفيا مضطربة. نظرت إلى وجهينا تستخلص نتائج اللقاء.. ويبدو أنها فهمت جيدًا أن شيئًا ما قد حدث. فهتفت سريعًا:

- أوه.. أيها المصري المراوغ..

وأخرجت منديلها تمسح قطرات العرق على جبهتي.. وكنت لحظتئذ كتائه يبحث عن ملاذ.. يملؤني إحساس غريب أحسه لأول مرة. إنه مزيج من الخوف والطيش واللامبالاة..

لملمت إرادتي ونزلت معها إلى الصالة فشربنا ورقصنا.. واستيقظت في الصباح لأجدها بجواري. وجسدها الأفروديتي ينفث حرارة تلسع رجولتي.. لكنني كنت قد فقدت الرغبة تجاهها وسافرت بخيالي إلى بعيد. إلى الإسكندرية. وهجم طوفان من الذكريات والمشاهد فاستسلمت هربًا من توتري واضطرابي. فطفت كالطائر فوق كازينو الشاطئ على الكورنيش وتجولت بداخله.. واتجهت إلى ذات الركن الذي شهد أروع لقاءاتي مع نوسة.. فتحسست الموائد والمقاعد علني أتنسم عطرها. وعندما اتجهت طائرًا إلى قلعة قايتباي.. مدت سيلفيا يدها تداعب شعري ولكن هيهات.. لم تخرجني من رحلتي لمسجد سيدي بشر الذي يطل على البحر من مرتفع.. فلكم جلست على أسواره أتفكر في مستقبلي المجهول وحياتي الخاوية.. وكثيرًا ما عرجت خلف المسجد حيث تقع المقابر فأنشد بعض الرضى والصبر.

ياه. ها هي أشجار التين البرشومي على ساحل العجمي تتناثر على مرتفعات التلال.. وصبيّان يرعيان الماعز ويلعبان "السيغا". طفت أتذكر مراتع طفولتي وصباي.. برائحته الآزوتية يلفح وجهي نسيم البحر رطبًا.. ويطير خيالي إلى محرم بك حيث بيتنا الجميل وضوضاء الباعة الجائلين.. وتوقفت عند يوم سفري حيث وجه والدتي النوراني والدموع تشق أخدودين على خديها.. وبحنان كبير تقبلني وتضمني إلى صدرها بحرارة.. وها هو يقف محزونًا.. لم أر والدي من قبل يبكي.. أشعره العجز عن تحقيق آمالنا بحسرة تنطق بها نبرات صوته الحزينة. وها هي هدير ـ صغرى شقيقاتي ـ تخلصت من أحضانها

بمعجزة.. كانت تحس بمعاناتي أكثر من شقيقتي الكبرى التي وقفت تقول: دعوه يسافر.. فالسفر يحوله إلى رجل.

ودون وعي.. أزحت يد سيلفيا عن صدري ونظرت إليها في "زهق" فانتبهت.. ورفعت رأسها قليلاً لتلمح حبات دموع تعرف طريقها جيدًا على وجهي.. وانتابتني رجفة خفيفة فضمتني إلى صدرها وقالت:

ـ علام القلق يا فؤاد؟ أنت لن تذهب إلى جهنم حتى تضطرب هكذا.

أجبتها بصوت مبحوح مختنق:

ـ سيلفيا. أنا فقط تذكرت أهلي في مصر.

وهي تضغطني بشدة:

ـ عما قريب ستعود إليهم ومعك آلاف الماركات.

ـ ماذا يريدون مني مقابل هذه الثروة.

ـ أنا لا أفهم في السياسة. لكنهم بلا شك يعملون من أجل السلام وأمن إسرائيل.

ـ أنا أيضًا لا أحب السياسة ولا أفهمها. وما أذكره أن إسرائيل احتلت سيناء والضفة والجولان.. ولا أعرف بالضبط ما هي الضفة أو الجولان؟

ـ أعتقد أنك مصري مقامر. لديك عزيمة المغامر وإصرار العنيد.

ـ ربما أكون كذلك وإلا ما جئت إلى هنا.

ـ قلت لي أنك جئت مديونًا.. أليس كذلك؟

ـ بلى.. جئت مديونًا.. وكنت أتسول مصاريف السفر ذليلاً. حتى والدي.. كان يعتقد بأنني سأخذله.. ولم يكن يثق فيّ للحظة.

ـ زوج شقيقتك قلت لي أيضًا إنه آلمك كثيرًا وسخر منك.

ـ كفى.. كفى سيلفيا.. أريد ألا أتذكره. لقد رفض وداعي في المطار وقال باستخفاف سأذهب لاستقباله بعد عدة أيام قادمًا بفشله.

هجمت على مشاهد الإذلال التي عشتها في الإسكندرية وأنا أبحث عمن يمد لي يده بجنيهات قليلة تعينني في سفري.. فامتلأ قلبي غيظًا وغضبًا.. وسمعت سيلفيا تقول:

ـ فؤاد.. لا تحرق أعصابك فأنت مقبل على عمل هام يجب أن تستعد بذهن صاف.

ـ نعم.. صدقت أيتها الملعونة. وضممتها مداعبًا خصلات شعرها الذهبي الناعم وقبلتها قبلة نارية طويلة وقلت:

ـ متى سنلتقي بهم في بون؟

لم ترد عليّ فقد استغرقت قبلتها المجنونة وقتًا طويلاً.. ثم انتصبت فجأة وأخذت تضرب صدري بيديها وتصيح:

ـ من أي أرض أنت أيها الوحش؟

كانت حرارتها قد ازدادت اشتعالاً.. وتعمدت أن تغرقني في مستنقع الجنس ولا أفيق من خمره أبدًا.. أنوثتها أسبغت عليها الخبرة أنوثة أقوى. وبعد أن استرحنا قليلاً أدارت قرص التليفون وتحدثت مع هارون.. فلم أستطع فهم حوارهما حتى انتبهت إليها تقول:

ـ ميعادنا الثامنة مساء اليوم في بون.

نظرت في ساعة يدي وقلت: ٧٥ كيلو مترًا يقطعها الباص في ساعة تقريبًا حتى بون يجب أن نصل باكرًا. أريد شراء ملابس جيدة من محلات غونتر الشهيرة.

إستسلمت لمصيري.. وأغمضت عيني عن المخاطر التي تحدق بي.. فقد كنت كالتائه في الصحراء أكاد أموت عطشًا لو لم أنبش الأرض بأظافري لأشرب. وأخذت سيلفيا تستقيني جرعة زائدة من الثقة في نفسي.. وتؤكد على أنني حر ولا سلطان لأحد علي إلا المال الذي سوف يتدفق من حيث لا أدري. وتمادت في إيهامي بأنني شخصية مرموقة ومهمة حتى خيل إلي أنني رئيس الجمهورية العربية المتحدة. وبيدي حل أزمة الصراع العربي الإسرائيلي في الشرق الأوسط.

عندما ركبنا الباص في بون كان نهر الراين عن يساري ينساب رقراقًا متهاديًا تغطيه أحيانًا أسراب من الطيور البيضاء.. وكانت الخضرة تمتد يمينًا ويسارًا إلى مساحات شاسعة.. فتبدو كبساط رائع تتخلله ألوان الزهور الزاهية في الربيع. وتظهر البيوت الريفية وسط الحقول بشكلها الجميل يبعث شعورًا بالبهجة والهدوء..

تذكرت النيل وأرض الدلتا تزهو به وترفل في أثواب بديعة من ألوان شتى. وتذكرت الريف الفقير في بلدي وقلت في نفسي إن الفارق الكبير بينه وبين الريف الألماني الذي لا يقارن يعود في الأصل - كما قال هاوزن - إلى حالة الحرب التي سيطرت على مصر. ولولا الحروب لكانت أجمل بقاع الأرض.

هذا الأمر جعلني لا أنبذ فكرة الاتصال باليهود أو التعاون معهم.. إذ صور لي خيالي أنني قد أساهم في خلق مجتمع أفضل في وطني. اعتقدت أيضًا أنني صاحب رسالة يجب أن أؤديها. ولم أقنع عقلي أنني بالتعاون مع الإسرائيليين صرت جاسوسًا لهم على أهلي ووطني. ولكن.. تغيرت المفاهيم تمامًا بعد زيارتي لسفارة إسرائيل!!.

في غرفة رائعة بفندق ماجستيك.. استبدلت ملابسي وتهيأت للقاء المرتقب.. وعند الباب الرئيسي كانت تقف بانتظارنا سيارة أوبل حديثة بجانبها شاب مهذب فتح الباب

الخلفي فركبت بجوار سيلفيا وساقاي ترتعشان في قلق لا إرادي.. واخترقت السيارة شوارع بون تحملني إلى المجهول. وعندما وقفت أمام مبنى سفارة إسرائيل يعلوها العلم الأبيض ذو النجمة السداسية الزرقاء ـ نجمة داود ـ تسمرت قدماي واقشعر بدني كله.. فجذبتني سيلفيا إلى الداخل وهي تصيح في دلال:

ـ هه.. حبيبي.. ماذا جرى لك؟

فمشيت وراءها كالمنوَّم..

ـ وفي الطابق الثاني من السفارة.. استقبلتنا فتاة بشوش أزالت ابتسامتها بعض الرعب الذي جثم على صدري.. وقادتنا إلى غرفة تقع في نهاية ممر طويل.

كانت غرفة مكتب لا أحد بها.. وعلى الجدار كانت هناك صورة لسيدة عجوز وأخرى لرجل لم يعجبني منظره. لقد كانت العجوز تبتسم في خبث بينما هو يزم شفتيه في تحد وشماتة.

خرجت الفتاة ووضعت سيلفيا ساقًا فوق ساق فأظهرت ثلثي فخذيها وقالت بعدما أشعلت سيجارتها:

ـ فؤاد.. الأمر ليس سيئًا إلى هذا الحد.. تبدو كأنك تغرق.

ـ أنا؟..

نطقتها وكنت في الحقيقة أرتجف بشدة وتصطك أسناني في اضطراب.. ويبدو أن سيلفيا أرادت تهدئتي فقالت بصوت محبب مريح:

ـ بإمكانك أن تتصرف الآن.. لن يمنعك أحد.

ـ تفضل.. مستر فؤاد.

هكذا نطقت باسمي الفتاة التي استقبلتنا وقد دخلت وبين يديها صينية تحمل أطباق الحلوى وأكواب الشاي.. وفي أثرها دخل رجل أسمر شرقي الملامح وبعربية فصيحة صاح كأنه يعرفني منذ أمد:

- أهلاً أهلاً فؤاد.. كيف حالك؟

صافحني بحرارة وهو يقول:

- أنا مصري مثلك.. إسكندراني.. واسمي إبراهيم يعقوب.. أرجو أن تعتبر نفسك في بيتك هنا.

تمتمت ببضع كلمات غير مفهومة فابتسم ورمق سيلفيا بنظرة سريعة فقامت على الفور وقالت لي:

- سأعود حالاً.

وبينما كان يعدّ ويرتب بعض أوراقه كنت أفرقع أصابعي وبدأ التوتر جليًا على وجهي. ولم يتركني إبراهيم كثيرًا إذا التفت إليّ كليّة وقال:

- حدثني عنك هاوزن كثيرًا. أما سيلفيا فقالت عنك القصائد.

ثم أضاف:

- ماذا كنت تعمل في كولون؟

- في مصنع راينهارد للدهانات.

- كم كان راتبك تقريبًا؟

- كنت أوفر ألف مارك من بقية راتبي.

- أتريد أن نلف وندور أم نتحدث صراحة حتى نختصر المسافة والوقت؟

- أنا لا أفهم شيئًا.

- فؤاد.. أنت شاب ذكي وتعرف كيف تستغل المواقف لصالحك. وأنا أعرف أنك تمر بظروف سيئة في مصر وهنا أيضًا. هاوزن قال لي صراحة إنك مغامر عنيد.. رفضت العمل معه في تهريب السلع إلى ألمانيا الشرقية لأنك أردت عملاً أهم وأكبر.. وبالتالي عائدًا ماديًّا يتناسب وأحلامك وطموحاتك. أليست هذه حقيقة؟

- بلى.

- إذن.. عليك أن تعلم جيدًا أنه برغم التوتر في الشرق الأوسط والصراع المرير ما بين إسرائيل والدول العربية.. فليس معنى وجودك هنا أننا نريدك جاسوسًا.. لا.. نحن لا نريدك أن تخون بلدك.. فأنا شخصيًّا لا أريد أن أتعامل مع الخونة.. ويبدو أنّ هاوزن كذب عليك كثيرًا عندما أكد على أنك قد تكسب نصف مليون مارك بتعاملك معنا.. نعم.. كذب هاوزن فهذا مبلغ تافه.. ولأنك مغامر تبحث عن المال والمجد.. فقد تكسب مليون مارك في لحظة خاطفة.. إن النقود ليست بذات قيمة عندنا. نحن فقط نحب المجتهدين.. ونعطي بسخاء وبدون حساب إذا ما تأكد لدينا أنك مخلص في تعاونك معنا.

قلت له وأنا أتلعثم ولا أستطيع جمع شتات فكري:

- أنا مستعد للتعاون معكم على ألا أصاب بضرر أو..

- لا.. لا.. لن يؤدي ذلك إلى إلحاق ضرر بك.. مطلقًا.. نحن نريدك صديقًا ونسعى وبشدة للمحافظة علىأصدقائنا في أي موقع وفي أي مكان.

قلت وقد تجرأت لفتح مجالات حوار مختلفة:

- ماذا إذن تريدون مني؟

- نريد أن نتعرف عليك أكثر.

ولعدة ساعات سألني إبراهيم عشرات الأسئلة عن أهلي وأقاربي وأصدقائي.. وعن الإسكندرية والحي الذي أسكن به. وسلمني ملفًا به عدة ورقات طلب مني أن أكتب سجل حياتي وأجيب عن الأسئلة المكتوبة باللغة العربية. وجاءني بخريطة كبيرة للإسكندرية علقها على الحائط وطلب مني أن أحدد موقع منزلي.. ثم علق خريطة أخرى لميناء الإسكندرية وطلب مني أن أحدد له بعض المواقع ففعلت.

خرجت من السفارة الإسرائيلية منهك القوى وكأنني كنت أحارب في معركة شرسة. كنت أبحث عن سريري لأرتمي عليه. وتوقعت أن أجد سيلفيا تنتظرني بالحجرة لكنها لم تكن موجودة. فاستغرقت في نوم طويل وأفقت في الصباح أنتظر اتصالاً من سيلفيا أو إبراهيم فلم يحدث.

لقد طلب مني إبراهيم أن أظل بالفندق ولا أغادر بون حتى يتصل بي.. ومرت علي خمسة أيام طويلة دون أن يتصل بي أحد. وكلما طلبت هاوزن في كولون لا أجده. وفجأة طرق الباب أحد موظفي الفندق وأخبرني أنه موظف بالحسابات.. وبدماثة خلق أخبرني أنني مدين للفندق بمبلغ ١,٦٠٠ مارك ويجب الإسراع في السداد.

إرتديت ملابسي وركبت السيارة إلى السفارة الإسرائيلية.. ولكن موظفة الاستعلامات أتتِ من الداخل وبيدها مظروف بداخله مائتا مارك وقالت إن إبراهيم في مهمة وسيعود خلال أيام.

وعدت إلى الفندق لأحصي المبلغ الذي أملكه فوجدته يقل عن الخمسمائة مارك.. وقلت في نفسي.. لا بد أن أتصرف وأسدد الفندق وإلا فستقبض علي الشرطة.

وتعجبت.. ذلك أن سيلفيا أكدت لي أنني لن أدفع حساب الفندق. فماذا حدث إذن؟ وأين سيلفيا هي الأخرى؟

إستلقيت على سريري أفكر في هذا المأزق وفي آلاف الماركات والدولارات التي وعدت بها.. واضطربت لسوء موقفي بسبب قلة النقود معي.. لكنني لازمت الفندق ولم أغادره انتظارًا لاتصال إبراهيم أو سيلفيا. وبعدما فقدت الأمل فيهما جاءتني مكالمة من السفارة الإسرائيلية تطلب مني أن أذهب إليها حالاً.

وهناك تعرفت على "أبو علمون" الذي اعتذر لسفر إبراهيم المفاجئ.. واصطحبني إلى غرفة بها صفوف من المقاعد.. ولمّا أطفأ الأنوار وأدار آلة عرض شاهدت أنواعًا مختلفة من الدبابات والمدرعات والسيارات المجنزرة. وشرع أبو علمون في تلقيني كيفية التمييز بينها وعندما سألته لماذا؟ أجابني بأن هذا هو صميم عملي الذي سيكون في ميناء الإسكندرية وسألني بحزم:

ـ ألست مغامرًا يبحث عن النقود؟

أجبت في ذعر:

ـ بلى..

ولكن.. قاطعني بحسم:

ـ نحن نريد أن نمنع الحرب بين مصر وإسرائيل. والشرق الأوسط الآن منطقة ملغومة وسوف ندفع لك مليون مارك ـ فورًا ـ إذا عرفنا بواسطتك أن مصر ستحارب.

ـ وكيف سأعرف؟

ـ من السهل جدًا أن تعرف ذلك.. فإن تدفّق الأسلحة من الاتحاد السوفياتي إلى مصر لدليل قوي على نية الحرب عند المصريين، كذلك حركة تنقلات وحدات الجيش

المصري.. وما عليك إلا أن تكون عينًا لنا وأذنًا. عينًا على ميناء الإسكندرية الذي يستقبل السفن المحملة بالأسلحة والمعدات.. وأذنًا لنا نسمع بها ما يدور سرًا في الجيش المصري..

كان جسدي يرتعش وحل اضطراب شديد بأعضائي.. الآن.. الآن فقط عرفت مهمتي بالضبط.

إستغرق أبو علمون في الحديث الذي كان "يطعمه" بالإغراءات المادية.. وبالخير الذي سينصب فوق رأسي بتعاوني معهم.. ويتعمد أن يذكرني كل لحظة بظروفي المعيشية الصعبة.. وبأنني لست في محطة باص ولكن في سفارة إسرائيل.

.. كانت نبرة التهديد واضحة ومخيفة تحمل خلفها الموت والدمار.. وتعقبها نبرة مغلفة بالوعود البراقة.. فحوصرت.. ورفعت الراية البيضاء في النهاية.. دون أن أحسب حسابًا لمصير أسود ينتظرني.. فقد ملئت ثقة بأنني في مأمن كامل معهم.

أعاد أبو علمون تشغيل آلة العرض الـ ١٦ ملم.. وأخذ يشرح لي الكثير عن الأسلحة المختلفة والمعدات العسكرية.. وبقيت طوال اليوم في السفارة الإسرائيلية أتدرب على تحديد أنواع المعدات وأطرزتها.

وعندما عدت إلى الفندق ـ قامت "كاتيا" التي رافقتني من السفارة، بدفع المتأخرات. وصعدت معي إلى غرفتي وقالت لي أنها ستصحبني إلى سهرة خاصة ستعجبني.

أبدلت ملابسي وخرجت معها تقود سيارتها وهي تغني أغنية لأم كلثوم فصرخت بها: أنت فلسطينية؟

نظرت إلي ثم استمرت تردد مقاطع الأغنية وتخترق شوارع بون.. حتى وصلنا إلى شارع تصطف على رصيفيه أشجار البونسيانا التي تغطيها الزهور الوردية البديعة وقالت كاتيا:

- أنا مغربية من كازا بلانكا وأضافت قبلما نغادر السيارة:

- ستقضي هنا سهرة العمر..

دلفنا إلى فيلا من طبقتين بلا حراسة.. وعندما اجتزنا الحديقة سمعت ضحكات نسائية تدور وانفتح الباب عن رجال ونساء لا أعرفهم ولا يعرفونني.. لكن بعضهم أومأ تحية لكاتيا.. وبعد دقائق جاءتني زجاجات الخمور أنتقي منها ما أريد.. ودارت عجلة المجون وصاح البعض في اندهاش وهم يرون فتاة صغيرة شقراء.. لا تتعدى التاسعة عشرة.. ترقص وتخلع ملابسها قطعة.. وراء قطعة...

عدت إلى حجرتي لأستعد للقاء المرتقب مع إبراهيم فأخبرتني كاتيا أنني سأنتقل إلى إحدى الشقق لاستكمال الدورة المكثفة، وفي الشقة الجديدة على أطراف المدينة جاء إبراهيم.. وبدأ امتحانه لي بأن أطلعني على صور لبعض المعدات وطلب مني التمييز بينها.. ودربني على ذلك كثيرًا، ثم أفاض في شرح كيفية اصطياد المعلومات العسكرية.

وفي شبه معسكر مغلق أقمت في الشقة مع كاتيا.. معظم النهار في دورات تدريبية مكثفة.. أما الليل فهو ملك كاتيا نمضيه معًا...

بعد أسبوعين تقريبًا كنت تعلمت الكثير، ودُربت على كيفية الحصول على ما أريد من معلومات من العسكريين. وتعلمت الكتابة على الورق المشبع بالمواد الكيماوية وذلك بكتابة خطاب عادي.. ثم أستخدم الكربون المعد للكتابة السرية لأكتب الرسالة المطلوبة بين السطور.. ثم أمرر الرسالة على بخار براد الشاي لثلاث دقائق.. فتتلاشى آثار الضغط ويصبح شكلها كالرسالة العادية بعد وضعها بين صفحات كتاب كبير لعدة دقائق.

كانت هذه هي طريقة الكتابة التي دربت عليها وأجدتها عدة مرات. وهكذا أصبحت جاسوسًا لإسرائيل دون أن أقاوم.. أو أسعى في محاولة لأن أقاوم. ولم أستطع أن أتراجع. فلقد أغرقوني بالنقود والخمر والنساء الفاتنات.. وأحاطوني بكل الإغراءات فسقطت ولم أفق.

لكن بعد عدة أيام.. وفي أواخر سبتمبر ١٩٧٠.. حدثت كارثة زلزلتني.. إذ شاهدت في التلفزيون مشاهد عن مصر. وعندما دققت كثيرًا ـ عرفت أن جمال عبد الناصر قد مات..

صرخت دون وعي.. وجاءت كاتيا مسرعة من الحمام وأغلقت التلفزيون وعندما قفزت لأفتحه وأنا ألعنها حاولت منعي. فلم أشعر إلا ويدي تنهال ضربًا على وجهها.. وظللت أضربها وهي تصرخ.. ولما اشتد ضربي لها فتحت باب الشقة وخرجت هاربة من جنوني.. وبعد نصف الساعة فوجئت بإبراهيم أمامي.. يصوب مسدسه نحوي ومن خلفه كان هناك اثنان لا أعرفهما.. يحملان رشاشات "عوزي" الأوتوماتيكية. وكان الغضب يطفح على وجوههم جميعًا.. وأدركت أنها لحظة النهاية..!!

كنت منكفئًا على وجهي أبكي بصوت مرتفع.. تحاصرني انفعالات شتى وأنا أتخيل مدى حقارتي ووضاعتي. وامتدت نحوي يد إبراهيم ـ ضابط المخابرات الإسرائيلي ـ في محاولة لتهدئتي.. فصرخت في وجهه أن يدعني وشأني. وانفجرت باكيًا كأنما أبكي أبي. وملأني شعور غريب.. شعور بالضعف والانكسار والوحدة. واجتاحني إحساس بالضياع. وقال إبراهيم:

ـ نحن نقدّر أحزانك.. لقد كان ناصر عظيمًا..

وأردف بفخر:

- هناك اتصالات دولية لإرسال وفد إسرائيلي للتعزية.. إنه زعيم عربي لن تنجب مصر مثله.. لقد استشهد وهو يكافح لاحتواء أزمة الفلسطينيين في الأردن..

علا بكائي ولم أستطع كتمان موجات الشجن وسمعت إبراهيم يقول في التليفون:

- أرسلوا "هيمبل" حالاً ومعه أدواته.

- ....

بفضل ذلك.. وعلى وجه السرعة. إنها ستساعدنا كثيرًا.

دقائق وجاء الدكتور هيمبل.. نظر في وجهي سريعًا وهو يضع حقيبته على السرير.. وفتحها باهتمام وأخرج سماعته الطبية.. ولما اقترب مني دفعته بقوة فسقط على الأرض وحاولت الهرب من الحجرة.. لكن إبراهيم وحارسيه كانوا قد تمكنوا مني.. وأسرع هيمبل وملأ السرنغة بسائل أصفر.. وبينما كنت أصرخ وأحاول الإفلات كانوا يشلون حركتي.. وحقنني هيمبل في الوريد ورأيت بعدها خيالات أشباح تلف حولي...

عندما أفقت لمحت وجهها الجميل يبتسم. ويدها الرقيقة تداعب صدري فلم أكن أتصور أنها هي بلحمها وشحمها وعندما نطقت باسمها صاحت وهي تحتضنني:

- حبيبي.. حبيبي..!!

نظرت حولي فلم أجد سواها.. ورمقتها بنظرة عتاب فقبلتني قبلة سريعة ملأى بالحنان وقالت:

- جئت لأجلك حالاً من إسرائيل.. ولن أتركك وحدك أبدًا.

احتوتني سيلفيا بحنانها.. ومهدت الطريق لأبو علمون الذي جاءني منتفخ الأوداج يبدو كديك شركسي.. وبعد أن جلس قليلاً ربت على كتفي وقال:

- فؤاد.. بوفاة ناصر سنكون أكثر احتياجًا إليك.. فالأمور في مصر غير واضحة الآن. لقد كنا نعرف قدرات ناصر جيدًا ولكن بمجيء آخر.. ستكون هناك شكوك في نياته.. وعلى ذلك فاحتمالات الحرب مع مصر قائمة. وعلينا أن نتعاون معًا لنحبط الصدام المسلح ونعمل على إفشاله.

وبعد انصراف أبو علمون جاء إبراهيم بخطوة الواثق وقال لي:

- إنها فرصة العمر بالنسبة إليك.. ويجب أن تنتهزها وإلا ضاعت منك إلى الأبد.. إنها لحظة رائعة يا فؤاد عندما نخبرك أنك حصلت على مليون مارك ألماني.. ولا بد أن تتحرك فهناك من ينتظر هذه الفرصة التي منحناها لك.

وقبل أن ينصرف ناولني مظروفًا بداخله ألفا مارك.

كانت سيلفيا - عميلة الموساد - لا تكف عن ترديد حكايات عجيبة عن المخابرات الإسرائيلية تكاد تكون أساطير من نسج الخيال. وكيف تحمي الموساد رجالها وعملاءها في كل أرجاء المعمورة.

ولم تمر سوى أربعة أيام وعاد إبراهيم ليكمل الدورة التدريبية.. وجرى تدريبي على استعمال الشيفرة بالراديو.. وكان علي أن أستقبل إشارات معينة على إحدى الموجات فأقوم بمطابقتها على كتاب الشيفرة. وسلمني أيضًا جهاز راديو خاص وقمت بحل التمارين عدة مرات.. حتى تأكد نجاحي تمامًا في استقبال الرسائل وترجمتها.

بعد ذلك دربني على استعمال الميكروفيلم في تلقي المعلومات أو إرسالها. فضابط المخابرات يكتب أوامره على صفحة فولسكاب.. ثم يقوم بتصغيرها عدة مرات حتى تصل إلى حجم رأس الدبّوس. وعندما أتسلمها فورًا أقوم بتكبيرها إلى حجمها الأصلي وقراءة الأوامر.. وإرسال المعلومات إلى مكاتب وفروع الموساد في العواصم الأوروبية بذات الأسلوب.

وبعد عدة أيام لازمني خلالها إبراهيم معظم ساعات النهار استطاع أن يشرح أساليب التخفي والتمويه والهرب من المراقبة وإخفاء أدوات التجسس.. وكذلك طُرق "جلْب" المعلومات من المصادر العسكرية.. وتتبع حركة تنقلات وحدات الجيش.. وكان الأهم.. مراقبة ميناء الإسكندرية حيث تتدفق من خلاله الأسلحة السوفياتية والشرقية إلى مصر.. خاصة بعدما حصلت على دورة سابقة في التمييز بين أنواع الأسلحة والمعدات.

وبعد هذا النجاح المثير أعاد إبراهيم حكاية المليون مارك.. ثم وعدني بـ ٥٠ ألف دولار أميركي إذا أفشيت سر أيّ عميل للمخابرات المصرية داخل إسرائيل ويقبض عليه فعلاً. وعندما استفسرت عن هذا الأمر وقلت لإبراهيم:

- كيف لي أن أعرف جواسيس مصر في إسرائيل؟

أجابني بثقة زائدة:

- من خلال معارفك الذين لهم علاقات بأفراد من القوات المسلحة.. أو من ضباط الجيش أنفسهم. فالمصري دائمًا يتباهى بأنه يحمل معلومات خطيرة مما يعطي انطباعًا بأهميته.

فقلت له على الفور:

- مستحيل أن تصل الدردشة العادية لدرجة البوح بأسرار كهذه.

- سأقوم بتعليمك كيفية إدارة الحوار مع أشخاص مهمين.. وعليك أن تسعى لخلق صداقات جديدة مع أشخاص في مواقع حساسة للحصول منهم على معلومات. أيّ معلومات لا بد أن تكتبها لنا. وعليك أن تفهم جيدًا أن هؤلاء الذين يشغلون مناصب مهمة لديهم اتصالات بآخرين في مواقع أهم. وأثناء جلسات اللهو والمرح.. "يتفضفض"

كل واحد بما لديه من معلومات وأسرار.. وتصبح أدق المعلومات العسكرية مادة سهلة التداول، وعليك حينئذ أن تدير الحوار ببراعة.. كما سأعلمك استخلاص ما هو أكثر مما قيل.

وفي دورة أخيرة لإدارة حوار مع شخصية مهمة.. أخذ إبراهيم يعلمني كيف أثير الطرف الآخر وأجعله ينطق ويبوح بكل ما هو سر لديه.. وذلك بعدة طرق منها أن أذكر له معلومات خاطئة فيصححها لي.. وإذا كان ضابطًا في الجيش.. أتعمد تذكيره بهزيمة الجيش أمام حفنة من جنود إسرائيل.. فيندفع ثائرًا ويقول ما عنده من أسرار الاستحكامات والتدريبات.. والأسلحة الحديثة التي وصلت ويتدربون عليها.. وأيضًا دور الخبراء السوفيات في إدارة بعض النواحي الفنية في الجيش المصري.

وفي النهاية ـ طمأنني ضابط المخابرات الإسرائيلي أنني أصبحت جاهزًا للعمل في مصر بما لدي من خبرة ودراية كبيرتين بعد هذه الدورات التدريبية المكثفة. وأخبرني بأن راتبي الشهري ابتداء من الآن هو ٣٠٠ دولار أميركي عدا المبالغ الأخرى التي ستخصص لي بعد كل خطاب أرسله إليهم به معلومات مفيدة. وقال إبراهيم أن بإمكاني الحصول على ألف دولار شهريًا ـ بخلاف الراتب... وهذا يتوقف على أهمية المعلومات التي أرسلها لهم "مع العلم أن مرتب الموظف خريج الجامعة كان لا يزيد عن ١٨ جنيهًا". وطلب مني الاستعداد للعودة إلى مصر.. وإيهام أهلي وأصحابي بأنني كنت أعمل في تجارة السيارات في ألمانيا.. حتى لا تثير النقود الكثيرة التي معي أيَّ شبهة.

وقبل أن يتركني لقضاء عدة أيام مع سيلفيا قبل سفري إلى مصر.. منحني ألف مارك وأعدّت سيلفيا برنامج رحلة ممتعة إلى الجنوب الألماني حيث بحيرة كونستانس الواقعة على الحدود مع سويسرا والنمسا.. وأمضينا عدة أيام في "فريدر كسهافن"

وتجولنا حتى وصلنا إلى حيث انتهى نهر الدانوب الشهير مرورًا بمدينة فريبورغ في الغابة السوداء. وفي شتوتغارت نزلنا بفندق "برات" واشتريت بعض الهدايا.. وركبت الطائرة مودعًا سيلفيا إلى روما ومن روما إلى القاهرة.

كان أفراد أسرتي في انتظاري والسعادة تملأ وجوههم وهم يرون أعداد الحقائب التي معي محملة بالهدايا.

وفي الإسكندرية كان أول ما خطر ببالي الاتصال بنوسة.. فذهبت سريعًا إلى صديقي حاتم ورجوته أن يطلعني على أخبارها.. وعندما تبين لي أنه لا يعرف أكثر مما ذكره لي في رسالته قررت نسيانها.. والعمل فورًا في ما جئت من أجله.

بدأت أبحث عن صداقات جديدة وأوطد علاقاتي ببعض الموظفين في ميناء الإسكندرية.. وكنت أسجل المعلومات التي أحصل عليها أولاً بأول وأرسلها في الحال إلى العنوان الذي طلبوا مني مكاتبتهم عليه في لندن "مستر طومبسون ص. ب ٣٢٩". وكانت رسائلي لا تحوي معلومات عسكرية فقط.. بل حوت أخبارًا اقتصادية عن رسو عدد السفن العملاقة تحمل بداخلها آلاف الأطنان من الحبوب أو السكر.

كانت حركة الميناء من وارد وصادر تقريبًا مرسلة إليهم في لندن.. وأصبح العمل بالنسبة لي بعد مرور عدة أشهر من أسهل ما يمكن. فعلاقاتي تعددت وتشعبت.. وأصبحت تجيئني المعلومات دون جهد يذكر من خلال الأحاديث العادية التي لم تكن تحمل ما يدل على اهتمامي.

وذات يوم في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٧١ جاءتني رسالة غريبة بواسطة الراديو.. كانت الرسالة تحمل تحذيرًا واضحًا.. ومخيفًا في ذات الوقت:

ـ "لا تقرأ في الصحف المصرية ـ مطلقًا ـ أيّ أخبار تتعلق بإلقاء القبض على جواسيس لإسرائيل. هذا أمر وعليك تنفيذه".

انزعجت كثيرًا لهذه الرسالة التي لفتت انتباهي وأثارت قلقي.. ودفعتني رغمًا عني لقراءة كل الصحف المصرية صباح كل يوم، حتى قرأت خبرًا عن سقوط جاسوس مصري يعمل لصالح إسرائيل.. فاضطربت حياتي وامتنعت عن الخروج من المنزل لعدة أيام.

كانت الرسالة تأتيني عن طريق الراديو - مكررة - حتى بعدما قرأت الخبر - فيحل الرعب بي وتهرب المغامرة.. وكانت أيّ أصوات أقدام تصعد السلم تصيب أطرافي بالشلل. فكتبت رسالة تحمل ما أشعر به وتترجم معاناتي.. وفوجئت بالرد يصلني سريعًا بالراديو يطلب مني السفر إلى لندن في أسرع وقت. وبينما كنت أعد حقيبتي.. دق جرس التليفون وكانت على الطرف الآخر.. نوسة!!

مرت ساعة واحدة وكنت أجلس في أحد أركان كافيتريا فندق فلسطين. وكان اللقاء مدهشًا.. وظل كفها الصغير بين كفي لفترة طويلة. وعندما همست باسمي طلبت منها ألا تتكلم.. أردت فقط أن أنظر لوجهها الذي حرمت منه لمدة عامين.. ومن داخلي كنت أرقص طربًا وأجري مقارنة سريعة بينها وبين سيلفيا وكريستينا وكاتيا وغيرهن.. إنها أجمل منهن جميعًا. بل تكفي ابتسامتها لتبدل مذاق حياتي وتضفي عليها البهجة.. إن مذاقها لعجيب.. عجيب والجنس معها له طعم ونكهة لا يوجدان في أية امرأة أخرى قط.

وفي آخر كانون الثاني - يناير ١٩٧٢ كنت في لندن.. وكان في استقبالي ضابط المخابرات الإسرائيلية المسؤول عني - إبراهيم يعقوب - وبصحبته ضابط آخر اسمه "بوب" في السفارة الإسرائيلية في لندن. وطلبا مني أن أهدأ وألا أتوتر لهذا الحد..

وقالا لي: إذا كانت الصحف المصرية نشرت أخبارًا عن إلقاء القبض على جاسوس يعمل لصالح الموساد.. فهذا ليس سوى دعاية مضادة.. وأسلوب تخويف

لجواسيسهم في مصر .. ومثل هذه الشائعات معروفة لديهم وأسلوب قديم تستخدمه أجهزة المخابرات كل مدة.

لم أهدأ رغم ما قالاه لي.. فرأى إبراهيم أن يوكل إلي عملاً آخر في لندن. وكان عملي منصبًا على التعرف إلى المصريين الموجودين في لندن أو القادمين الجدد.. لعلي أنجح في تجنيد أحدهم وأتقاضى مكافأة ضخمة.. ووجد إبراهيم أنني بحاجة إلى تمرين فأخذني إلى إحدى الشقق.. وجرى تدريبي على العمل الجديد في اصطياد مصري يصلح جاسوسًا لإسرائيل.

بعد دورة مكثفة من إبراهيم.. جاء بوب هو الآخر لتدريبي على كيفية العيش في لندن.. وتقصي أماكن تجمّع المصريين كالفنادق والمقاهي والمطاعم المختلفة. وكانت لندن حينئذ تستقبل مئات الشباب من مصر بدعوى الدراسة أو السياحة أو العلاج.

وفشلت في مهمتي.. فظروف النكسة كانت مختلفة وغالبية المصريين الذين يسافرون إلى لندن كانوا على درجة من الوعي والثقة في النظام السياسي الجديد.. خاصة بعد تصفية مراكز القوى وانشغال الرأي العام بوعود الرئيس السادات. ولكن في مصر كانت مساحة الوعي السياسي تختلف.

أدرك بوب بحاسته كضابط مخابرات أنني لم أنجح في لندن. ولأنني أيضًا أدركت ذلك بعد أن فشلت كل محاولاتي في الإيقاع بمصري واحد.. فقد عرضت على بوب أن أسافر إلى مصر .فالمجال هناك أفضل بالنسبة لي. وبعد عدة أيام وصل إبراهيم من بون ووافق دون تردد على عودتي إلى مصر.. وأعطاني راتبي المتراكم بخلاف مكافآتي وكانت ٤,٥٠٠ دولار.

ولكني بعدما عرفت قيمتي لديهم.. وبأن الموساد لا تبخل على جواسيسها.. اعترضت قائلاً إن المكافأة هزيلة جدًا. وأن قيمة المعلومات التي قمت

بإرسالها تزيد عن هذا المبلغ كثيرًا. ووصفني إبراهيم بأنني أصبحت لحوحًا.. فطلبت منه زيادة المبلغ إلى ٧,٠٠٠ دولار.. وإضافة مبلغ آخر قدره ٥,٠٠٠ دولار كمقدم إيجار شقة أستطيع من خلالها أن أمارس عملي في التجسس بحرية.. وكان لي ما أردت.

عدت إلى الإسكندرية بأكثر من ١٩,٠٠٠ دولار.. مبلغ كبير لا شك في ذلك. واستأجرت شقة في شارع خالد بن الوليد في ميامي. وقررت أن استغل نشاطي التجسسي لجمع أكبر عائد مادي ممكن.

لقد عشت حياتي السابقة محرومًا تلسعني رغبة الاحتياج والعوز.. لذلك.. كنت أضع تقييمًا لكل معلومة أرسلها إليهم وأحسب مستحقاتي وأغالي في الثمن. ثمن أعصابي التي تحترق كل لحظة.. وعمري الذي أضعه رهن أتفه معلومة أدونها..

استمرأت طعم الخيانة شيئًا فشيئًا.. وبعدما بعت أمن وطني وأهلي، لم أجد غضاضة في أن أخون رجلاً آخر لا أعرفه.. لكنه امتلك ما عجزت عن امتلاكه.. فإنني الآن أصبحت قادرًا على امتلاك أشياء ليست في حوزتي وأهمها نوسة.. التي جاءتني جريًا تفند لي أسباب زواجها.. فلم أهتم!!. لقد عانقتني في شقة ميامي بمجرد أن فتحت حقيبة هداياها العامرة. وبعد دقائق.. فتحت باب حجرة النوم ونادتني من الداخل.. وعندما دخلت عليها كانت بلا شيء.. أي شيء.. بلا حياء أو خوف أو.. ملابس.. إنها أيضًا تدفع الثمن مثلي تمامًا. لا.. إنها تخون زوجها أما أنا.. فأخون وطني كله..!!

تحولت الشقة إلى وكر للخيانة.. وللملذات، خمر.. وحشيش.. ونساء ساقطات.. ورجال ربطتني بهم صداقات مفتعلة. وعندما كان ينشط مفعول الخمر والنساء.. لا تدري العقول ماذا تقول!!.

هكذا كانت الأيام تجري سريعًا.. والمعلومات تتدفق في سلاسة.. والثمن أقبضه أنا كما أريد.. وبالسعر الذي أحدده!!

في تلك الأثناء.. لم تكن المخابرات المصرية غافلة عما يحدث في شقة ميامي التي ذاع صيتها.. وفاحت منها رائحة الخيانة تعلن عن الجرم صراحة.

واختارت المخابرات المصرية أحد مرشديها الذي يعمل موظفًا بشركة الملاحة البحرية - واسمه ممدوح - ليقتحم هذا الوكر ويرصد ما به. فكان ينقل مشاهداته إلى العميد حسن واصف - المسؤول عن مكتب المخابرات في الإسكندرية - وفي نفس الوقت وضع تليفون فؤاد تحت المراقبة.. وبذلك أصبح الجاسوس تحت سيطرة جهاز المخابرات وتحركاته مرصودة تمامًا دون أن يعرف.

ويكمل الجاسوس سرد قصة الإيقاع به قائلاً:

- جاءتني بطريق الراديو رسالة تطلب مني السفر إلى روما لمقابلة دانيال.. وهو ضابط المخابرات الإسرائيلي في السفارة الإسرائيلية هناك.. وبالفعل.. أعددت الكثير من التقارير والمعلومات التي حصلت عليها وسافرت بها إلى روما.. وكان اللقاء مثيرًا للغاية.. إذ كان الضابط سخيًا جدًا ومنحني ما طلبته من مقابل بل وزاد عليه ألفًا وخمسمائة دولار.. وعدت إلى مصر بالثروة التي حصلت عليها مقابل بضع معلومات استقيتها من أفواه "المساطيل" وأشتريها أحيانًا بالهدايا.

وبعد عودتي بحوالي أسبوع واحد.. كانت نوسة عندي بالشقة تتسلم هداياها وتسلمني جسدها الرائع، فنمت مرهقًا بعدما سجلت بعض المعلومات التي وصلتني على ورقة وضعتها بجانب السرير ولم أقم بكتابتها بالطريقة السرية التي دربت عليها.

وعند الفجر.. دق جرس الباب دقات خفيفة فظننتني أحلم. واستيقظت فجأة على يد تهزني فشلني الذعر.. لأجد الحجرة كلها قد زرعت برجال لا أعرفهم.

تناول أحدهم الورقة المسودّة وفتشوا الشقة جيدًا.. وعثروا على كل الأدلة والأدوات التي تؤكد أنني جاسوس.. خائن.

إصطحبوني إلى القاهرة وأخضعت لتحقيق مطول لعدة أيام.. واكتشفت كم كنت واهمًا.. فتصرفاتي كلها كانت مكشوفة.. وحركاتي مرصودة.. وخطاباتي مقروءة.. حتى زيارتي إلى روما ولقاءاتي كانت بالصوت والصورة لدى المخابرات المصرية.

إعترفت في الحال بكل شيء دون إكراه.. فالأدلة كانت كلها ضدي ولا تترك لي المجال لكي أنكر.. ووجهت إلى النيابة العسكرية اتهاماتها الآتية:

- السعي لدى دولة معادية "إسرائيل" لمعاونتها في عملياتها الحربية.

- الحصول على مقابل مادي بقصد ارتكاب عمل ضار بالمصلحة القومية وهو إفشاء أسرار البلاد.

- الحصول على أسرار الدفاع عن البلاد وتسليمها لدولة أجنبية معادية وهي إسرائيل.

لقد اعترفت بكل شيء وبرغم الاحتقار الذي أشعر به تجاه نفسي.. إلا أنني أعترف صراحة بأن حبي لتلك المومس - نوسة - هو الذي دفعني للخيانة.. خيانة وطني!!

إنتهت مذكرات الجاسوس فؤاد حمودة.. ولكن. ماذا حدث له بعد ذلك؟

تشكلت محكمة عسكرية عليا لمحاكمته. وبعد عدة جلسات أصدرت حكمها بإعدامه شنقًا.. وصدّق رئيس الجمهورية على الحكم وأحيل للتنفيذ في سجن الاستئناف بالقاهرة.

وفي صباح السابع عشر من كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٣.. كان يوم تنفيذ الحكم.. حيث سيق المتهم إلى غرفة الشنق.. يجرجره جنديان.. ويصرخ قائلاً: أنا بريء.. بريء.. ثم يصرخ ثانية: إعدموها معايا.. اعدموا نوسة.. اعدموها.

"وقف إمام السجن ومأمور التنفيذ وعشماوي في انتظار وصول الخائن من زنزانته.. ولكن محاميه اقتحم المكان فجأة.. وبيده وثيقة رسمية تفيد أن موكله "مجنون" وهو غير مسؤول عن تصرفاته.. ويطالب بعدم تنفيذ الحكم كما ينص القانون. وبهذه الحيلة.. أفلت الخائن من الإعدام لمدة أسبوعين فقط.. فقد رفضت المحكمة الاستشكال القانوني الذي تقدم به المحامي.. وسيق المتهم مرة ثانية إلى غرفة الإعدام حيث أعدت المشنقة لاستقباله. وقام مأمور التنفيذ العميد بدر الدين الماحي بسؤاله عن آخر طلب له في حياته.. فطلب سيجارة.. وأشعلها له المأمور وحبل المشنقة حول عنقه. وبعد أن سحب النفس الخامس.. انفتحت فجأة طاقة جهنم تحت قدميه. وتدلى جسده العفن الذي تبرأ منه أهله[1].

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٢٧ ـ ٥٨.

فَايز عَبدالله المَطري

ولد فايز عبدالله المطري في العريش سنة ١٩٤٦. إستطاعت المخابرات الإسرائيلية تجنيده للتجسّس على مصر بعد أن جمعت عنه ما يلزمها من معلومات، واتّضح للموساد بأنّ لديه استعداد فطريّ للخيانة.

بدأ المطري عملية تلقّي الدروس في التجسّس بالكتابة بالحبر السرّي والكربون السرّي، وفي كيفيّة التعرّف على الأسلحة الموجودة في مصر وتمييزها، وفي استقبال الرسائل عن طريق الراديو، واستخدام شيفرة المخابرات الإسرائيليّة لحل البرقيّات. وكانت المخابرات المصريّة تراقبه منذ أن بدأ في التدرّب. وقامت بتصوير جميع الرسائل التي كان يرسلها من مصر لألمانيا الغربيّة. وعندما استقرّ رأي المخابرات المصريّة على أنّ خطره بدأ يزداد بانخراطه في المجتمع وحصوله على معلومات تضرّ بالمصلحة العامّة والأمن العسكريّ، قامت باعتقاله وقدّم لمحاكمة عسكريّة[1].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسية، ص٢٧٣.

إبراهيم شاهين وعائلته

كان إبراهيم شاهين من المهجّرين من سيناء. وكانت محافظة سيناء تمنحه مساعدة ماليّة باعتباره من ضحايا العدوان الإسرائيليّ. غير أنّ المخابرات الإسرائيليّة تمكّنت من تجنيده مستغلّة حاجته للمال. وقد وافق شاهين على الخيانة، واستوعب التدريب الذي يعدّ للعملاء الجدد. وكانت زوجته تشاركه الخيانة، وكان دورهما استخدام المهارة والذكاء في جمع المعلومات وتصنيفها وإرسالها إلى الموساد، وقد حقّقا نجاحًا وإنتاجًا وفيرًا وخاصة في خلال حرب الاستنزاف. وما لبثا أن قاما بتوسيع نشاطهما الخيانيّ بإدخال ولديهما "نبيل" و"محمّد" معهما، حيث أوكلا إليهما بعض أساليب التقاط المعلومات. وبذلك أصبحت العائلة بكاملها متورّطة في التجسّس والخيانة. وإشباعًا لرغبتيهما وتشجيعًا لهما، فقد تمّ منح الجاسوس رتبة مقدّم في جيش الدفاع الإسرائيليّ، ومنح زوجته رتبة ملازم أول. وقد قاما بتصوير مئات الصور وجمعا عشرات التقارير والرسائل ومدّا الموساد بالجديد والمفيد من المعلومات.

فشلت عائلة الجواسيس في معرفة أيّ دليل يشير إلى أنّ مصر وسوريا سيدخلان الحرب ضد إسرائيل في ٦ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٣، وقد كشفت المخابرات المصريّة عائلة الجواسيس وقدّمتها للمحاكمة، فتمّ تنفيذ حكمَي الإعدام في الجاسوس إبراهيم شاهين وزوجته الجاسوسة "إنشراح علي موسى"، وحُكم بالسجن خمس سنوات على كلّ من ابنيهما نبيل ومحمّد[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤.

مُحَمد عمَر حمُّودة

في أوّل فُرصة أُتيحت له، توجّه محمّد عمر حمّودة من القاهرة إلى اسطنبول، حيث اتّصل بالقنصليّة الإسرائيليّة فيها عارضًا خدماته، فاستقبله معاون الملحق العسكريّ الإسرائيليّ والمسؤول عن التجسّس والمخابرات في القنصليّة الذي كان يعمل تحت الإسم المستعار: النقيب "سامي".

وهناك، تباحث حمّودة مع المسؤول الإسرائيليّ ما يمكن أن يقدّمه الأوّل من خدمات، فطُلب منه إملاء استمارة معدّة عن حياته وسيرته، حتّى لحظة المقابلة، ثمّ كتابة ما يعرفه، بصورة عامّة، ليكون اختبارًا له، ففعل، وقدّم لهم الاستمارة وفيها كلّ شيء عن حياته ممّا لم يعرفه عنه حتّى ذووه، ومن ثمّ قدّم لهم "التقرير رقم ١"، المؤلّف من ستّ صفحات كتب فيها كلّ ما يعرفه عن وطنه، وعن المقاومة... وبعد اطّلاع النقيب سامي على "البضاعة"، أعجبته لما حوت من دقائق الأسرار، فقام بدفع حساب الفندق عنه باعتباره فندقًا شعبيًّا، ونقله إلى فندق درجة أولى، وحجز له فيه جناحًا خاصًّا، وأخذ يتردّد عليه يوميًّا فيدرّبه على أعمال التجسّس، ونجح حمّودة نجاحًا باهرًا لم ينجحه في مدرسته...

كُلّف حمّودة بالسفر إلى لبنان وبجمع المعلومات عن الفدائيّين الفلسطينيّين بشكل عامّ، بعد أن مُنح مبلغ ٣٠٠ دولار كمصاريف سفر، وسدّدت عنه المخابرات الإسرائيليّة جميع فواتير الفندق والمطعم والمكوى...

في بيروت، قدّم نفسه إلى مندوب إحدى المنظّمات الفلسطينيّة.

وهذا المندوب قدّمه إلى قائد المنظّمة عارضًا خدماته، فقُبل وجرى تدريبه في معسكر تابع للمنظّمة لمدّة شهر، اعتُبر بعدها "فدائيًا".

أخذ حمّودة يقوم بمهامّه، فنفّذ بعض العمليّات البسيطة للتضليل، ما أتاح له التنقّل بين مواقع الفدائيّين، ثمّ معرفة أغلب قادتهم ومنازلهم... وكان كلّما خلا إلى نفسه، يقوم بكتابة ما شاهده وسمعه... ويرسم المخطّطات التي مرّ بها، كما درّبته المخابرات الإسرائيليّة في اسطنبول. وبخلال زمن قصير، تمكّن من جمع معلومات لا تقدّر بثمن، وقرّر نقلها إلى المخابرات الإسرائيليّة... فاستأذن منظّمته بالسفر إلى القاهرة من أجل تصديق الشهادة الثانويّة العامّة التي يحملها ليتسنّى له الالتحاق بجامعة بيروت العربيّة لزيادة علومه خدمة للمقاومة على حدّ ما ادّعى، فحصل على الموافقة...

إستقلّ الجاسوس محمّد عمر حمّودة التكسي من مكتب سفريّات "بلانكو" في ساحة الشهداء ببيروت إلى دمشق، ومنها إلى حلب، ثمّ إلى أنطاكية في تركيا، حيث توجّه بالبولمان إلى اسطنبول فوصلها ليلاً، ولم يشأ أن يزعج "معلّمه"، فتوجّه إلى ملهى "أومبيا" في شارع الملاهي في اسطنبول المعروف باسم شارع "تقسيم"، وحجز غرفة في الفندق الذي تتعامل معه المخابرات الإسرائيليّة لمثل هذه الحالات... وفي الصباح، رنّ جرس الهاتف في غرفة "النقيب سامي" الذي رحّب بحمّودة ودعاه للحضور فورًا، وما هيّ إلاّ دقائق حتّى أصبح الجاسوس داخل القنصليّة الإسرائيليّة... يسلّم البضاعة المحرّمة بشكل معلومات عن أماكن وجود الفدائيّين، مع أكثر أسماء الفدائيّين، وحتّى بعض أسمائهم المستعارة، إضافة إلى عناوين مكاتب المنظّمات وعناوين بعض قادتها، وخرائط من تخطيطه عن الطرق التي يسلكها الفدائيّون من سوريا إلى لبنان...

سُرّ النقيب سامي كثيرًا لهذا الصيد الوفير، وأعطى حمّودة مبلغ ٥٠٠ دولار مقابل هذه المعلومات، وطلب منه البقاء في اسطنبول عدّة أيّام حتّى تصل أوامر جديدة

بخصوصه من إسرائيل. بعد أيّام، قام النقيب سامي بزيارة العميل حمّودة في الفندق، وطلب منه الاستعداد للسفر إلى القاهرة حسبما تقضي الأوامر الجديدة التي تلقّاها بخصوصه، وأخذ يتباحث معه عن إمكانيّة الحصول على المعلومات الآتية:

١ ـ أماكن الصواريخ على القناة.

٢ ـ التركيز على الحركة الطالبيّة في مصر.

٣ ـ الحصول على نسخ من المنشورات التي يوزّعها قادة الاتّحادات الطالبيّة.

٤ ـ ردود الفعل لدى رجال الشارع وبقيّة الفئات على حركات الطلاّب.

٥ ـ معلومات عن العناصر التي تسيطر على الطلبة وتحرّكها.

٦ ـ معلومات عن الوضع الاقتصاديّ.

٧ ـ معلومات عن الوضع السياسيّ.

٨ ـ معلومات عامّة عن تأييد الشعب المصريّ للحلّ السلميّ أو العكس.

٩ ـ علاقة جمهوريّة مصر العربيّة مع المقاومة الفلسطينيّة.

١٠ ـ معلومات عن كيفيّة استدعاء المسرّحين للاحتياط وتحديد الزمن والعدد.

١١ ـ معلومات عن الوحدة الاندماجيّة.

١٢ ـ معلومات عن أجهزة الأمن... المخابرات... المباحث العامّة...

ونصح النقيب سامي حمّودة بتمزيق الورقة التي سجّلت عليها هذه الطلبات، وحفظها في الذاكرة، فوعده بأنّه سيمزّقها. وأعطاه مبلغ ٢٠٠ دولار أخرى، وطلب منه الحرص الشديد، وتغيير ملامحه...

سافر الجاسوس إلى القاهرة وبحوزته ورقة التعليمات التي لم يمزّقها... فوصل العاصمة المصريّة في أوّل نيسان ـ إبريل ١٩٧٣، وبدأ فوراً مهمّته، فكتب تقارير عن الفقرة (٢) والفقرة (٤) والفقرات (٦ و٧ و١٠)، وكاد يتابع مهمّته...

توجّه الجاسوس إلى المدينة الجامعيّة لمقابلة شقيقه "عبد الحميد حمّودة"، الطالب في السنة الأخيرة بكليّة التربية التابعة لجامعة عين شمس، ولكنّه لم يجده، فاستضافه زميلاه: الطالبان "حسن محمّد حسن"، و"أحمد ابراهيم"، حتّى اليوم التالي، حيث حضر إبراهيم... وشكر زميليه على حسن وفادتهم لشقيقه.

في الغد، استأذن إبراهيم شقيقه الضيف وتوجّه إلى الجامعة لحضور إحدى المحاضرات، فتوجّه الجاسوس إلى طلاّب آخرين أكرموه لأنّه شقيق زميلهم، ولكنّه استغلّ هذا الكرم وحاول إقامة علاقات معهم مثل الارتباط بأعمال كتابيّة عن أوضاعهم الطالبيّة في الاتّحادات، فأظهروا له الموافقة بعد أن شعروا بأنّ ما يطلبه من معلومات هو "تجسّس"...

في اليوم نفسه، كان هؤلاء الطلاّب في مكتب اللواء "سيّد فهمي" نائب وزير الداخليّة ومدير مباحث أمن الدولة، الذي رحّب بهم وبوطنيّتهم، وطلب منهم المتابعة مع الجاسوس، وكلّف اللواء "أحمد رشدي" رئيس فرع مباحث أمن الدولة بالقاهرة رسم خطّة معهم، للإيقاع بالجاسوس، وكانت الخطّة تقضي بالتالي:

١ ـ إستئذان النيابة العامّة بعد تقديم إفادات الطلاّب المخبرين.

٢ ـ تزويد الطلاّب بجهاز تسجيل لوضعه خفية في الشقّة لتسجيل أقوال الجاسوس.

٣ ـ تكليف مفرزة من مباحث أمن الدولة لتبقى على اتّصال، وبالقرب من مكان إقامة الجاسوس وتحت تصرّف الطلاّب.

٤ ـ تعميم إسم الجاسوس على جميع نقاط الحدود برًّا وبحرًا وجوًّا خشية فراره.

عاد الطلاّب إلى شقّتهم بالمدينة الجامعيّة، ونصبوا جهاز التسجيل في مكان خفيّ، وجلسوا ينتظرون... وما هي إلاّ مدّة وجيزة حتّى حضر الجاسوس، وبعد شرب

الشاي، أفاض بالحديث عمّا يمكنه أن يقدّمه لهم من خدمات في ما لو أمدّوه بالمعلومات التي يطلبها، وكان الحديث يُسجَّل بالطبع، وأهمّ ما سُجّل فيه:

١ ـ طلبه المعلومات منهم بصراحة.

٢ ـ تهجّمه على الأوضاع في مصر.

٣ ـ شتمه بعض المسؤولين...

٤ ـ إقراره بأنّه "قد عمَل حاجة جامدة..." وفسّر ذلك بأنّه اشترك في حرق القنصليّة المصريّة في بنغازي أثناء التظاهرات المعادية لمصر التي وقعت في ليبيا وبتكليف من المخابرات الإسرائيليّة... صراحة.

ولمّا ذكر "المخابرات الإسرائيليّة"، صراحة، فوجئ الطلاّب، وسألوه هل صحيح أنّ المخابرات الإسرائيليّة كلّفته بحرق القنصليّة المصريّة في بنغازي؟ فأجابهم بكلّ فخر واعتزاز: "إمّال؟". واستمرّت جلسة السمر هذه إلى منتصف الليل حيث انصرف الجاسوس إلى شقّة شقيقه، ونام... بينما أسرع الطلاّب إلى الدوريّة الموجودة بالقرب منهم، وسلّموها الشريط ـ الإدانة... فنُقل هذا الشريط فورًا إلى اللواء سيّد فهمي، ثمّ إلى النيابة العامّة، التي أمرت باعتقال حمّودة فورًا...

توجّهت القوّة المكلّفة باعتقال حمّودة في الساعة الثالثة من صباح ١٩ أيّار ـ مايو ١٩٧٣، إلى المدينة الجامعيّة، واصطحبت معها المسؤول عن المدينة إلى شقّة الطالب عبد الحميد حمّودة الذي فوجئ باعتقال شقيقه واعتقاله على ذمّة التحقيق، حيث أُفرج عنه في ما بعد نظرًا لثبوت عدم مسؤوليّته أو اشتراكه بأعمال أخيه الجاسوس، وقد عُثر بحوزة الجاسوس على لائحة بطلبات المخابرات الإسرائيليّة منه، ورقم هاتف القنصليّة الإسرائيليّة في اسطنبول مع فاتورة الفندق، وقد سجّل عليها باللغة التركيّة:

"دفع من قبل القنصليّة الإسرائيليّة"... كما عُثر معه على بطاقة جامعيّة مزوّرة هي بالأصل لشقيقه، وعلى إقرار جمركيّ مزوّر أيضًا...

بعد التحقيق واعترافه الكامل وإجراء مقابلة بينه وبين الطلاّب الشرفاء الذين حاول إيقاعهم في حبائل التجسّس، حكمت محكمة أمن الدولة العليا برئاسة السيّد المستشار "مصطفى عبد الوهّاب خليل" على محمّد عمر حمّودة بالأشغال الشاقّة المؤبّدة، وبغرامة ١,٠٠٠ جنيه مصريّ... وبما أنّ الأشغال الشاقّة المؤبّدة (٢٥ سنة) هي أقسى العقوبات في جمهوريّة مصر العربيّة بعد حكم الإعدام، فقد رأى مراقبون أنّ هذا الحكم قد جاء في محلّه، لأنّ الجاسوس لم ينقل إلى العدوّ أيّ معلومات عن مصر، بل إنّ المعلومات التي ضبطت معه قدّرت بأنّها ليست من الخطورة بمكان، في ما لو وصلت إلى المخابرات الإسرائيليّة، لأنّها معلومات عاديّة كتبها عن مشاهداته الخاصّة، واستنتاجه، أو نقلها عن الصحف، أمّا المعلومات التي كان نقلها سابقًا إلى المخابرات الإسرائيليّة عن المنظّمات الفدائيّة، وحصل مقابلها على أموال من العدوّ، ما ألحق ضررًا بالقضيّة الفلسطينيّة، فإنّه من الجائز لو حكم عليه بأقلّ من المؤبّد لكان بالإمكان تسليمه إلى لبنان، باعتباره الدولة التي وقع فيها التجسّس ضدّ المنظّمة الفدائيّة، وذلك لمحاكمته هناك مجدّدًا... ولكن يظهر أنّه لن يخرج من سجنه في جمهوريّة مصر العربيّة[١].

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،لا.ت.) ١: ٦٦ ـ ٧٠.

محمد كامل: ماريو إيجيبسيانو

يقول باحثون[1]: سؤال محير ما زلنا نبحث عن إجابته.. وننقب بين الصفحات لعلنا نعثر على تعليل منطقي يحل هذا اللغز الشائك.. لماذا الإسكندرية؟

عشرات من الجواسيس الخونة أنجبتهم المدينة الجميلة فعاشوا تحت سمائها واستنشقوا نسائمها وتمددوا على شواطئها الباسمة وبذرت بداخلهم فجأة بذور الخيانة.. فمدت جذورها تقتلع الحب الخصيب وتغتال خلايا الانتماء؟؟..

لماذا..؟!!!

ويقول الباحث: عشرات الملفات من حولي عن جواسيس الإسكندرية.. كلما قرأت سطورها توجتني الدهشة ولا أجد إجابة شافية عما يدور بخلدي من تساؤلات. فالاسكندرية تختلف كثيرًا عن كل مدن مصر.. وتتميز عنها بتنوع مصادر الرزق ووفرتها.. سواء أكانت مشروعات إنمائية وصناعية مصرية.. أو شركات أجنبية متعددة كلها خلقت مهنًا جديدة فتحت مجالات أوسع للاسترزاق والعيش. ولا يمكننا بأي حال أن نقارن بينها وبين مدينة العريش مثلاً.. التي برغم احتلالها عام ١٩٦٧ ومعاناة أهلها من جراء تحكم المحتل وتضييق منابع الرزق.. إلا أن جواسيسها الذين عملوا لصالح العدو - اضطروا ــ بسبب الضغوط المادية والمعنوية إلى السقوط.. تدفعهم مشاكل لا قبل لهم بها.

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٦١.

هؤلاء الجواسيس يقل عددهم كثيرًا عن جواسيس الإسكندرية.. بل إن جواسيس العريش لم ينفذ حكم الإعدام إلا في قلة منهم أشهرهم على الإطلاق إبراهيم شاهين زوج انشراح موسى.. بينما نجد ملفات الجاسوسية في الإسكندرية تحف بعشرات القضايا التي انتهت غالبيتها بإعدام الخونة.. فتتفوق بذلك عن سائر مدن مصر بما فيها القاهرة. وهذا أمر يدعونا للبحث عن جذور الجاسوسية في الإسكندرية.. وعمقها داخل البنية الاجتماعية التي اختلت بعد النكسة عام ١٩٦٧.. وأيضًا نتيجة لعدم مواكبة ركب حضارة أشرقت علاماته.. ودوت بيارقه لتهرب أحاجي التخلف وأسانيده.

وفي ما يلي قصّة جاسوس الإسكندرية "ماريو" أو "محمد إبراهيم فهمي كامل" الذي يعد من أشهر عملاء إسرائيل في مصر الذين يتم تجنيدهم بسهولة يكاد العقل لا يستوعبها أو يصدقها. وأيضًا كانت قصة سقوطه في قبضة المخابرات المصريّة أكثر سهولة.. أما نهايته البشعة فلم يكن ليصدقها هو أو يتخيل خطوطها السوداء..

منذ تفتحت عيناه على ضجيج الحياة في حي محرم بك المزدحم ذاب عشقًا في جرس الترام.. الذي كلما ملأ أذنيه خرج إلى الشرفة يبتسم في انبهار وحيرة.. فنشأت بينه - منذ طفولته - وبين الترام قصة غرام دفعته للهرب من مدرسته.. والسعي وراءه راكبًا لجميع خطوطه المختلفة ومحطاته.

ولم يدم هذا الحب كثيرًا إذ اندفع فجأة نحو السيارات فالتصق بها.. والتحم عقله وقلبه الصغير بمحرّك السيارة مستغرقًا وقته كله.. حتى أخفق في دراسته الإبتدائية.. وأسرعت به خطاه إلى أول ورشة لميكانيك السيارات يمتلكها إيطالي يدعى الخواجة "روبرتو" الذي اكتشف هذا الحب الجارف بين الولد والمحرّك، فعلّمه كيف يتفاعل معه ويفهمه ويستوعبه. ولم تكد تمضي عدة أشهر فقط إلا وكان محمد أشهر صبي ميكانيكي في ورشة الخواجة روبرتو.

كانت السيارات تقف موازية للرصيف بجوار الورشة بأعداد كبيرة.. تنتظر أنامل محمد الذهبية وهي تداعب الآلة المعدنية الصماء.. وتمر بين أجزائها في تناغم عجيب فتعمل بكفاءة، ويتحسّس صوت "نبض" المحرك.. ويزداد الصبي شهرة كل يوم. ورغم محاولات البعض استدراجه واستثمار خبرته وشهرته في عمل ورشة "مناصفة" بعيدًا عن روبرتو، إلا أن الصبي رفض أن يتركه.. وكان تواضعه الشديد مثار إعجاب أصحاب السيارات الذين أجبروا على أن يتعاملوا معه كرجل لا كصبي في الخامسة عشرة من عمره. وكثيرًا ما كان ينزعج عندما كان يخرج إلى الكورنيش مع أقرانه بسبب توقف السيارات ودعوة أصحابها له ليركب حتى منزله، فكبرت لدى الصبي روح الرجولة وارتسمت خطوطها المبكرة حيث كان مبعثها حبه الشديد للعمل والجدية والتفكير الطويل.

وبعد عدة سنوات كانت الأحوال والصور قد تغيرت.

صار الصبي شابًا يافعًا خبيرًا بميكانيك السيارات. تعلم اللغة الإيطالية من خلال الخواجة روبرتو والإيطاليين المترددين على الورشة وأصبح يجيد التعبير بها كأهلها.. فأطلق عليه اسم "ماريو".

وعندما لسعته نظرات الإعجاب من "وجيدة".. دق قلبه بعنف وانتبه لموعد مرورها أمام الورشة حين عودتها من المدرسة. فواعدها والتقى بها ولم يطل به الأمر كثيرًا.. إذ تقدم لأسرتها وتزوجها بعدما اقنعتهم رجولته وسمعته الحميدة وشقته الجميلة في "محرّم بك".

ثمانية أعوام من زواجه وكانت النقود التي يكسبها تستثمر في ورشة جديدة أقامها بمفرده. ومنذ استقل في عمله أخذ منه العمل معظم وقته وفكره حتى تعرف على فتاة قاهرية كانت تصطاف مع أهلها بالإسكندرية وأقنعها بالزاوج.. ولأنها كانت ابنة أسرة

ثرية فقد اشترى لها شقة في الدقّي بالقاهرة وأثثها.. وأقام مع عروسه "تغريد" لبعض الوقت ثم عاد إلى الإسكندرية مستغرقًا في عمله منتقلاً ما بين وجيدة وتغريد ينفق هنا وهناك. وعندما توقف ذات يوم على الطريق الصحراوي بالقرب من "الرست هاوس" بجوار سيارة معطلة.. أعجبته صاحبة السيارة ودار بينهما حوار قصير.. على أثره ركبت معه السيدة الرائعة إلى القاهرة.. وفي الطريق عرف أنها راقصة مشهورة في شارع الهرم.. فسهر معها في الكباريهات وتنقل معها هنا وهناك.. ثم جرجرته معها إلى شقتها.. واعترف ماريو ان هذه الراقصة كانت أول من دفعه في الخطوة الأولى نحو حبل المشنقة.. يقول في اعترافاته التفصيلية:

في تلك الليلة شربت كثيرًا وكلما رأيت جسد الراقصة يرتعش أمام الزبائن كانت ترتعش في جسدي خلجات الرغبة، وبعدما انتهت من فقراتها الراقصة في أربعة كباريهات.. عدنا إلى شقتها في المهندسين، وبدلاً من أن أنام أو أذهب لشقتي حيث تنتظرني تغريد.. وجدتني أطوق خصرها بشدة وأطلب منها أن ترقص لي وحدي، فأبدلت ملابسها وعادت لي بلباس الرقص الشفاف الذي سلب عقلي وأفقدني الصواب.

وذهبت إلى تغريد التي وجدتها تشتاق إلى جيوبي قبلما تشتاق إلي.. فافتعلت مشاجرة معها وعدت ثانية إلى الراقصة التي استقبلتني فرحة.. ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أكاد أفارقها أو أبتعد عنها لأواصل عملي في الورشة.

لقد استعنت ببعض الصبية الذين دربتهم على القيام بالعمل بدلاً مني.. فكنت أتغيب لعدة أيام في القاهرة وأعود لأجمع ما ينتظرني من مال لديهم.. وسرعان ما أرجع لأنفقه على الداعرات والراقصات.. ونساء يبعن بناتهن ورجال يبيعون لحم زوجاتهم من أجل جنيهات قليلة.

ولأن للفلوس مفعول السحر فقد كنت أعامَل كملك.. لأنني أصرف ببذخ على من يحطن بي من فتيات ونساء أشبعنني تدللاً.. وصورنني كأنني الرجل الأول لديهن.. فأطلقت يدي ومددتها إلى مدخراتي في البنك شيئًا فشيئًا حتى أصبح رصيدي صفرًا.. وتحولت الورشة إلى خربة بعدما سرق الصبيان أدواتها وهرب منها الزبائن.

حاولت أن أثوب إلى رشدي وكان الوقت قد فات، وخسرت سمعتي بعدما خسرت نفسي.. وأصبحت مصاريف وجيدة وتغريد تمثل عبئًا قاسيًا على نفسي وأنا الذي لم يعضني الجوع أو تثقلني الحاجة من قبل.. فتألمت لحالي وقررت أن أخطو خطوة سريعة إلى الأمام وإلا.. فالمستقبل المجهول ينتظرني والفقر ورائي بشراسة ولا أستطيع مجابهته.

إستخرجت جواز سفر وحصلت على عناوين لبعض زبائني القدامى في إيطاليا وركبت السفينة الإيطالية "ماركو" إلى نابولي.. وبعدما رأيت أضواء الميناء تتلألأ على صفحة المياه صحت بأعلى صوتي تشاو.. تشاو نابولي.

وفي بنسيون قديم حقير وقفت أمام صاحبه العجوز أسأله هل زرت مصر من قبل؟ فقال الرجل لا.. ضحكت وقلت له إنني رأيتك في الإسكندرية منذ سنوات فجاءتني زوجته تسبقها حمم من الشتائم قائلة:

ـ ماذا تريد أيها المصري من زوجي؟ أتظن أنك فهلوي؟ انتبه لنفسك وإلا.. ففي نابولي يقولون: إذا كان المصري يسرق الكحل من العين.. فنحن نسرق اللبن من فنجان الشاي. وكان استقبالاً سيئًا في أول أيامي في إيطاليا.

في اليوم التالي حاولت أن أتعرف على السوق وبالأخص أماكن بيع قطع الغيار المستعملة.. ولكن صديقًا إيطاليًا توصلت إليه أخبرني أن في "ميلانو" أكبر أسواق إيطاليا للسيارات القديمة والمستعملة.. وثمنها يعادل نصف الثمن في نابولي. فاتجهت

شمالاً إلى روما وقطعت مئات الكيلومترات بالقطار السريع حتى ميلانو.. وبالفعل كانت الأسعار هناك أقل من نصفها في نابولي. والتقيت في ميلانو بأحد زبائني القدامى الذي سهل لي مهمتي.. لفت انتباهي إلى أماكن بيع منتجات خان الخليلي في ميلانو بأسعار عالية.

إبتعت طلباتي من قطع غيار سيارات الفيات ١٢٥ غير المتوافرة في السوق المصرية وعدت إلى الإسكندرية وخرجت من الجمرك بما معي من بضائع بواسطة زبائني الذين يعملون في الدائرة الجمركية.. وقمت ببيع قطع الغيار بأضعاف ثمنها وذهبت إلى خان الخليلي واشتريت بعضًا من بضائعه وسافرت مرة ثانية إلى إيطاليا.. واعتدت أن أنزل ببنسيون "بياتريتشي" في روما ثم اتجه إلى ميلانو لعدة أيام.. أنجز خلالها مهمتي وأعود ثانية إلى روما ونابولي ثم إلى الإسكندرية.

إعتدت السفر كثيرًا وبدأت الأموال تتدفق بين أصابعي من جديد.. واتسعت علاقاتي بإيطاليين جدد بالإضافة للأصدقاء القدامى الذين يكنون لي كل الود.

وفي ذات مرة وبينما كنت في خان الخليلي أنتقي بعض المعروضات التي أوصاني صديق إيطالي بشرائها.. سألتني فتاة تبيع في محل صغير عما أريده.. وساعدتني في شراء بضائع جيدة بسعر رخيص، وتكررت مرات الذهاب للشراء بواسطتها، ولما عرفت أنني أسافر إلى إيطاليا بصفة مستمرة عرضت علي أن تسافر معي ذات مرة.. لتشتري سيارة فيات مستعملة لتشغيلها تاكسيًا في القاهرة. وأطمأنت "زينب" ـ وهذا هو اسمها ـ عندما أخبرتها أنني أعمل ميكانيكيًا وأقوم بالإتجار في قطع الغيار. وتركتها لتجمع المبلغ المطلوب ثم أرسل لها من إيطاليا لأنتظرها هناك.

أراد أصدقائي الإيطاليّون أن أظل بينهم وأمارس عملاً ثابتًا أحصل بمقتضاه على إقامة في إيطاليا. وقد كان.. إذ سرعان ما وجدوا لي عملاً في شركة "راواتيكس"..

وبعدما حصلت على تصريح عمل وإقامة.. لم تتوقف رحلاتي إلى الإسكندرية.. فالمكسب كان يشجع على السفر بصفة مستمرة لكي أعرف احتياجات سوق قطع غيار السيارات في مصر.. والذي كان يمتصها بسرعة فائقة.

في إحدى هذه السفريات وبينما كنت في مطار روما تقابلت بالصدفة مع صديق إيطالي قديم - يهودي - كانت بيننا "عشرة" طويلة واسمه "ليون لابي" فتبادلنا العناوين، وبعد عدة أيام جاءتني مكالمة تليفونية منه وتواعدنا للقاء في مطعم مشهور في ميلانو.

أشفق "لابي" كثيرًا على حالي بعدما شرحت له ظروفي وتعثراتي المالية وزواجي من امرأتين..

وسألته أن يتدبر صفقة تجارية كبيرة أجني من ورائها أموالاً طائلة.. فضحك "لابي" وقبل أن يقوم لينصرف ضربني على ظهر يدي وقال لي:

"لا تقلق ماريو.. غدًا سأجد حلاً، لا تقلق أبدًا".

في اليوم التالي وفي الثامنة مساء كنت أطرق باب شقته.. ففتحت الباب فتاة بجسدها شبه العاري.. بدت وكأن فتنة نساء العالم سكنت بجسدها.. دعتني للدخول فمشيت وراءها إلى الصالون.. أتقد نارًا لمرأى أردافها تهتز داخل شورت ساخن مثير يلتصق بلحمها.. وكم وددت لو هجمت عليها لأنال ولو قبلة واحدة من شفتيها الناريتين المنفرجتين في إثارة لا يقاومها بشر. طلبت مني أن أنتظر "لابي" الذي سيتأخر قليلاً ثم خرجت وجاءتني ببعض الحلوى وجلست قبالتي فزلزلت رجولتي.

ولما وضعت ساقًا فوق ساق كدت أجن وتمنيت أن.. أن أتذوق هذا الجسد الأفروديتي الملتهب ولو كان في ذلك قتلي.. لست أعرف ماذا حدث لي بالضبط..؟ فقد كان جسدي يغلي ورغبتي تثور وعقلي آثر أن يهرب ويطير إلى مكان بعيد. فقمت من

مكاني ملوعًا واتجهت إلى حيث تجلس.. قرأت الفتاة في عيني ما أنوي فوجمت وسكنت ذاهلة.. وعندما شددتها من يدها وقفت وحاولت أن تتراجع فلم أمنحها الفرصة للهرب.. وجذبتها بقوة إلى صدري وصرخت لا تدري ماذا تفعل.. وبينما كنت أمتص رحيق شفتيها في جوع مجنون.. خالجني شعور أكيد بأنني لم أتذوق امرأة قط قبل اليوم.

دفعتني بقوة وخرجت من الحجرة تجري فجريت خلفها وقلت لها بصوت يلهث:

ـ أنت المرأة الوحيدة على سطح الأرض.

فقالت وهي ترتجف في هلع:

ـ ماذا تريد؟ سأقذف بنفسي من النافذة لو لمستني.

قلت وأنا لا زلت ألهث:

ـ أمرأة مثلك لا تقاوم.. أبدًا.. أريد فقط أن أقبلك.. لا تخافي..

وصرخت بصوت عالٍ:

ـ ابتعد عني أيها الحيوان الغبي.

وفي فترة واحدة كنت أمامها.. فاستدارت لتجري فكنت أسرع منها.. وعندما احتويتها بين ذراعي صرخت بقوة أكثر.. فكانت لطمة مني على وجهها أدعى إلى إسكاتها.. ودون وعي نزعت عنها ملابسها ولم أجد منها مقاومة بعد ذلك.. ولم يدر بخلدي لحظتئذ هل خضعت لي خوفًا أم تلذذًا؟

حملتها بعد ذلك إلى الحمام وغادرت الشقة دون أن أعرف اسمها أو من هي.. وعندما اتصل "لابي" ليعتذر عن تأخره.. لم يذكر لي بما يدل على أنه عرف بما حدث داخل شقته. وبالتالي لم أسأله أنا عمن تكون هذه الفتاة. وتواعدنا على اللقاء بمكتبه.

وصباح اليوم التالي ذهبت إلى العنوان وفوجئت بنجمة داود السداسية على الباب.. ولوحة نحاسية مكتوب عليها بالإيطالية: القنصلية الإسرائيلية.

وقفت مرتبكًا للحظات أمام الباب المغلق.. ثم نزلت عدة درجات من السلم وأخرجت علبة سجائري وأشعلت سيجارة.. وعندئذ سمعت وقع خطوات نسائية بمدخل السلم فانتظرت مترددًا.. وعندما رأيت الفتاة القادمة كدت أسقط على الأرض..

كانت هي بنفسها الفتاة التي واقعتها في شقة "لابي" لكن ابتسامتها حين رأتني مسحت عني مظاهر القلق وهي تقول:

- بونجورنو

فرددت تحيتها بينما كانت يدها تسحبني لأصعد درجات السلم ولا زالت ابتسامتها تغطي وجهها وقالت في دلال الأنثى المحبب:

- أنا لم أخبر سنيور لابي بما حدث منك...

قلت في ثقة الرجل:

- لماذا؟ ألم تهدديني بالانتحار من النافذة؟

بهمس كأنه النسيم يشدو:

- أيها الفرعوني الشرس أذهلتني جرأتك ولم تترك لي عقلاً لأفكر.. حتى أنني كنت أحلم بعدها بـ "أونالترا فولتا". لكنك هربت!!

قلت لها:

- يا ليتني فهمت ذلك.

- وانفتح الباب وهي تقول:

ـ هل ترفض دعوتي على فنجان من القهوة الإيطالية؟

ووجدت نفسي في صالة القنصلية الإسرائيلية والفتاة لا زالت تسحبني وتفتح باب حجرة داخلية لأجد "لابي" فجأة أمامي. قام ليستقبلني بعاصفة من الهتاف:

ـ ميو أميتشو.. ماريو.. أهلاً بك في مكتبك.

وهللت الفتاة قائلة:

ـ تصور.. تصور سينيور لابي أنه لم يسألني عن اسمي؟

قهقه لابي واهتز كرشه المترهل وهو يقول بصوت جهوري:

ـ شكرية.. شكرية بالإيطاليّة سنيور تعني: غراتسييللا

واستمر في قهقهته العالية وصرخت الفتاة باندهاش:

ـ أيكون لاسمي معنى بالعربية؟ اشرحه لي من فضلك سينيور ماريو.

وكانت تضحك في رقة وهي تردد:

شوك.. ريا.. شوك.. ريا. غراتسييللا: شوك.. ريا.

ولم يتركني لابي أقف هكذا مندهشًا فقال للفتاة:

ـ أسرعي بفنجان من الـ "كافي" أيتها الكافيتييرا غراتسييللا.

واستعرض لابي في الحديث عن ذكرياته بالإسكندرية قبل أن يغادرها إلى روما في منتصف الخمسينات.. وأفاض في مدح جمالها وشوارعها ومنتزهاتها.. ثم تهدج صوته شجناً وهو يتذكر مراتع صباه.. وطال حديثنا وامتد لأكثر من ساعتين بينما كانت سكرتيرته الساحرة غراتسييللا لا تكف عن المزاح معي وهي تردد:

- شوك. ريا.. سنيوريتا شوك.. ريا..

وعندما سألتني أين أقيم ذكرت لها اسم الفندق الذي أنزل به.. فقالت وكأنها لا تسكن ميلانو:

- لم أسمع عن هذا الفندق من قبل

رد لابي قائلاً:

- إنه فندق قديم غير معروف في الحي التاسع "الشعبي"

قالت في تأفف:

- أوه.. كيف تقيم في فندق كهذا؟

قال لابي موجهًا كلامه إليها:

- خديه إلى فندق "ريتزو" وانتظراني هناك بعد ساعتين من الآن.

وربت لابي على كتفي في ود وهو يؤكد لي أنه يحتاجني لأمر هام جدا لن أندم عليه وسأربح من ورائه الكثير.

وركبت السيارة إلى جوار غراتسييلا فانطلقت تغني أغنية "بالوردو بيلفا" أي "أيها الوحش الضاري" وفجأة توقفت عن الغناء وسألتني:

- هل تكسب كثيرًا من تجارتك يا ماريو؟

قلت لها:

- بالطبع أكسب.. وإلا.. ما كنت أعدت الكرة بعد ذلك مرات كثيرة.

- كم تكسب شهريًا على وجه التقريب؟

- حوالي ستمائة دولار.

قالت في صوت مشوب بالحسرة:

ـ وهل هذا المبلغ يكفي لأن تعيش؟ إن لابي يشفق لحالك كثيرًا سنيور ماريو.

ـ سنيور لابي صديقي منذ سنوات طويلة.. وأنا أقدر له ذلك.

ـ إنه دائمًا يحدثني عن الإسكندرية. له هناك تراث ضخم من الذكريات..!!

وفي فندق ريتز.. صعدنا إلى الطابق الثاني حيث حجزت لي غراتسييلا جناحًا رائعًا.. وبينما أرتب بعض أوراقي فوجئت بها تقف أمامي في دلال وبإصبعها تشير لي قائلة:

ـ "أونالترا فولتا" أيها المصري وهذه المرة "للإيطاليا نيتا".. "محبة الوطن الإيطالي" وغرست أظافرها بجسدي بينما كنت أرتشف عبير أنوثتها وأتذوق طعمها الساحر وكانت لا تكف عن الهتاف:

ـ ليوباردو.. ليوباردو. ماريو إيجيبسيانو.

وعندما جاء لابي كان من الواضح أننا كنا في معركة شعواء انتهينا منها توًا.. أخرج من جيبه مظروفًا به خمسمائة دولار وقال لي إنه سيمر علي صباح الغد..

وأوصاني أن أنام باكرًا لكي أكون نقي الذهن.

وأنصرفا بينما تملكتني الأفكار حيرى.. ترى ماذا يريد مني؟ وما دخلي أنا في ما يريده لابي؟؟

وفي العاشرة والنصف صباحًا جاء ومعه شخص آخر يتحدث العربية كأهلها اسمه "إبراهيم".. قال عنه لابي إنه خبير إسرائيلي يعمل في شعبة مكافحة الشيوعية في البلاد العربية.

رحب إبراهيم بماريو وقال له بلغة جادة مفعمة بالثقة:

- إسرائيل لا تريد منك شيئاً قد يضرك. فنحن نحارب الشيوعية ولسنا نريد أن نخون وطنك.. مطلقاً.. نحن لا نفكر في هذا الأمر البتة. وكل المطلوب منك.. أن تمدنا بمعلومات قد تفيدنا عن نشاط الشيوعيين في مصر وانتشار الشيوعية وخطرها على المنطقة.

وأردف ضابط المخابرات الإسرائيلي:

- كل ذلك لقاء ٥٠٠ دولار راتباً شهرياً لك.

وعندما أوضحت له أنني لا أفهم شيئاً عن الشيوعية أو الاشتراكية. وأنني أريد فقط أن أعيش في سلام. ذكّرني لابي بأحوالي السيئة بالإسكندرية والتي أدت إلى تشتتي هكذا بعدما كنت ذا سمعة حسنة في السوق.

واعتقدت أنني يجب ألا أرفض هذا العرض.. فهي فرصة عظيمة يجب استغلالها في وسط هذا الخضم المتلاطم من الفوضى التي لازمتني منذ أمد.. وتهدد استقرار حياتي.

تركه مع غراتسييللا، التي جاءت بشوشة الوجه طاغية الفتنة، على أن يعود إليه ثانية في المساء.. وكانت مهمة الفتاة محددة.. ومعروفة.. وهي ألا تتركه ليفكر في الأمر بمفرده.. لقد سحبوها في المساء وتركوه ليعيش قلق الانتظار والترقب.. وفي الصباح تركوها له لتقتل تردده وتشل إرادته.

إنها إحدى ألاعيب الموساد التي نجحت كثيراً من قبل وأتت بثمارها.. فنساء الموساد إحدى الدعامات الهامة للسيطرة على الفرائس وقهر مقاومتها.. وهن نساء مدربات جيداً وبمهارة لمثل تلك المهام.. إذ يخضعن لبرامج تدريبية معقدة تشتمل على

دراسة السلوك والأفعال والتحليل النفسي.. ويدرسن أيضًا أثر الجنس على الأفراد الذين أتوا من مجتمعات محافظة منغلقة.. وأولئك الذين يمرون بظروف مالية سيئة ويحلمون بالثراء.

هكذا نجحت فتاة الموساد الناعمة في إخضاع ماريو.. ورسم صورة رائعة لحياته إذا ما تعاون معهم.. حيث ينتظره المال الوفير.. ومحيط من المتعة بلا حدود.

ولما جاء لابي وزميله في المساء.. كان ماريو بلا عقل أو إرادة.. بل كان قد تحول إلى مخلوق مفكك الأوصال لا يميز بين الحق والباطل.. يسرح خياله في عالم لا نهائي من الآمال والطموح..

لذلك.. بادرهما بإعلان موافقته على التعاون معهما.. بشرط ألا يمس أمنه أو تهدد حياته في مصر.

بالطبع.. أكدا له على أن ما سيقوم به من عمل بعيد بالمرة عن ملاحقة السلطات.. فالشيوعية داء تجدّ السلطات المصرية لاستئصاله.. وتسعى لمقاومته بكل السبل. وطالما كانت مهامه بعيدة عن الأمور العسكرية التي يعاقب عليها القانون المصري فلا خوف أو قلق. وأخذا يبرران له شرعية مهمته لأنها تخدم مصر في المقام الأول.

بمثل تلك الأكاذيب وغيرها ابتلع ماريو "الطعم".. وانساق مندفعًا للتعاون مع الموساد.. وإن كانت قد أثيرت بنفسه الشكوك والمخاوف من مغبة الانقياد.. لكنه على أيّ حال كان يتغابى.. وجاهد قدر استطاعته ليقنّع نفسه بأنه لا يخون وطنه.. وبأنه محظوظ بسبب المال الوفير الذي سيحصل عليه.. ووجوده بين أحضان أنثى هي أجمل امرأة على الأرض.

وبعد أيام قضاها في اغتراف اللذاذات وعب النشوة.. جاءه إسرائيلي آخر اسمه "الفوارحي".. وهو ضابط فني بجهاز الموساد.. مهمته تدريب ماريو على مبادئ فن الجاسوسية.. وتتمثل في كيفية عقد الصداقات وكسب ود الغرباء.. وحرفية إدارة الحوار وبديهيات المناقشة.. وأساليب إثارة المحاور لإخراج ما لديه من معلومات وأسرار.

بعد ذلك فوجئ ماريو بمدربه يتطرق به إلى مواضيع أكثر حساسية.. وكان لوجود غراتسييلا الأثر الشديد.. فقد ساعدت على "تليينه".. وتسكين مقاومته بكل أسلحة الإغراء والإثارة.. مستغلة العاطفة أعظم استغلال لإخضاعه لبرنامج التدريب المكثف.. الذي جاوز حدود عقل الجاسوس المبتدئ ومداركه.. عندما تطرق المدرب للنواحي العسكرية والأسلحة.. وطرق إطلاق الشائعات والنكات السياسية.

تحير عقل ماريو.. وعندما أراد أن يسأل عن العلاقة بين الشيوعية وبين أخبار الجيش المصري.. أجابته غراتسييلا بجرعة طازجة من معسول جسدها البض وأنوثتها الطاغية فلم يعد يسأل عن شيء.

كان ماريو قد اقترب من الأربعين وما زال شبابه القوي بحاجة إلى أنثى ترويه وتشبعه.. وبخبرة العميلة المدربة أدركت نهمه الشديد لتعاطي الجنس دون إحساس بالشبع. هي الأخرى استلذت جرأة الرجل الشرقي وعنف رجولته.. فأعطته بقدر ما أخذت.. وكان عطاؤها يزيد يومًا بعد يوم كلما تقدم في استيعاب الدورات المكثفة على يد خبراء الموساد.. وكأن جسدها هو المكافأة بعد كل درس فما أشبه حاله بأسد السيرك الذي يمنحه مدربه قطعة من اللحم بعد كل فقرة يؤديها.

عدة شهور كان يقبض خلالها راتبه من الموساد ويقوم باصطياد المصريين الذين يتوافدون إلى إيطاليا لشراء السيارات. فكان يقوم بمساعدتهم ويستغل أفضل الظروف

"للدردشة" وتبادل الأحاديث السياسية التي يكتبها في شكل تقارير ويسلمها إلى رجال الموساد.. وعندما أجاد اللعبة.. أجادوا هم أيضًا استغلاله. إذ طلبوا منه بعدما وثقوا به أن يبحث عمن يستطيع تجنيده من المصريين للعمل معهم.

ولأن غراتسييللا كانت معشوقته التي لا تفارقه - والتي توجه أفكاره وتدير له عمله التجسسي - فقد شجعته بأسلوبها الخاص على تجنيد من يراه مناسبًا مقابل عدة آلاف من الدولارات مكافأة له.

وبينما كانت غراتسييللا تتقلب في حضن العاشق المدله.. قام ماريو فجأة وطبع قبلة سريعة على شفتيها وغادر الفراش إلى حجرة المكتب. وأمسك بالقلم ليكتب رسالة إلى فتاة خان الخليلي.. زينب.. يدعوها للسفر إلى إيطاليا لشراء السيارة. وكان قد أعد لها خطة جهنمية لتجنيدها في روما.

عندما تسلمت زينب الرسالة الوافدة من إيطاليا، لم تكن تصدق أن يهتم بها هذا العابر المجهول إلى هذا الحد.

كانت قد نسيته بعدما مرت عدة أشهر منذ التقت به في خان الخليلي حيث تعمل بائعة في محل للأنتيكات والتحف. وبعدما تردد عليها عدة مرات عرضت عليه السفر معه إلى إيطاليا لتشتري سيارة لتشغيلها أجرة في القاهرة.. فوعدها بأن يساعدها ثم اختفى فجأة ولم يعد يذهب إليها.. حتى جاءتها رسالته تحمل طابع البريد الإيطالي وعنوانه وتليفونه هناك.

أسرعت زينب بالخطاب إلى خالها الذي يتولى أمرها بعد وفاة والديها، ولكنه عارض الفكرة وعندما رأى منها إصرارًا رضخ للأمر ووافقها..

سنوات وزينب تحلم بالسفر إلى الخارج للعمل. لقد بلغت الرابعة والعشرين من عمرها ولم ترتبط بعد بعلاقات عاطفية تعوق أحلامها. لذلك تفوقت في دراستها بكلية

الآداب بجامعة عين شمس وعشقت اللغة الإنكليزية عشقًا كبيرًا.. والتحقت بعد الجامعة بالعمل في خان الخليلي بالقرب من بيتها في شارع المعز لدين الله بحي الجمالية.. حيث مسجد الحسين ورائحة التاريخ تعبق المكان وتنتشر على مساحة واسعة من الحي القديم العريق.

حجزت زينب تذكرة الطائرة ذهابًا وإيابًا على طائرة مصر للطيران.. وبحقيبتها كل ما لديها من مال وفرته لمثل هذه الفرصة. وفي مطار روما كان ماريو بانتظارها يملؤه الشوق لأولى الضحايا الذين سيجندهم للعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية.

وعندما رأته كانت كمن عثر على شيء ثمين. إذ صدمتها اللغة الإيطالية التي لا تعرف منها حرفًا واحدًا.. وسرّت كثيرًا عندما وجدت ماريو يتحدث بها "كالطليان" أصحاب البلد. اصطحبها إلى فندق رخيص في روما ثم تركها لتستريح وذهب هو إلى مسكنه ليرتب خطة تجنيدها التي رسم خطوطها عدة مرات..

وفي الصباح ذهب إلى الفندق حيث كانت تنتظره فأخذها في جولة رائعة بسيارته لمتنزهات روما وأماكنها السياحية. ثم ذهب بها في اليوم التالي إلى أماكن بيع السيارات المستعملة.. معتمدًا أن يرفع لها أسعار السيارات مستغلاً جهلها باللغة الإيطالية.. واعتمادها عليه أولاً وأخيرًا.

وتعمّد أيضًا أن تطول مدة إقامتها في روما للبحث عن فرصة شراء أفضل وأرخص، وأقنعها بشراء فيات ١٢٥ دفعت فيها معظم ما تملكه من مال.. وما تبقى معها كان يكفي بالكاد مصاريف الشحن إلى الإسكندرية.

وصدمت الفتاة بعدما تبين لها أن فاتورة الفندق امتصت النصيب الأكبر من نقودها.. ولم تعد تملك مصاريف الشحن الكاملة. لقد خدعها ماريو عندما ذكر أرقامًا تقل بكثير عن الحقيقة عند شحن السيارة.

تركها ماريو لعدة أيام دون أن يتصل بها بحجة أنه كان في ميلانو. وبكت زينب في حرقة وهي تحكي له عن حالها.. وكيف أنها لم تعد تملك أيّ أموال لتعود إلى مصر بالسيارة الواقفة أمام الفندق، ومتوسلة رجته أن يساعدها فوعدها بذلك.

ومرت ثلاثة أيام أخرى كانت زينب قد باعت حليها ولم يتبقّ معها سوى ساعة يدها الجوفيال التي لا تساوي شيئًا يذكر.

حاصرها ماريو جيدًا وأفقدها التفكير واستعمل معها أسلوب "صيد الغزلان" بأن أغلق أمامها كل الطرق.. وترك لها فتحة ضيقة لتنفذ منها إلى شبكته لتقع فيها ولا تخرج. وظهر لها فجأة بعد غياب عدة أيام معتذرًا بشدة.. واصطحبها للعشاء بأحد المطاعم الراقية.. وبعد أن جلسا عزفت الموسيقى مقطوعة إيطالية شهيرة عنوانها "مولتي غراتسي ميو أميتشو" أي "شكرًا جزيلاً يا صديقي" فقالت زينب لماريو:

- طلبت منك قرضًا أرده إليك في مصر فلم تجبني:

إعتدل ماريو في مقعده وقال بسرعة:

- نعم.. نعم.. لا مشكلة إذن.. بعد غد سأتولى شحن سيارتك إلى الإسكندرية.

- ولِمَ بعد غد؟

- مشغول أنا غدًا.. ولا أملك وقتًا مطلقًا.. "قالها ماريو وتعمد ألا يظهر لوجهها".

- لقد وعدتني أن تدبر لي عملاً هنا في روما.. فإن ذلك سيعفيك من إقراضي أيّ أموال.

- ماذا تقولين؟ ألم أخبرك أنني أبحث بالفعل عن عمل مناسب لك؟

- أنت تقول: "قالتها زينب مليئة بالحسرة والإحساس بالندم"

فما كان من ماريو إلا أن أجاب:

ـ عمومًا.. بعد غد ستكون سيارتك على ظهر السفينة. أفهمت؟

وفي تلك اللحظة.. اقترب منها رجل وسيم تعدى الخمسين بقليل وقال بالإنكليزية بأدب جم:

ـ أتسمحان لي بأن أطلب من إدارة المطعم إغلاق جهاز التكييف الحار حتى لا نصاب جميعًا بالبرد عند الخروج؟

ردت زينب في حماس بالغ ممزوج بالعرفان:

ـ تفضل.. وشكرًا يا سيدي

أردف الرجل قائلاً:

ـ معذرة.. هل أنت تونسية؟

أجابته بأن لكنتها تدل على ذلك وضحكت وقالت في افتخار:

ـ أنا من الجمهورية العربية المتحدة. من القاهرة.

هتف الرجل سعيدًا:

ـ أوه.. ناسر.. يا له من زعيم عبقري.

وفي حركة مسرحية سريعة مد الرجل يده إلى محفظته.. وأخرج منها صورة لعبد الناصر يشرب من "القلة" ويجلس على الأرض بجوار صلاح سالم وأردف قائلاً:

ـ تمنيت أن أراه وأصافحه ذات يوم. فهل يتحقق لي ذلك؟

ـ تعال إلى القاهرة يا سيدي وأعتقد أن ذلك ليس بالشيء الصعب.

هكذا قالت زينب بفخر، وهي تتكلم الإنكليزية بطلاقة..، وتكلم ماريو يخاطب الرجل بالإيطالية:

- أنتم تكرهون ناصر في الغرب.. وفي الشرق تتوقف الحياة تمامًا حينما يتكلم.. تناقض غريب.

أجاب الرجل في بشاشة:

- نعم يا سيد...؟

- ماريو.. ماريو إيجيبسيانو "ماريو المصري".

- نعم.. نعم سنيور ماريو هذه حقيقة لا ننكرها.. فمنذ أزمة القناة والغرب لا ينسى ذلك لناصر أبدًا.

واعترضت زينب على حوارهما بالإيطالية، فقال لها ماريو إن لغته الإنكليزية ضعيفة جدًا.. وجاءت فاتورة الحساب ففوجئت زينب بالرجل الغريب يصر على دفعها.. وعندما تمسك ماريو برفضه قال الرجل:

- إذن.. هلا قبلتما دعوتي على العشاء غدًا؟

أجاب ماريو موافقًا بينما تحرجت زينب ثم فاجأهما ماريو بإعلان اعتذاره لارتباطه طوال الغد.. فأبدى الرجل الأنيق تفهمه إلى زينب فتراجعت الكلمات على لسانها.. عندها لم يمهلها وقتًا طويلاً لتفكر وقال موجهًا حديثه إليها إنه سيلتقي بها في الثامنة مساء الغد في مطعم "فريسكو".. فقالت زينب في اضطراب "بعدما نظر إليها ماريو موافقًا" إنها لا تعرف الأماكن جيدًا. وبدأ الرجل سيلاً من الأسئلة عن جوانب حياتها فأجابته زينب بحسن نية، وأخيرًا قال لها في دبلوماسية شديدة تدل على خبرة عالية في إدارة حوار:

ـ لقاء الغد ستترتب عليه أشياء كثيرة مهمة لكلينا..!!

وبعد انتهاء السهرة صحبتهما بسيارته الفارهة وأنزل زينب أمام فندقها وانصرف.. وقضت هي وقتًا طويلاً تفكر في ما يقصده بعبارته الأخيرة. وماذا سيترتب عليها من أشياء مهمة؟؟

في مساء اليوم التالي كان في انتظارها بردهة الفندق كما اتفقا بالأمس.. وأخذها في جولة ليلية بنوادي روما وشوارعها، ثم دلفا معًا إلى مطعم فريسكو الشهير.. حيث الأنواع الغريبة من الأسماك والمحار والثمار البحرية المدهشة.

كان الرجل قد التمس مكانًا هادئًا في ركن بعيد، وتوقعت زينب بأنه من زبائن المطعم المعروفين، للاحترام الجم الذي قوبل به. ولكنه انتشلها من حيرتها وقال لها بحرارة:

ـ آنسة زينب.. منذ الأمس وأنا في حيرة شديدة.. وكما تعلمين فأنا رجل أعمال بريطاني معروف.. والذي لا تعرفينه أنني أنفصلت عن شريك لي منذ مدة قصيرة.. وكنت أنوي توسيع أعمالي في لندن، لكن أشار عليّ البعض باستثمار مشاريع إنمائية في جنوب أفريقيا.. وقمت بالفعل بالسفر إلى جوهانسبرغ وزيارة كيب تاون وحصلت على بعض تقارير اقتصادية لتساعدني في اتخاذ قراري... حتى كان لقاء الأمس الذي سبب لي حيرة شديدة. فبرغم حبي لناصر إلا أنني لم أفكر من قبل في السفر إلى القاهرة لدراسة السوق المصرية وإقامة بعض مشروعاتي بها.

وتنهد الرجل في ما يشبه إحساسًا بالندم وأردف:

ـ إنني الآن ـ وبإصرار وثقة ـ أريد اقتحام السوق العربية من خلال مصر. ومن خلالك أنت.

قالت له زينب في دهشة:

ـ من خلالي أنا؟

ـ نعم.. فأنت مصرية وجامعية طموحة.. تملكين اللغة العربية والإنكليزية والثقافة.. ويمكنني الاعتماد عليك في إعداد تقرير اقتصادي عن أحوال مصر الاقتصادية ومشاكل التنمية بها ومعوقات السوق. ومن خلال هذا التقرير سأقرر ما إذا كنت أستطيع إقامة مشاريع إنمائية في مصر من عدمه. ولذلك فهذا الأمر مهم بالنسبة لي ولك.. لأنك ستكونين مديرة لفرع القاهرة وتملكين حق اتخاذ قرارات لصالح مؤسستنا.

إنفرجت أسارير زينب وهللت بشرًا وسعادة لهذا الخير المنهمر الذي أغدق عليها فجأة.

كانت تجلس أمامه ولا تملك بحقيبة يدها سوى ستة وعشرين دولارًا وبضع ليرات إيطالية لا تكفي ليوم آخر في روما.. وأغرورقت عيناها بدموع الفرح عندما فاجأها قائلاً: ومنذ اليوم سيكون راتبك ثلاثمائة دولار شهريًا.

صرخت بأعماقها لا تصدق أن غيمة النحس قد انقشعت.. وأن الحياة عادت لتضحك من جديد.. لقد مرت بها سنوات من الجوع والحرمان والحاجة.. وكلما ارتقت درجة من درجات الأمل انزلقت إلى الوهم وأحلام الخيال. الآن جاءت أحلام الواقع لتزيح أمامها الأوهام فتتراجع القهقري.

كانت تبدو من قبل وكأنها تغرق في لجج من ماء ذي قوام؟ الآن تطير في سماوات من الصفو اللذيذ. أخيرًا تحقق الحلم الذي طال اليتيم له. حلم ليس بالمستحيل ولكنه كان المستحيل نفسه.

يا الله.

قالتها زينب وهي تنتهد فتغسل صدرها الصغير من تراكمات اليأس وخيوط الرجاء.

أوصلها الرجل إلى الفندق بعدما منحها ٦٠٠ دولار مرتب شهرين ودفع عنها حساب الفندق. وفوجئت زينب بماريو يسرع بشحن سيارتها ودفع مصاريفها ويودعها بالمطار.

وفي مقعدها بالطائرة أغمضت عينيها وجلست تفكر فى أمر ماريو. لقد أخبرته بأمر الرجل فأظهر موافقته. وبرغم كونه تاجرًا لم يأخذ منها مصاريف الشحن.. بل ألح عليها كثيرًا لكي تأخذ منه مائة دولار فى المطار. وسلمها حقيبة هدايا بها علبة ماكياج كاملة وزجاجتا عطور وحزام جلدي أنيق.

تشككت زينب في هذه الأمور وأخذت من جديد تستعرض شريط ما مر بها فى روما. وتذكرت الدورة الإرشادية التي حضرتها فى أحد مدرجات جامعة القاهرة قبل سفرها بأيام. كان المحاضر يشرح أساليب الموساد في اصطياد المصريين فى الخارج. ولأن ماريو مصري مثلها ومجريات الأمور كلها كانت شبه طبيعية.. فقد طردت وساوسها التى تضخمت إلى حين.. وقررت أمرًا في نفسها.

وفى مطار القاهرة انتحت بأحد الضباط جانبًا وسألته سؤالاً واحدًا. وفي اليوم التالي.. كانت تستقل سيارة صحبتها إلى مقر جهاز المخابرات المصرية.. قالت كل شيء بدقة وسردت تفاصيل رحلتها إلى إيطاليا وكيف خدعها ماريو لتنفق كل ما لديها من نقود. وحكت ظروفها النفسية السيئة التى مرت بها وكيفية تقرب رجل الأعمال البريطاني منها فى تلك الظروف. وكيف شحن ماريو سيارتها إلى الإسكندرية على نفقاته.. وهو التاجر الذى يسعى للكسب..؟ بل إنه عرض عليها مائة دولار أخرى.

ولماذا لم يعطها رجل الأعمال عنوانه في بريطانيا لتراسله وتبعث اليه بالتقارير التي طلبه ؟ لقد أخبرها أن ماريو سيسافر إلى القاهرة عما قريب وعليها أن تسلمه التقرير الاقتصادي الوافر الذي ستعده عن مصر.

وتذكرت زينب أيضًا كيف أن ماريو طلب منها في المطار أن تهتم جيدًا بالعمل الذي أوكل إليها ولا تهمله. وعندما سألته هل لديك عنوان مكتب رجل الأعمال ؟!! أجاب بنعم في حين أنه من المنطقي أن يكون معها عنوانه. لقد سلمها ٦٠٠ دولار هي بلا شك لقاء قبولها التجسس على وطنها.

فوجئت زينب بما لم تتوقعه على الإطلاق.. صور عديدة لها مع ماريو.. قال ضابط المخابرات المصري أن المخابرات العربية على علم بأمره.. وتراقب تحركاته وتنتظر دليل إدانته. وقال لها أيضًا:

- إن إسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨ وهي تسعى بشتى السبل لمعرفة كل ما يجري في البلاد العربية من نمو اقتصادي وتسلح وما لديها من قوات وعتاد.. ولذلك لجأت لشراء ضعاف النفوس والضمائر وجعلتهم يعملون لحسابها.. وينظمون شبكات التجسس المتعددة في العواصم العربية.. حتى إذا كشفت واحدة تقوم الأخرى مكانها وتتابع نشاط جواسيسها. وتنفق إسرائيل الملايين على هذه الشبكات للصرف عليها.

وأن السبب الرئيسي لسقوط بعض الأفراد في مصيدة المخابرات الإسرائيلية هو ضعف الحالة المادية. وبالإضافة إلى الأموال الطائلة التي تنفقها الموساد على عملائها.. فإنها تغرقهم أيضًا في بحور الرغبة وتشبع فيهم نزواتهم.. وبذلك تتم السيطرة عليهم. لذا ... فقد أعلنت المخابرات المصرية في كانون الثاني - يناير عام ١٩٦٨ بأنها ستساعد كل من تورط مع العدو.. ووقع في فخ الجاسوسية بالإغراء أو بالتهديد. وأنها على استعداد للتغاضي عن كل ما أقدم عليه أي مواطن عربي.. إذا ما

تقدم بالإبلاغ عن تورطه مع الموساد مهما كان منغمسًا في التجسس.. وذلك لتفويت الفرصة على المخابرات الإسرائيلية.

ووعد الزعيم جمال عبد الناصر صراحة بحماية كل من تورط بالتجسس لأي سبب. وقد أسفرت هذه الخطة عن تقدم سبعة مصريين إلى جهاز المخابرات المصرية يعترفون بتورطهم ويشرحون ظروف سقوتهم.

وأضاف الضابط:

- لقد تكلمنا مع ماريو عدة مرات من قبل.. وأفهمناه بطريقة غير مباشرة بأننا على استعداد لمساعدة المتورطين دون أن يعاقبوا. لكن يبدو أنه استلذ أموال الموساد. وسيسقط على يديك يا زينب لأننا سنحصل على دليل إدانته من خلالك.

ووضعت المخابرات المصرية خطة محكمة لاصطياد ماريو..

وفي أول اتصال هاتفي من روما بعد أيام من وصولها.. أخبرته زينب بأنها مشغولة "بترجمة الكتاب" - وهو مصطلح سبق لهما أن اتفقا عليه - وعندما سألها عن المدة التي تكفي لإنجاز "الترجمة" لأنه ينوي المجيء لمصر بعد يومين طلبت منه - حسب الخطة - أن يتأخر عدة أيام حتى تنجز العمل.

إطمأن ماريو وصديقه لردود زينب.. وقنعا بأنها منهمكة في إعداد التقرير.. فلو أن هناك شيء ما يرتَّب في الخفاء لما ترددت في إيهامه بأنها أنجزت ما طلب منها..

وفى مكالمة أخرى بعدها بثمانية أيام.. زفت إليه النبأ الذي ينتظره.. وينتظره أيضا رجال الموساد في روما.. وعلى ذلك أكد لها على أنه سيصل إلى القاهرة عما قريب.

كانت زينب قد كتبت التقرير الاقتصادي المفصل بيدها بعدما أعدته المخابرات المصرية من عدة صفحات.. ومساء اليوم نفسه رصد رجال المخابرات المصرية في

روما عميل الموساد وهو يقوم بحجز تذكرة طيران إلى القاهرة لليوم التـالي.. وظلـت عيونهم تحاصره حتى وهو بكرسيه على طائرة مصر للطيران..

وفي مطار القاهرة تبعته العيون اليقظة إلى أن استقل التاكسي لوسط المدينة حيث نزل بأحد الفنادق المطلة على الجامع الأزهر.. وأخذ يناور ويأتي بأساليب بدائيـة فـي مراقبة المحل الذي تعمل به زينب.. ومتابعتها إلى منزلها بعد انتهاء العمل.

هكذا استمر به الحال ثلاثة أيام متواصلة.. وبعدما أحس بالاطمئنان.. طرق بـاب شقتها وهو يتلفت حواليه في حذر.. وما إن رأتـه حتـى صـاحت مهللـة.. وقادتـه إلـى غرفة الضيوف المتواضعة.. ولمـا قدمـت لـه التقريـر انفرجـت أساريره وأخذ يقلـب صفحاته العشرة في إعجاب بالغ وهو يصيح:

- أوه.. مدهش.. تقرير رائع.. تفوقت على نفسك يا زينب!!

- لقد بذلت مجهودًا مضنيًا.

- يبدو ذلك بالفعل ولكن.. هذا الجهد سيكون له ثمن.

- لقد تسلمت ستمائة دولار.

- هذا راتبك لشهرين.. وهناك مكافأة عن كل عمل أو تكليف أو تقرير يكتب!!

- إنني جد سعيدة بالعمل لدى بريطاني يقدر كفاءتي. سأعمل بـإخلاص لأؤكد لـه أنني عند حسن ظنه.

- هو بنفسه توسم فيك ذلك. وأرسل لك معي مائتي دولار مكافأة.

وفي حركة استعراضية وقف ماريو في منتصف الغرفة فاتحًا ذراعيه وهو يقول:

- انفتحت لك "طاقة القدر" وما عليك سوى أن تفرحي.. جدًّا أيتها العبقرية.

ـ أشكرك على هذا الإطراء الرائع. لكن.. قل لي.. ما هي الخطوة القادمة؟

واثقًا من نفسه ومن سقوط زينب قال:

ـ سأمكث بمصر عدة أيام ثم أسافر إلى روما وستكونين معي على نفس الطائرة.

قالت زينب في لهفة "مفتعلة":

ـ إلى روما مرة ثانية.. يا لي من محظوظة.

ثم أضافت:

ـ ستصل السفينة خلال أيام وبعدما أتسلم السيارة سأسافر معك.. لكن.. ترى لماذا تريدني هكذا بسرعة؟

بمكر شديد وبلغة بالأمور قال وهو يمسح شفتيه بلسانه:

ـ لكي تشرحي تفاصيل هذا التقرير المدهش إلى الرجل الذي ينتظرك ويعلق عليك أمالاً كثيرة.

ـ ألا تستطيع أنت القيام بهذه المهمة نيابة عني؟

ـ لا.. لا يا زينب.. أنا لا أفهم هذه الأمور مثلك.. ثم إنك لن تصرفي مليمًا واحدًا من جيبك.. فتذكرة الطائرة ذهابًا وإيابًا ستصرف لك فضلاً عن مصاريف الفندق والجيب.. إنني لا يجب أن أذكّرك بأنك موظفة لدى مؤسسة إنمائية بريطانية كبرى.. صح؟؟

ـ أوكي.. ماريو.

ـ إلى اللقاء إذن..

ووضع التقرير في حقيبته وخرج من شقتها وهو يردد:

- أريفاديرتشي.. أريفاديرتشي أونالترا فولتا "إلى اللقاء مرة أخرى".

بعد اللقاء المسجل بالصوت والصورة. اتجه الخائن إلى شارع نوال بالدقي حيث شقة زوجته تغريد. فمكث معها يومًا واحدًا وحمل كاميرته الخاصة التي تسلمها من الموساد وركب إلى الإسكندرية بالطريق الزراعي.. يصور المنشآت الجديدة التي تقوم على جانبي الطريق.. ويراقب تحركات المركبات العسكرية أو الشاحنات التي تحمل المدرعات.. وأمضى مع زوجته وجيدة عدة ساعات ثم عاد إلى القاهرة مرة ثانية بالطريق الصحراوي.. وكرر ماريو هذا السيناريو لمدة أسبوع متصل..

كان إخلاصه للموساد قويًا كعقيدة الإنسان أو إيمانه بمبدأ ما.. فآلاف الدولارات التي حصل عليها من الموساد بدلت دماءه وخلايا مصريته وأعمته عن عروبته.. وجعلت منه كائنًا فاقد الهوية والشعور.. بل كان لأموال إسرائيل الحرام فعل السحر في قلبه وزعزعت ثوابت إسلامه. فلقد نسي أن اسمه محمد إبراهيم فهمي كامل.. مسلم.. من مصر.. وأنّ ماريو ليس اسمه الحقيقي الذي ينادي به. وفي إيطاليا كثيرًا ما مرّ على مساجد روما ـ دون قصد ـ فكان يتعجب ويتساءل: ماذا يعني الدين والأنبياء والرسل؟ إن الدين هو "البنكنوت"..

وعندما اتصلت به معشوقته غراتسييللا ـ عميلة الموساد ـ تستقصي أخباره وأخبار ضحيته زينب، أجابها بأن كل شيء على ما يرام. وحدد لها ميعاد سفره إلى إيطاليا. وبعدما أنهت زينب إجراءات الإنفراج الجمركي عن سيارتها.. استعدت "هكذا ادعت له" للسفر معه.. فأخبرها بموعد الطائرة وأنه سيمر عليها ليصحبها إلى المطار.

قبل السفر بعدة ساعات، كان ماريو قد أعد أدواته.. وخبأ الأفلام التي صورها بجيوب سرية داخل حقائبه، ونزع البطانة الداخلية لها وأخفى التقارير

السرية التي أعدها بنفسه.. ثم أعاد إلصاقها مرة ثانية بإحكام فبدت كما كانت من قبل. ومن بين تلك التقارير كان تقرير زينب الذي كان لدى المخابرات المصرية صورة منه.

وبينما كان ماريو يغادر منزله بالدقي في طريقه إلى زينب ثم إلى المطار.. فوجئ بلفيف من الأشخاص يستوقفونه.. واقتيد إلى مبنى المخابرات، وأمام المحقق أنكر خيانته لكن الأفلام والتقارير التي ضبطت كانت خير دليل على سقوطه في وكر الجاسوسية.. فاعترف مذهولاً بعمالته للموساد.. وأمام المحكمة العسكرية وجهت إليه الجرائم الآتية:

- الحصول على أسرار عسكرية بصورة غير مشروعة وإفشاؤها إلى المخابرات الإسرائيلية.

- الحصول على مبلغ "٧ آلاف دولار" مقابل إفشاء الأسرار لدولة معادية "إسرائيل".

- التخابر مع العدو لمعاونته في الإضرار بمصر في العمليات الحربية.

- تحريض مواطنة مصرية على ارتكابها التخابر.. والحصول على أسرار هامة بقصد إفشائها للعدو.

وبرئاسة العميد أسعد محمود إسماعيل وعضوية المقدم فاروق خليفة والمقدم أحمد جمال غلاب بحضور ممثل المحكمة العسكرية والمقدم عز الدين رياض صدر الحكم في أيّار - مايو ١٩٧٠ بإعدام ماريو شنقًا بعد أن كرر اعترافه بالتجسس على وطنه.. وبيعه لأسراره العسكرية مقابل آلاف دولار. وصدق رئيس الجمهورية على الحكم لعدم وجود ما يستدعي الرحمة بالجاسوس.

لم تنس المخابرات المصرية الدور الكبير الذي لعبته زينب للإيقاع بالخائن ماريو واصطياده إلى حيث غرفة الإعدام ومشنقة عشماوي في أحد سجون القاهرة.

وكانت زينب بالفعل ـ أول مصرية ـ تصطاد جاسوسًا محترفًا في روما.. لإعدامه في القاهرة[1].

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٦١ ـ ٨٥.

علّم أخاه التجسس فاحترف

بالرغم من التنسيق الاستخباري الأميركي الإسرائيلي الذي وصل إلى أعلى المستويات.. فقد جاءت حرب تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٣ لتثبت عجز المخابرات الإسرائيلية والأميركية وهزيمتهما معًا إزاء هذه الحرب المفاجئة. فقد طار "زيفي زامير" رئيس الموساد، كما طار من قبله "مائير عميت" قبل حرب حزيران ـ يونيو ١٩٦٧، إلى كل من أوروبا وأميركا بمهمة سرية.. ليحاول التحقق من المعلومات التي وردت إليهم قبل حرب أكتوبر باستعدادات العرب للهجوم على إسرائيل.

وفي صباح السادس من أكتوبر بعث ببرقية محمومة من نيويورك إلى غولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل تقول: "إن الحرب ستبدأ اليوم". وكان الأوان قد فات. وكانت مفاجأة الحرب التي منيت بها إسرائيل، نتيجة "الفكرة" الخاطئة التي يتمسك بها القادة الإسرائيليون، والمستندة إلى أن الحرب لن تقع بسبب عجز العرب عن القيام باتخاذ قرار الهجوم ضدهم.

لقد كانت هذه "الفكرة" متأصلة الجذور في أذهان العسكريين الإسرائيليين، حتى أن الجنرال "إلياهو زعيرا"، الذي كان يشغل منصب رئيس الاستخبارات العسكرية، ذهب في ظهر ذلك اليوم إلى مؤتمر صحافي في تل أبيب وهو مطمئن إلى حقيقة "الفكرة".

وعندما تكلم بهدوء وثقة إلى الصحافيين قائلاً: "لن تقع الحرب". اقتحم المكان ضابط برتبة ميجر ودفع ببرقية إلى الجنرال زعيرا في غرفة المؤتمر

الصحافي، وعندما قرأها هذا، خرج من الغرفة ولم ينبس ببنت شفة، ولم يعد مرة أخرى..

وأدرك الصحافيون الحقيقة على الفور، فقد وقعت الحرب، وفي جميع أرجاء تل أبيب.. أخذت صفارات الإنذار ترسل صيحاتها.

هذا التقييم غير الصحيح للمعلومات التي تجمعت لدى المخابرات الإسرائيلية، والتي وصلتها قبل الحرب بمدة كافية وتتعلق بالحشود المصرية والسورية، أكد على تقصير المخابرات الإسرائيلية في تحليل النوايا العربية.. والاستعدادات العسكرية التي سارت بخطوات دقيقة وسرية للغاية، وخدعت أجهزة المخابرات الصهيونية والأميركية، بما يدل على جهل هذه الأجهزة بمؤشرات الحروب والأزمات.. مما أدى إلى تقويض نظرية الأمن الإسرائيلي القائمة على قوة جهاز مخابراتها، وعلى عنصر إنجاح الطيران في تنفيذ الضربة الوقائية وإفشال الاستعدادات العربية.

وبعد توقف الحرب، عمدت الحكومة الإسرائيلية إلى التحقيق في كارثة يوم الغفران وشكلت لجنة "إغرانات" لتحديد موضع الخلل والتقصير.. وقد رأت اللجنة أن الاستخبارات العسكرية هي المسؤولة عن تقييم نوايا وقدرات القوات العربية.. وأشارت إلى أربعة مسؤولين بها غير مرغوب فيهم ويفضل تسريحهم.. كان على رأسهم بالطبع إلياهو زعيرا رئيس المخابرات العسكرية.

ولذلك، نشطت أجهزة المخابرات الإسرائيلية المختلفة.. وعملت على تلافي هذا الخطأ المدمّر الذي راح ضحية له آلاف الجنود والضباط، وسبّب الذعر في كل أرجاء إسرائيل. وقررت ألا تترك معلومة، ولو تافهة صغيرة، إلا وحللتها وتأكدت من صحة ما جاء بها.. وذلك من خلال تجنيد طابور طويل من العملاء والجواسيس في كل البلاد العربية.. يمدون إسرائيل بجسر متصل من المعلومات السرية يوميًّا،

فتستطيع بذلك تدارك أيّ كـوارث أخرى قبل وقوعها. وكـان لا بـد مـن القيـام بعـدة انتصارات هامة.. تعيد الثقة إلى هذا الجهاز الذي أثبت فشله في التنبؤ بحرب أكتوبر.

وعلى هذا الأساس.. صعَّدت قيادة جديدة لأجهزة المخابرات الإسرائيلية، تتعطش لإثبات جدارتها ومقدرتها، وأخذت على نفسها أمر حماية إسرائيل مـن الخطـر الداهـم المحيط بها. ورصدت ملايين الدولارات تحت تصرف هذه الأجهـزة. وكـان للموسـاد الإسرائيلي نصيب أكبر منها لتجنيد العملاء والجواسيس، وشراء ضعاف النفوس فـي كل مكان.

ولم تعد المخابرات الإسرائيلية تلقى بالاً للعناصر التي تعيش على هامش الحيـاة، بل سعت لتجنيد البارزين في المجتمع. ومن ذوي المراكز الدقيقـة الهامـة. إذ لـم يعـد عمل الجواسيس مقصورًا على الإنصات إلـى ثرثرات سكير فـي حفـل كوكتيـل.. أو تخاريف جاهل بالأمور يدّعي المعرفـة بكـل شـيء، وإنمـا أصبحـت مهمـة الجاسـوس تتعلق إلى حد بعيد بالحصول على الوثائق السرية وتصويرها.. وإعادتها إلـى مكانهـا الذي أخذت منه.. ومن ثم إرسال ما صوره إلى مركز اتصاله.

وأيقنـت المخـابرات الإسـرائيلية أن المعلومـات المجموعـة.. سـواء بالوسـائل البشرية أو التكتيكية، لا تكتسب قيمتها الكاملة.. إلا بعـد الدراسـة والتحليـل والـتركيب والاستقراء من قبل خبراء أخصائيين على مستوى عال من العلم والخبرة.

وبسبب الخوف مـن"مفاجـآت" العـرب غير السـارّة، أطلقـت إسرائيل جواسيسـها داخل البلاد العربية، يجمعون لهـا الأسـرار العسكرية والصناعيـة.. وكـل مـا يتصـل بأمور الحياة اليومية بما فيها أرقام هواتف وعناوين المسؤولين.

وهذا ليس عبثًا مـن جـانب العدو، إنمـا هـو عمـل مخـابراتي أصيـل، وتخريبـي يؤدي إلى نتائج خطيرة في ما لـو أتيـح استعمال هـذه المعلومـات.. فعمـلاء إسـرائيل

السريون لا يتورعون عن ارتكاب أيّ جريمة مهما كانت حقارتها لتحقيق أهدافهم ومهامهم.

ويبدو أن المخابرات العربية قد تفهمت بحق تغير أسلوب جهاز المخابرات الإسرائيلي.. خاصة بعد تجديد دماء رؤسائه ومديري أقسامه المختلفة.. والحرص على اصطياد الخونة العرب في كل مكان.. ودفعهم إلى بلادهم بعد دورات تدريبية ينشطون بها مداركهم.. ويوقظون لديهم الحاسة الأمنية.. ويزرعون بداخلهم الولاء لإسرائيل بإغراءات المال والجنس، وبالتهديد أحيانًا كثيرة.

لذلك، فقد كان على المخابرت العربية أن تنشط هي الأخرى لتواجه هذا النشاط المضاد. وكان أن أعلن مسؤول كبير في المخابرات المصرية في ١٠ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٧٤ بأن أي مواطن مصري تورط تحت أي ظروف مع جهاز المخابرات الإسرائيلي، فإنه في حالة التبليغ عن ذلك فور وصوله إلى البلاد أو لأي سفارة من سفارات مصر.. فسوف يعفى نهائيًا من أيّ مسؤولية جنائية.. ولا توجه له أي تهمة مهما كانت درجة تورطه.

وأضاف المسؤول: إن المخابرات المصرية تعلم الأساليب التي تتبعها المخابرات الإسرائيلية.. والظروف التي يقع تحتها المواطن مرغمًا، ممّا يغفر له ما وقع فيه ما دام قد قام بالإبلاغ خدمة لوطنه.

وفي نهاية البيان.. أعلن المسؤول الكبير نبأ القبض على جاسوسين شقيقين يقومان بالتجسس لصالح المخابرات الإسرائيلية.. وأنهما بين أيدي المحققين لاستجوابهما... وسوف يحالان للمحكمة المختصة فور انتهاء التحقيق. فما هي قصّة هذين الجاسوسين؟

في الثاني عشر من آذار ـ مارس ١٩٢٩ ولد "السيد محمد محمود محمد" بالإسكندرية لأسرة ثرية يعمل معظم أفرادها في "البحر". وانصرف السيد عن دراسته مبكرًا ولم يحصل على الشهادة الإعدادية، فكان شغفه بالبحر أعظم من فصل المدرسة لديه. لذا، فقد أثمر هذا الحب لكل ما هو "بحري" عن خبير بالشؤون البحرية يشهد له الجميع بذلك. وكان عمله في ميناء الإسكندرية قد أتاح له، من خلال عائلته، الارتباط بصداقات عديدة بالعاملين بالميناء، ومعرفة أدق التفاصيل عنهم.

وفي الثانية والعشرين من عمره.. أحب ابنة صديق للأسرة يعمل في الميناء أيضًا. وتزوج من "إخلاص" وعاشت معه في شقة رائعة بمنطقة "سيدي جابر".

ومرت به الأعوام وهو يكبر بين أصحاب المهنة وتتسع علاقاته واتصالاته. وينجح في عمله إلى مدى بعيد. فاستثمر هذا النجاح وامتلك ٤٠٪ من الباخرة التجارية اللبنانية "م. باهي". وترك العمل على الشاطئ لينتقل إلى عمق البحر، إذ عمل مساعدًا للقبطان.. وبدأ يبتعد كثيرًا عن الإسكندرية في رحلاته إلى موانئ العالم.. فازداد إلمامًا بعلوم البحر والطقس.. وامتلأت جيوبه بالمال، فاستثمره هذه المرة في الزواج من فتاة صغيرة رائعة الجمال.. كان قد التقى بها في المعمورة ورآها "غادة" حسناء تمرح على الشاطئ كأنها عروس البحر.

لقد كلفه الزواج منها مبالغ طائلة أرهقت ميزانيته. وتورط بسببها حتى اضطربت أحواله المادية أكثر بعدما احتاجت الباخرة لـ"عمرة" كاملة، كان عليه أن يدفع ٤٠٪ من تكلفتها، فقد كانت بينهم وبين شركة التأمين مشاكل طائلة أدت إلى تعثّرهم ماليًا.

وأمام أزمته الطاحنة.. اضطر السيد محمود إلى "رهن" نسبة من نصيبه في الباخرة، وكان منذ تلك الفترة قد دخل بكل قوة إلى دائرة الإفلاس التي تضيق حوله وتعتصره.

كان السيد محمود قد قارب الأربعين من عمره، وهو وسيم أنيق المظهر، خبير بالأمور البحرية.. وأعلى خبرة بشؤون النساء وأنواع الخمور.. وكان لا ييأس إذا ما صدته امرأة أو تجاهلته فتاة جميلة. فهو يملك من وسائل اجتذابها ما يحير العقول، يساعده على ذلك لسان زلف رقيق، وعينان بريقهما عجيب كل العجب يسهل له مسعاه، وكانت علاقاته النسائية متعددة برغم زواجه من اثنتين.. ولا يكف عن إثبات ذاته أمام الفتيات الصغيرات اللاتي ينجذبن سريعًا لطلاوة حديثه وجرأته، ولقدرته الفائقة على احتوائهن.

كان أيضًا يستغل المال في شراء النساء بالهدايا القيمة التي يجلبها من الخارج كلما عاد محملاً بها.. في وقت كانت الأسواق المحلية تفتقر إلى البضائع المستوردة التي تلقى إقبالاً شديدًا خاصة حوائج النساء.

كل ذلك ساعده بطريقة أو بأخرى على تعدد علاقاته النسائية ومفاخرته بذلك أمام أصدقائه الذين طالما حسدوه لحظّه الواسع من الجنس اللطيف.

هذه المغامرات.. خلافًا لليالي الأنس والفرفشة.. التي كان يقيمها في شقة خاصة في "سبورتنغ".. كانت تستنزف منه أموالاً كثيرة أيضًا، وأدت إلى ابتعاده، موقتًا، عن هوايته في صيد النساء.. التي أرهقت مدخراته وإن كانت قد قضت عليها بالفعل.

وأثناء توقف الباخرة للإصلاح بميناء نابولي الإيطالي.. ذهب السيد محمود إلى روما.. وبالمصادفة قابله هناك صديق قديم من يهود الإسكندرية اسمه "فيتورا".. قال له إنه يعمل ضابطًا إداريًا في شركة السفن التجارية الإيطالية.

وعلى مدار جلسات طويلة بينهما.. استعرضا مراحل حياتهما الماضية والحاضرة. وشكا له فيتورا شوقه الشديد لزيارة الإسكندرية.. فدعاه السيد محمود

لزيارته هناك وهو على ثقة بأنه لن يلبي دعوته.. لكن خاب ظنه عندما فوجئ به يزوره بالإسكندرية.

وخلال هذه الزيارة غير المتوقعة.. تكشف لفيتورا أمر صاحبه ومدى معاناته.. بسبب أزمته المادية الحرجة التي تنغص عليه حياته، وتهدد مستقبله كله. خاصة وهو صاحب بيتين وزوجتين.. وحجم المصروفات يزداد كل يوم يمر. وصارحه السيد بمدى يأسه من صلاح حاله والسفينة قد فتحت فاها ولا تريد إغلاقه، وأنه أخيرًا باع نصيبه بالديون التي تراكمت عليه وتضخمت. وطلب من صديقه اليهودي راجيًا أن يبحث له عن عمل في أي مكان من العالم.

وبعد تفكير.. أخبره فيتورا أنه سيعمل على تقديمه لصديق إنكليزي يعمل صحفيًا في منظمة "حلف شمال الأطلسي" ويقيم في أمستردام بهولندا.

وعندما سأله السيد عن نوع العمل الذي قد يقوم به مع صديقه الصحفي، أخبره فيتورا أن مجال الصحافة ليس له حدود. لأنه يتدخل في شتى المجالات وليس قاصرًا على معلومات بعينها.

ولما أكد له أن الصحافة الأجنبية تدفع كثيرًا.. تهلل السيد محمود فرحًا.. وطلب بإلحاح من فيتورا أن يسعى عند صديقه الإنكليزي.. وأنه مستعد للتعامل معه كمراسل صحافي بالشكل الذي يرضاه.

وفي اليوم التالي ادعى فيتورا أنه اتصل بصديقه في أمستردام وعرض عليه الأمر، فوافق وطلب موافاته بعدة تقارير اقتصادية وتجارية وسياسية.. مع التركيز على ميناء الإسكندرية وكتابة بيانات شاملة عنه وعن الحركة التجارية والملاحية والتسويقية من خلاله.

فرح السيد محمود كثيرًا واستغرق عدة أيام في كتابة التقارير بعدما زار الميناء الحيوي.. للاستعانة بصداقاته هناك في الحصول على إجابات وافرة على العديد من التساؤلات.. ثم حزم حقيبته وسافر برفقة صديقه إلى أمستردام رأسًا حيث نزلا بفندق "أميركا" الفخم..

وفي الفندق.. زاره الصحافي البريطاني "ميشيل جاي طومسون"، الذي هو في الأصل ضابط مخابرات إسرائيلي، واستغرق وقتًا طويلاً في الحديث معه ومناقشته في ما جاء بتقاريره الهامة.. ووجد السيد محمود نفسه يعيش حياته السابقة من جديد حيث الخمر والنساء الجميلات.. وبخاصة "كريستينا" الرائعة التي قدمها له طومسون كصحافية تعمل معه. وغاب عنه ليومين تاركًا كريستينا معه وتحت إمرته.

كانت الفتاة اليهودية تعلم أنه زوج لاثنتين، وزير نساء خبير بأمورهن. ولذا كان عليها أن تكون مختلفة عن كل النساء اللائي عرفهن. فأبدعت في إثارته إلى درجة الهوس.. وفي حجرته بالفندق لم تسكره الخمر بقدر ما أسكره دلالها.. فتضحك العميلة المدربة في نعومة آسرة، وتخبره بأنها تعمل مع طومسون لصالح المخابرات الأميركية.. إضافة إلى عملها في "حلف شمال الأطلسي"، فلم يندهش العاشق الغارق أو يحس بمدى الخطر الذي يحيط به... وعندما جاءه طومسون، أبلغه تحيات فيتورا الذي سافر إلى أستراليا "حيث انتهت مهمته إلى هنا".

رجع السيد إلى القاهرة ومعه مئات الدولارات.. والعديد من الهدايا التي حرم من حملها لفترة طويلة. وأيضًا يحمل عدة تكليفات محددة عليه الكتابة عنها بتفصيل. وأغراه ضابط الموساد بمبلغ كبير لكل تقرير مفصل، يحوي معلومات قيمة لا تتوافر في المادة الصحافية المنشورة في الصحف.

وما هي إلا أسابيع حتى سافر إلى أمستردام مرة ثانية وبحقيبته عدة تقارير غاية في الأهمية، وإحصائيات عن حركة ميناء الإسكندرية اليومية.

إندهش طومسون لغزارة المعلومات التي جلبها تلميذ الجاسوسية الجديد، وأهدى إليه كريستينا لعدة أيام مكافأة له، فغيبت عقله وحركت بداخله كل إرهاصات النشوة وتياراتها المتلاحقة.

نوع آخر من النساء هي. دربها خبراء الموساد على التعامل مع المطلوب تجنيده بأساليب شتى... فيقع الضحية فريسة الرغبة الشديدة. فالعميلة المدربة تملك سلاح السيطرة على الضحية... هكذا تفعل عميلة الموساد التي تخرجت من أكاديمية الجواسيس في إسرايل بتربية عسكرية .. وترتقي وظيفيًا كلما أجادت استخدام لغة الجسد في "العمل".

فالجسد الأنثوي ـ مادة خصبة تجتذب ضعاف النفوس.. أمثال السيد محمود الذي نظر في بلاهة إلى فتاته حينما تصرخ وتخبره في ضعف أنها إسرائيلية تحبه وتعشقه وتعبده. وتكرر عليه القول فلا يهتم... وتفهم من ذلك أنه سقط.. سقط لآخره في عشقها وحبائلها.. ولأنه مغيب العقل فلا مفر من استسلامه.

وبعد عدة أيام، كان في طريقه إلى الإسكندرية، عميلاً للموساد الإسرائيلي. فهناك أحاديث سجلت له، وأفلام فاضحة تظهر لحظات ضعفه مع العملية المدربة، وهناك ما هو أهم: التقارير الخطيرة التي كتبها بيده.

أغمض عينيه ولم يهتم بالنداءات المستمرة التي كانت تصدر عن جهاز المخابرات المصرية.. والتي تعفي أي مصري تورط مع الموساد بشرط الإبلاغ الفوري.. وتجاهل كل تلك النداءات لظنه أن إبلاغهم بالأمر.. معناه حرمانه من

آلاف الجنيهات التي يحصل عليها مقابل عدة تقارير لا يبذل في جمعها مجهودًا يذكر.. فالمعلومات متوفرة بكثافة وكل معلومة لها ثمن يحدده هو حسب أهميتها. عليه إذن أن يبحث عن كل ما هو مهم لتزداد مكافآته. ويكبر راتبه الشهري الذي حددوه له بـ ٥٠٠ دولار.. مبلغ بلا شك من أين له بمثله إذا امتهن أيّ مهنة؟

كان يكتب تقاريره التفصيلية ويضمنّها كل المعلومات التي تصل إليه.. ويتوقع أرقامًا معينة ثمنًا لها.. ويسرع بالسفر إلى أمستردام كلما تضخمت لديه المعلومات ليجد في انتظاره كريستينا وطومسون... هي تمنحه ما تمنحه وتزيل عنه أعباء الخوف الذي يمتلكه عندما تنشر الصحف المصرية قصة القبض على جاسوس لإسرائيل.. وطومسون يعمل على إزالة الخوف منه بتدريبه على استخدام الشيفرة في الكتابة بالحبر السري.. وعلى استعمال الراديو لاستقبال التعليمات من خلاله بالشيفرة وطريقة حلها وأسلوب تنفيذها.. وتدريبه أيضًا على كيفية تمييز الأسلحة بالنظر. وكان طومسون يؤكد له بصفة مستمرة.. أن التدريب الجيد فيه تأمين له.. وحصانة ضد الخطأ الذي قد يقع به.. ويحثه دائمًا على الالتجاء إلى العلم.. وإلى التزوّد بالحس الأمني العالي لحماية نفسه.

ومع جرعة التدريب العالية التي نالها.. عاد السيد لاستئناف نشاطه بشهية مفتوحة ومحفظته متخمة بالأموال.. وحقائبه منتفخة ملأى بالهدايا.. وعرف أكثر قيمة كل معلومة يجمعها... خاصة المعلومات العسكرية.

ولما كانت مصادر معلوماته العسكرية معدومة.. فكر في تجنيد شقيقه الأصغر "أمين" المجند بالقوات المسلحة. فاستغل حاجته إلى النقود في مدّة تجنيده، للإنفاق على نفسه وعلى حبيبته التي يستعدّ للزواج منها. ولعب على هذا الوتر، وكلما أمد شقيقه بالنقود كلما أخضعه له.

لم يكن الأمر صعبًا على أمين هو الآخر.. فببعض معلومات عسكرية لا قيمة لها عنده.. يمنحه السيد مقابلاً كبيرًا لها، وعندما سأله أمين ذات مرة ضاحكًا: "هه يا أخي.. هل تعمل جاسوسًا"؟!

إنتفض كالملسوع واكفهر وجهه وقام على الفور وصفعه بشدة قائلاً:

"إياك أن تخبر أحدًا بهذا الأمر.. أنا أعطيك مبالغ طائلة مقابل معلوماتك، وكلمة واحدة وتنتهي حياتنا إلى الأبد".

وانخرس أمين ولملم جرأته وانغمس مضطرًا بسبب المال إلى الاستمرار في إمداد شقيقه بالمعلومات.

وذات مرة.. عرض عليه السيد أن يجلب له خرائط عسكرية.. ولوحات هندسية لتصميمات بعض المواقع الهامة. وتخوف أمين في البداية، وأمام إغراءات المال استجاب أخيرًا ولكنه ساومه على الثمن. وتفاصلا في المبلغ حتى اتفقا.

وعندما رأى طومسون الصور العسكرية واللوحات البالغة السرية.. احتضن الجاسوس الخائن وقال له "سأكتب حالاً بذلك إلى إسرائيل وسأطلب لك مكافأة سخية" وجاء الرد من تل أبيب يفيض كرمًا وسخاءً.

هذه المرة.. لم يهتم السيد كثيرًا بعشيقته التي لم تأت لمقابلته. بل انحصر اهتمامه في القيمة المادية التي سيحصل عليها ثمنًا لما أمدهم به. ولم يمكث كثيرًا بأوروبا إذ عاد على وجه السرعة.. حيث جاءه مولود جديد من زوجته غادة بعد محاولات فاشلة سابقة. وحيث ينتظره أخوه أمين.. الذي يجهّز شقته استعدادًا للزواج من حبيبته "توحة".

كانت حرب أكتوبر قد انتهت. وكثف أمين من نشاطه في تصوير المستندات العسكرية والخرائط قبل خروجه من الجيش إلى الحياة المدنية، وحرمانه من المبالغ

الخيالية التي يحصل عليها من شقيقه، وهذا ما أوقع بالخائن وبشقيقه في قبضة المخابرات المصرية..

فقد حامت شكوك حول مصادر المال الذي ينفقه أمين بشراهة. ولفت انتباه أحد زملائه اهتمامه بالحجرة التي تحوي تصميمات هندسية سرية لممرات الطائرات في المطارات الحربية.. وقواعد يجري إنشاؤها في عدة مواقع سرية.

ووصلت الشكوك إلى القائد الذي جمع التحريات عن الجندي أمين.. فاتضح له أنه يغدق بالهدايا على زملائه.. وأقام صداقات قوية للحصول على إجازات من القوات المسلحة يقضيها في اللهو والمجون.

وبوضعه تحت المراقبة هو وشقيقه السيد، كانت النتيجة الحتمية سقوطهما في قبضة المخابرات المصرية وهما في غفلة من الزمن لا يتصوران أن أمرهما قد ينكشف في يوم من الأيام.

هكذا فاجأ فريق من رجال المخابرات العسكرية شقة أمين.. وتم العثور على وثائق عسكرية هامة.. تحوي خرائط ولوحات لمواقع استراتيجية .. اعترف أمين في الحال أنه جلبها لشقيقه السيد مقابل مائة جنيه.. وبمداهمة شقة السيد وجدوه يخبئ وثائق أخرى بجيب سرّي بقاع حقيبته.. فانهار لا يصدق.. وأخذ يلطم خديه ويردد:

"الطمع والنسوان ضيَّعوني.. وأنا أستاهل".

وضبطت لديه كل أدوات التجسس.. الأحبار السرية.. جهاز الراديو.. جدول الشيفرة.. الكاميرا.. إلخ.

واستمر التحقيق معهما، ابتداء من ٢٨ آذار ـ مارس ١٩٧٤ حتى كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٧٤ حيث اعترفا خلاله بتهمة التجسس لصالح المخابرات الاسرائيلية..

وعندما نطق القاضي بالحكم دوت صراخات عالية في القاعـة من ثلاثـة نسـاء.. كن إخلاص وغادة وتوحة. واقتيد السيد محمـود ليقضـي ٢٥ عامًا فـي أحد سـجون الصحراء. وكان منظرًا عجيبًا في قفص المتهمين بالمحكمة، إذ أمسك أمين بتلابيب شقيقه الأكبر وغرس فيه أظافره وأنيابه وهو يصرخ: "إنـت السبب يـا مجرم. أنـا ح أقتلك.. ح أقتلك.. ضيعت خمستاشر سنة من عمري أونطة يا......".

وباعدوا بينهما واقتيد كل منهما في عربة مصفحة حيث ينتظرهما مصـير أسـود.. لا ضوء فيه ولا شعاع[1]..

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص١٥٥ ـ ١٦٤.

الجاسوس الذي انتحر قبل إعدامه

في الأول من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٧، امتلأ منزل الحاج عبد المعطي بلفيف من الأهل والأصدقاء جاءوا يباركون مقدم مولوده الأول "رجب". ولأن الحاج عبد المعطي تاجر مشهور في "حي القباري" بالإسكندرية، فقد انهالت عليه الهدايا من حيث لا يدري. فالمولود جاء به انتظار طويل مليء بالقلق والصبر والترقب، وتجارب لا حصر لها مع الأطباء والأدوية، وفي شهر رجب... جاء رجب.

بعد عدة أشهر، حمل الرجل وزوجته أمتعتهما وحطّا الرحال بالأرض الطاهرة ورفعا أيديهما عند الكعبة من الخالق جل شأنه أن يبارك لهما في رجب ويشكرانه على "عطيته".

شب الوحيد نبتًا طريًا يأكل بملعقة من ذهب كما يقولون، فقد وفر له أبوه كل أسباب الرغد، وجعل منه شابًا خنوعًا مدللاً كان مدعاة لأن يخفق إخفاقًا ذريعًا في الحصول على الثانوية العامة، ومع عدة محاولات أثمرت جميعها عن خيبة أمل للأب، اغترّ الابن وأوهم نفسه بأن له من العقل ما لم يملكه غيره، ويستطيع، بدون شهادات، أن يصبح رجل أعمال مشهورًا ينافس عمالقة السوق والميناء، ووسوس له الشيطان أنه فقط بحاجة إلى فرصة يثبت من خلالها أنه عبقري زمانه الملهم.

حاول الحاج عبد المعطي إفاقة ابنه من سكرة الغرور وإعادته إلى طريق الصواب ففشل، إذ سيطرت على رجب عبقرية كاذبة نشأت من فراغ العقل والثقافة، وصار يحلم ليل نهار بـ"شركة رجب للخدمات البحرية".

ولمّا امتنع والده عن إمداده بالمال اللازم حتى يتحصن بالخبرة، وافق رجب مضطرًا على العمل في وظيفة كاتب حسابات بميناء الإسكندرية، إرضاء لوالده. واستغرق في عمله الجديد حتى توسعت مداركه واستوعب الكثير من الخبرة بعد الاحتكاك الفعلي بالحياة.

بعد ثلاث سنوات من العمل في الميناء، لم ينسَ حلمه الكبير، ففاتح أباه، وهذه المرة كان عنده إصرار عنيد على ألا يتراجع. فلما عارضه والده بشدة غادر المنزل غاضبًا، وتحت ضغوط الأهل والأصدقاء، رضخ الأب أخيرًا أمام رغبة ابنه وأمدّه بعدة آلاف من الجنيهات، وهو على ثقة من فشله وخسارته. وغمره هذه المرة أيضًا إحساس بندم شديد لأنه دلل ابنه وفتح له منذ الصغر خزنة أمواله يسحب منها كيفما يشاء، وتمنى بينه وبين نفسه لو أن الزمن عاد به إلى الوراء فيقوم على تربيته بالشكل الصحيح، وينشئه فتًى معتمدًا على ذاته، فيشب رجلاً يعرف قيمة العلم والقرش، ويدرك جيدًا أن للحياة ألف وجه ووجه، ولكن... فات الوقت وحُسم الأمر.

من ناحية أخرى، كان رجب يدرك ما يدور بعقل والده، وأراد أن يؤكد له كذب ظنه واعتقاده، فتوسع في أعماله دون خبرة كافية بمنحنيات السوق وتقلباته. وكانت النتيجة المؤكدة خسارة جسيمة مُني بها، وفشلاً ما بعده فشل، وديونًا تزاحمت بأرقامها دفاتره.

وجاءت نكسة حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ وعمّت حالة كساد ازدادت معها الأمور سوءًا، وحاول رجب باستماتة أن يقاوم التيار القويّ، فخارت قواه وغرق في ديونه، وقام بتصفية الشركة وحزم حقائبه ووجد نفسه على ظهر مركب يشق مياه البحر إلى ميناء "بيريه" في اليونان.

نزل رجب في اليونان وحاول جاهدًا أن يعثر على عمل لكنه باء بالإخفاق، فلجأ إلى بحار يوناني يدعى "زاكوس" ربطتهما معًا إحدى سهرات الإسكندرية، وكذب عليه مدعيًا أنه ينجز إحدى صفقاته التجارية، واستولى منه على خمسمائة دراخمة وهرب إلى "أثينا" العاصمة، حيث ضاقت به المدينة الساحلية الساحرة، ووجد أن الحياة في أثينا أكثر ضجيجًا وحركة.

وفي بنسيون "زفريوس"، جلس يفكر في ما وصل إليه من حال سيئة: لقد مر به شهر تقريبًا ولم يعثر على عمل بعد. إنه الآن عاطل عن العمل ينفق ليعيش، وعما قريب ستنفذ دراخماته فماذا سيعمل؟ هل ضاقت به الحياة أيضًا في أثينا؟

مئات من المصريين جاؤوا إلى اليونان يعملون في أي شيء وكل شيء، لكنه يبحث عن عمل من نوع آخر يتناسب وعبقريته. وكثيرًا ما حدّث نفسه قائلاً "لا أحد يفهمني في هذا العالم"... لقد صور له خياله أنه مضطهد، ومعظم عباقرة العالم اضطُهدوا أيضًا قبله، وها هو يواجه قوى الاضطهاد التي تطارده أينما حل وعليه بالصبر حتى يكتب له النجاح.

وبينما هو يتجول في شارع "سوفوكليس"، التقى بشاب مصري من "برديس" جنوبي "سوهاج"، يعمل في مصنع للعصائر، عرض عليه أن يعمل معه في قسم التغليف، لكنه أبى بشدة أن يعمل بوظيفة تافهة كهذه، واستعرض له سيرة حياته السابقة في مصر، فما كان من الشاب الصعيدي إلى أن نصحه بالعودة إلى الإسكندرية لكي لا يقع فريسة سهلة في قبضة المخابرات الإسرائيلية، التي تتصيد الشباب المصري العاطل عن العمل في اليونان، وتغريه بالعمل معها مقابل مبالغ كبيرة... وسخر رجب في داخله من نصيحة الشاب له بالعودة، فقد كان والده يعاني الأمرّين من حجم الديون التي خلفها له ومن مطاردة الدائنين له في المتجر كل يوم.

تزاحمت الأفكار في رأس رجب وغمرته إحساسات اليأس من صلاح أمره في أثينا، والخوف من العودة يجر أذيال الخيبة والفشل، وداهمه شعور بالضآلة وقال لنفسه "لن أيأس... لن استسلم أبدًا مهما حدث".

أيقظته دقات الباب من أفكاره. وكان الطارق موظف حسابات البنسيون. فطلب منه إمهاله عدة أيام، وما كانت جيوبه تحوي سوى دراخمات قليلة لا تكفي لأسبوع واحد إلا بالكاد.

هرب منه النوم واختنق صدره واهتزت أمامه الرؤى، وعندما تذكر مقولة الشاب الصعيدي "المخابرات الإسرائيلية تدفع الكثير" قال لنفسه: "لن أخسر أكثر مما خسرت" وأمسك بالقلم ليكتب:

السيد المبجل سفير دولة إسرائيل في أثينا.

أنا موظف مصري أقيم في بنسيون زفيروس. ضاقت بي الدنيا وظلمتني في الإسكندرية وفي أثينا. قال لي البعض إنكم تمدون يد المساعدة لكل من يلجأ إليكم وأنتم الملجأ لي. فأرجو أن أنال عطفكم واهتمامكم.

رجب عبد المعطي

أثينا ١٩٦٧/١٢/٢٧

ولم تكد تمر ثلاثة أيام، حتى فوجئ بمندوب من السفارة الإسرائيلية ينتظره في صالة الاستقبال، فاصطحبه إلى السفارة وهناك قابلوه بود وقالوا له:

- وصلتنا رسالتك ولم نفهم منها ماذا تريد بالضبط؟

أجاب بصوت يغلفه الرجاء: أريد أن أعمل في أثينا.

سلمهم جواز سفره وتركوه ثلاث ساعات بمفرده، ثم جاؤوا له باستمارة من عدة صفحات، تحمل اسم السفارة وشعار دولة إسرائيل، وطلبوا منه أن يملأها ويكتب سيرة حياته وأسماء أصدقائه وأقاربه ووظائفهم.

وبعدما تبين لهم أنه أمضى ثلاث سنوات في العمل داخل ميناء الإسكندرية، طلبوا منه أن يكتب تقريرًا مفصلاً عن الميناء وأهميته الاقتصادية والعسكرية ففعل. واستعرض ما لديه من مظاهر "العبقرية" الفذة في شرح كل شيء عن الميناء بتفصيل مطول، فأذهلتهم المعلومات التي كتبها عن الميناء، وأدرك ضابط الموساد الذي شرع في استجوابه بأنه وقع على كنز ثمين عليه أن يعمل على استثماره و"حلْب" ما لديه من معلومات.

وفي الحال سددوا حسابات البنسيون كافة ونقلوه إلى فندق "أورفيوس"، وأعطوه مائتي دولار أميركي، وتركوه عدة أيام يمر نهاره وهو يغط في سبات عميق، وفي الليل يتذوق طعم السهر في حانات أثينا ومرابعها المتحررة، ويصاحب أجمل فتياتها وداعراتها في شارع "أرستيديس" الشهير. وعندما نفذت نقوده تمامًا ودّ لو عاد إليه مندوب السفارة الإسرائيلية ببعض المال ليكمل مسيرة اللهو والسكر.

وحدث ما توقعه، وجاءه المندوب بمائتي دولار أخرى، فاستغرق في مجونه وتمنى لو استطاع أن يفعل أي شيء في سبيل أن يحيا حياة مرفهة في أثينا.

أغرقته المخابرات الإسرائيلية بالمال حتى اطمأن إلى رجالها، وكلما نفذت نقوده ذهب بنفسه لمقابلة أبو إبراهيم في السفارة الإسرائيلية يعرض عليه خدمات مقابل الدولارات التي يأخذها، فيؤجل ضابط الموساد الحديث في هذا الأمر لوقت آخر، وينصرف رجب بالنقود فيرتع بين الحسان وهو يختال اختيالاً.

إن المال والنساء أهم أسلحة أجهزة المخابرات. بل هما الأساس الذي تبنى عليه عملية صنع جاسوس أو اصطياد عميل. وأجهزة المخابرات ليست بالسذاجة التي تجعلها تنفق الملايين لاصطياد ضعاف النفوس والخونة الذين يسهل شراؤهم بالمال والفساد، ولذلك أقامت فروعًا لها ومكاتب في الخارج تحمل أسماء شركات وهمية لا نشاط حقيقي لها سوى البحث عن الخونة. ويعمل بهذه الفروع ضباط مخابرات على أعلى مستوى من الخبرة والكفاءة، وتخول لهم سلطات واسعة، وتحت أيديهم مئات الآلاف من الدولارات، وطابور طويل من السكرتارية والمساعدين الأكفاء، بخلاف أجمل الفتيات اللاتي اخترن الطريق الصعب وخطون خطوات طويلة من الخبرة والحنكة. فهن يعرفن عملهن جيدًا ويبدعن فيه وطريقهن إلى الإبداع يبدأ وينتهي بالجسد، إنه السلاح السحري الذي يقتل مقاومة الرجل الهدف، ويحرك فيه غريزته المجنونة التي تحيله إلى إنسان بلا عقل أو إرادة.

والمخابرات الإسرائيلية، الموساد، تفوقت كثيرًا في هذه الأمور، وأصبحت أكثر أجهزة المخابرات خبرة في استخدام لغة الجسد، تلك اللغة التي يفهمها الجميع ولا تحتاج إلى مترجم أو قواميس لتفسير مفرداتها، ولكن الذي لا يعرفه أحد، أن الخونة الذين يسقطون في براثن الموساد، يتحولون في لحظة ما إلى مجرد بهائم تدور في الساقية، تطاردهم سياط الأوامر والطلبات التي لا تنتهي أبدًا. وأنها بقدر ما تدفع تريد في المقابل أضعاف ما دفعته، وعندما يجف معين عميلها تنبذه كالكلب الأجرب وتلقيه في زوايا الذل والنسيان، وتعامله كخائن باع وطنه وأهله، ولا قيمة لإنسان فقد انتماءه، وسلك كل المسالك نحو المال واللذة.

لم يدرك رجب عبد المعطي هذه الحقائق بل اندفع بكل ثقة باتجاه المخابرات الإسرائيلية، وصادق الكثير من ضباطها في أثينا، ظنًا منه أنهم سينقذونه من شبح

الإفلاس الذي تعلق بتلابيبه ولا يود مفارقته. ورحب كثيرًا بضابط الموساد، أبو إبراهيم، الذي فوجئ به يزوره في حجرته بالفندق الفخم، ويحدثه طويلاً عن أزمة الشرق الأوسط والوضع المتفجر في المنطقة بسبب الحروب مع العرب، وحقهم في أن يعيشوا فوق أرض الميعاد في سلام وأمان، وأنهم ليسوا شعبًا يحب سفك الدماء بل أمة مشردة ضعيفة تسعى إلى العيش في هدوء بلا حروب أو صراعات.

واستعرض أبو ابراهيم في سرد أساطير وأحاجي اللص الذي يبرر مشروعية سرقاته. ثم سأل رجب فجأة: هل ترحب بالعمل معنا لصالح السلام؟

ردّ رجب الابتسامة تملأ وجهه: بالطبع.. ولكن.. أي عمل بالتحديد؟

أخرج ضابط الموساد الخبير أربع ورقات ذات المائة دولار ودسها في يد رجب وهو يقول: أنت كثير الأسئلة.. هل تعتقد أننا نريدك سفيرًا لنا في مصر؟

- إذن.. ما هو المطلوب مني؟

- لا تسأل كثيرًا لكي لا أغضب منك.. عليك فقط أن تعرف أننا أصدقاء.. وأن لكل حديث أوان.

هزّ رجب رأسه علامة على الرضوخ والطاعة ولحقه أبو إبراهيم بسؤال ذي مغزى:

- هل لك صديقة في أثينا؟

أجاب على استيحاء:

- هجرتني فتاة تدعى "انكسيميندرا" لأنني لا أعرف اللغة اليونانية وقد ضاقت بإنكليزيتي الركيكة.

- أوه.. أتقصد تلك الفتاة التي يملأ النمش وجهها؟ دعك منها وسوف أعرفك بفتاة رائعة تتحدث بالعربية وستكون معك ليل نهار في أثينا.

تهلل وجهه وارتفع حاجباه دهشة وقال: - أين هي؟ أريدها حالاً..

- ستكون إلى جوارك في الطائرة أثناء رجوعك من تل أبيب.

بهت رجب ووقف فجأة كالملسوع وقال بصوت متلعثم: - تل أبيب؟

- نعم..!!

بسرعة قالها ضابط الموساد بلغة الواثق، وأضاف كأنه يأمره بتنفيذ قراره الذي لا رجعة فيه:

- ستسافر إسرائيل بعد عدة أيام. وفي الغد عليك أن تحضر إجتماعًا مهمًا في السفارة لمناقشة خطوات تنفيذ هذا الأمر، فهل عندك اعتراض؟

هربت الكلمات وغاصت في قرار عميق... وأجاب رجب الذي بدا كالأبله لا يضبط خلجاته:

- لا..لا.. أنا لا أعترض.. إنها مفاجأة لي.

- عندما كتبنا تقريرًا عنك وأرسلناه إلى إسرائيل، طلبوا منا أن نأخذك في رحلة سريعة إلى هناك ليتعرفوا عليك أولاً. وثانيًا هناك مفاجأة سارة تنتظرك. وثالثًا: لتختار صديقتك بنفسك من بين أجمل فتياتنا وتصحبها معك إلى أثينا.

سكت رجب ولاحقه أبو إبراهيم:

- المخابرات الإسرائيلية إذا أعطت فهي سخية بلا حدود. وإذا غضبت ومنعت فطوفان من الهلاك قادم. وثق يا رجب أننا ودودون معك إلى أقصى درجة..

أعطيناك أكثر من ألف وخمسمائة دولار حتى الآن ولـم نطلب منك أدنـى شـيء. ألا يدل هذا على كرم منا أيها المكار؟

وربت كتف رجب الغارق في ذهوله وهو يقول فـي لغة ظاهرها الثقة وباطنها التهديد والبطش:

- عليك ألا تضيع هذه الفرصة.. انتهزها.. واركب قارب النجـاة تنجُ بنفسك من الطوفان والهلاك.

وعندما قام ضابط الموساد منصرفًا لم يستغرق رجب في التفكير كثيرًا. لقد ثبتت لديه النية واتخذ قراره، ولم يذهب إلى سريره لينام بل خرج ينزف دولارات الموساد على الخمر والنساء وهو ويمني نفسه بالجارية الإسرائيلية التي ستكون تحت إمرته. وفي الصباح الباكر كان يقف أمام باب سفارة إسرائيل تعلوه سحابة انكسار وبعينيه بريق خنوع ديّوث باع لحمه لمزايد!!

إستغرق الاجتماع به نحو الساعة، كانوا أربعة من ضباط الموساد في أثينا وخامسًا جاء من فيينا كان يبدو أنه أكبرهم دراية بالتعامل مع الخونة وتطويع الجواسيس. طلب من رجب أن يرسم له خريطة الميناء في الإسكندرية وأين يقع مكتبه بالضبط، وفوجئ رجب بماكيت مصغر للميناء دخل به موظفان ووضعاه على منضدة تتوسط الحجرة...

أخذ رجب يشرح بتفصيل أكثر معلوماته عن الميناء. بل ويحدد أماكن مخازن التشوين التجارية، ورصيف الميناء الذي يستقبل السفن الحربية السوفياتية، وسفن الشحن التي تجيء بالأسلحة المختلفة من ميناء "أوديسا" السوفياتي على البحر الأسود، ومخازن تشوين السلاح المؤقتة، وبوابات التفتيش والمداخل والمخارج.

وهكذا استمر يشرح لهم أسرار الميناء الحيوي، ولم يتركوا أدق التفاصيل إلا وسألوه عنها ثم طلبوا منه الانصراف والعودة صباح اليوم التالي ومعه أربع صور فوتوغرافية وجواز سفره. وبعد أن سلمهم الصور تسلم منهم وثيقة سفر إسرائيلية ذُكر بها أنه إسرائيلي من تل أبيب واسمه "دافيد ماشول". تسلم كذلك تذكرة سفر بالدرجة السياحية، أثينا ـ تل أبيب ـ أثينا، على شركة العال الإسرائيلية، وأوصله مندوب من السفارة إلى المطار، وتأكد من صعوده إلى الطائرة المتجهة إلى إسرائيل.

عندما جلس رجب في مقعده بالطائرة كان جسده يرتجف بشدة، وتشوشت أفكاره للدرجة التي أصبح فيها كالمخمور الذي فقد تركيزه واتزانه، وسرعان ما استعاد ثقته بنفسه وهو يرسم في خياله أحلام الثراء الذي ينتظره، ووجه الفتاة المليحة التي سيختارها في إسرائيل. وخطرت بباله فجأة فتاة من بور سعيد اسمها "مايسة" كانت قد هاجرت مع أهلها إلى "المنصورة"، وتعرف عليها في إحدى الحفلات العائلية، وأحبها بسرعة إيقاع عجيبة، وافترقا أيضًا بلا وداع. لماذا خطرت بباله في تلك اللحظة بالذات؟ ضحك بصوت مسموع فرمقته سيدة تجلس بالقرب منه بنظرة تعجب وابتسمت... وأغمض عينيه ثم نام، واستيقظ والطائرة تحوم فوق مطار "بن غوريون" تنتظر الإذن بالهبوط.

وعلى سلم الطائرة صافحه ثلاثة رجال، ثم أدخلوه سيارة مسدلة الستائر كانت تنتظر بقرب أسفل جناح الطائرة، سلكت به اتجاهًا آخر بعيدًا عن بوابة خروج الركاب والجوازات، ووجد نفسه في شوارع تل أبيب وهو لا يصدق عينيه...

وفي بيت يشبه الثكنة العسكرية على أطراف تل أبيب، أدخلوه إحدى الشقق المخصصة لأمثاله من الخونة، حيث كانت تنتظرهم بها فتاة رشيقة صافحته بحرارة،

ورحبت به بالعربية، فسره ذلك كثيرًا، وقالوا له إن "زهرة" ستظل على خدمته طوال إقامته في الشقة.

وتركوه ليستريح بضع ساعات وعادوا إليه ثانية فصحبهم لمبنى المخابرات الإسرائيلية في شارع الملك شاؤل بوسط المدينة، وكان في استقباله عدد كبير من كبار رجال الموساد. ولعدة ساعات أخضع لتحقيق واستجواب تفصيلي لكل ما كتبه عن ميناء الإسكندرية.

كان الاجتماع مغلقًا على الضباط المختصين والمحللين الذين أدركوا ميوله للنزعة العسكرية، وكان ذلك واضحًا جدًّا من خلال إجاباته الحاسمة، التي تشبه إجابة عسكري مدعومة بلغة عسكرية بحتة، وتغلفها تفاصيل استراتيجية دقيقة لا ينتبه إليها الرجل المدني الذي لم يجند بالقوات المسلحة.

وفي ختام الاجتماع أعد له حفل استقبال كبير في إحدى القاعات بالمبنى، حضره عدد أكبر من ضباط الموساد ورؤساء الأقسام، وتم منح رجب عبد المعطي رتبة "رائد" في المخابرات الإسرائيلية، ولم يضيعوا وقتهم كثيرًا في مظاهر الترحيب، إذ أعدوه لدورة مكثفة بدأها ضابط بمحاضرة طويلة عن "ذراع إسرائيل الطويلة"، وأنها تجعل العدو يرتجف رعبًا، وتمنح الإسرائيليين القدرة على النوم في هدوء. وأن الموساد نجحت في حل الكثير من مشاكل الدولة اليهودية وهي على استعداد للقيام بمهام أخرى. وأن عمليات الموساد ليست على درجة أقل أهمية، بل هي أساس شهرتها.

وجاء ضابط آخر كانت مهمته تدريبية فنية تتعلق باستخدام الشيفرة والاستقبال بواسطة موجات خاصة بالراديو، وبعد أيام أجاد رجب استقبال الرسائل المشفرة وترجمتها بسرعة. وكان عليه اجتياز دورة أخرى مهمة، وجاءته هذه المرة ضابطة

شابة تتحدث العربية بطلاقة شرعت في تدريبه على كيفية استخدام الحبر السري في الكتابة وقراءة الرسائل المرسلة إليه بالحبر السري أيضًا، وكذلك استعمال شيفرة خاصة للمراسلة لا يكتشفها أحد.

إستمرت برامج الدورة التدريبية المكثفة خمسة عشر يومًا كانت عصيبة ومرهقة. وبعد أن اجتاز رجب الاختبارات بنجاح مذهل، رافقته زهرة إلى منتجع خاص آمن يقع على بحيرة طبرية، وهناك أذاقته من أنوثتها ما أحار فيه العقل وأذهل الشعور. قالتها له صراحة إنها هدية له لاجتيازه الاختبارات وتعاونه مع المخابرات الإسرائيلية بإخلاص، بل وأكدت له أنها عبدة له يفعل بها ما يشاء، وعندما صارحها بأنه يستريح إليها ويود لو صاحبته إلى أثينا وعدته بأن تعرض طلبه على رؤسائها.

وفي تل أبيب، أخبره الضابط المسؤول بأنه سيعود إلى الإسكندرية مرة أخرى ليعاود نشاطه السابق في "شركة رجب للخدمات البحرية". وأنهم سوف يمدونه بالأموال اللازمة لإحياء شركته وتجديدها، ولكي يتم تنفيذ ذلك عليه أن يمكث عدة أشهر في أثينا، ويشيع بين المصريين العائدين إلى مصر بأنه يمارس أنشطة تجارية رابحة جدًا في أثينا، ويجب عليه أن يتأكد من وصول هذه الأقاويل إلى مصر وإلى أهله بالذات.

لقد تمكنوا خلال تلك المدة من تدريبه على كيفية إعداد التقارير وتخليص الجمل واختصار عدد الكلمات. هذه الدورة المكثفة زرعت بداخله إيمانًا حقيقيًا واهمًا بأنه صاحب رسالة مهمة أوكلت إليه. وبرغم أنهم بثوا لديه الثقة في مناعة المخابرات الإسرائيلية ضد كشف عملائها في الدول العربية، واستماتتها في استردادهم حال القبض عليهم، إلا أنه أحس بالتعاطف معهم بعد عدة محاضرات عن تاريخ اليهود، واضطهادهم على مر الأحقاب والعصور، ومحاولات إبادتهم التي أسفرت عن

تشريدهم ومقتل الملايين منهم، وكانت آخر المحاولات تلك التي قام بها أدولف هتلر الذي أقام معسكرات لتجميع اليهود ثم حرقهم في محارق خاصة لاستئصال كل يهود أوروبا، وهكذا حشوه بأكاذيبهم المضللة لكسب عطفه.

وعندما عاد رجب إلى أثينا وبرفقته زهرة، كان بداخله إصرار غريب على التعاون مع الموساد لحماية إسرائيل وأمن إسرائيل، من التهديد العربي، الذي يدعو إليه جمال عبد الناصر، وإصراره على إلقاء اليهود في البحر ليتخلص منهم... وترسب بداخله اعتقاد بأن عبد الناصر ما هو إلا هتلر جديد جاء ليبيد اليهود الذين يدافعون عن أمنهم وحقهم في أن يعيشوا في سلام.

غادر رجب مطار بن غوريون في تل أبيب في طريقه إلى أثينا ترافقه "زهرة"، جميلة الجميلات والعبدة التي تحدثه بلغته وبلغة الجسد الناطقة.

لم تكن مهمتها إفراغ ثورات رجولته المشتعلة دائمًا بقدر ما كانت رقيبة على سلوكه وتصرفاته، وتمتحن إخلاصه للمخابرات الإسرائيلية بين آن وآخر. وكلما حاولت تصيّد أخطائه وجدته أكثر منها إخلاصًا لليهودية، وإيمانًا بحق الإسرائيليين في القدس وسائر أرض فلسطين.

إستأجرت له المخابرات الإسرائيلية شقة صغيرة في حي "دميتير" الهادئ، وهيأت له أسباب العيش والرخاء والإمتاع الكثير، لتجعله لصيقًا بهم يدور في فلكهم لا يستطيع فكاكًا. وعلموه كيف يتعامل مع المصريين الوافدين إلى اليونان للسياحة أو للبحث عن عمل. فالذين جاؤوا للسياحة خصص لهم بعض الوقت وصحبهم للمزارات السياحية والأسواق والمتاحف، وأفاض في خدماته إليهم وحمّلهم الهدايا إلى أهله بالإسكندرية تأكيدًا على تيسر أحواله وظروفه المالية في الخارج. وبدون توصية كانت حياته المختلفة تنقل إلى والده من خلال المصريين العائدين إلى مصر.

صور وجوانب مشرقة رسمتها المخابرات الإسرائيلية بإحكام شديد، وأضفت عليها هالة من النجاحات أثلجت صدر أبيه بعدما فقد الأمل في ابنه. وأرسل رجب خطاباته واصفًا في إسهاب عمله المزعوم في إحدى الشركات الكبرى، التي استوعبت مواهبه واكتشفت فيه عبقرية فذة دفعت بها إلى الأمام بعد تعثر طويل، فارتقى في وظيفته واحتل مكانه مهمة في بلاد الإغريق. وأكد ذلك للأب كل من حملوا إليه هدايا ابنه الرقيقة له ولوالدته ولأصحابه. وضمت خطاباته صورًا فوتوغرافية مختلفة في مكتبه وفي مسكنه، وفي إحدى رحلاته إلى جزر بحر إيجه حيث الشاطئ يموج بالحسناوات يرتدين البكيني، ويطاردن شبح الملل بالرقص واللهو.

لكل هذه المظاهر المزيفة، صدق الأهل بالإسكندرية ما تبوأه رجب من نجاح، فأرسل إليه والده يرجوه أن يعود إلى وطنه مرة ثانية ليعاود نشاطه من جديد، وليؤكد نجاحاته على أرض وطنه بعدما صُقلت شخصيته، ودرج على القيام بمهام صعبة أوصلته إلى القمة، فاستمهلته رجب بعض الوقت، وانشغل بالسعي مع المصريين القادمين بحثًا عن عمل في أثينا، فكان يصحبهم، بترتيب دقيق من الموساد، إلى الشركات البحرية في بيريه، وإلى شركات تجارية أخرى في أثينا، على أمل أن يسقط من بينهم شاب آخر في براثن المخابرات الإسرائيلية.

لأجل ذلك اختلط العميل الخائن بالمصريين المقيمين باليونان ووطد علاقاته بهم، وتعددت خدماته ومواقفه تجاه كل من يلجأ إليه، فأحبه الشباب المصري هناك، ووجدوا فيه صورة المصري الشهم النبيل، في حين أنه كان يدير حوارات سياسية معهم، ويسجل تقارير مطولة تحمل بين سطورها خسة نيَّاته القذرة في خدمة جهاز مخابرات العدو، فبدا كما لو كان قد اندرج لسنوات طويلة في صفوف أكاديمية

الجواسيس في إسرائيل، وأعيد تدريبه في أثينا على استخدام الحس الأمني والملاحظة والتمويه والخداع. وهذه كلها أمور أسهب في شرحها "فيكتور أوستروفسكي" في كتابه: "الموساد" حيث بيَّن لنا كيفية صنع جاسوس محترف في إسرائيل بواسطة أمهر الخبراء وأحدث دراسات علوم المخابرات والجاسوسية في العالم.

فقبل أن يخرج الجاسوس من مخبئه ليمارس وظيفته، يخضع لبرنامج مكثف لا بد له من أن يجتازه بنجاح، وهو عن "خداع المراقبة". ويدرك جيدًا إذا ما كان قد "ألقى بظلاله" أم لا. ومن النافذة يستطيع أن يرى الشخص الذي يقتفي أثره، وكيف تابعه. وعندما يلقى الجاسوس الظل، وخاصة عند الخروج من فندق - مكتب - متجر، سيجري بسرعة لمدة خمس دقائق، ويسير بعدها في خط متعرج إلى أحد المباني ويبحث عن نقطة مراقبة ليراقب. وهذه الطريقة ستعطي الجاسوس الفرصة ليعرف أسلوب المراقبة، وعليه حينئذ أن يمتنع عن إثارة أيّ شبهات أو إتمام عمل، ويركب وسيلة مواصلات إلى مكان آخر بالمدينة خلاف الذي كان يقصده.

هكذا تدرب الجواسيس وأيقنوا أن هذا التصرف يتعلق بتكتيك السلامة الذي يجب أن يتبعه كل جاسوس. خاصة إذا كانت ظروف عمله معرضة لبعض الشكوك.

واتبعت الموساد أيضًا مع رجب ذات النظرية التي شرحها "ديفيد تلبيني" في كتابه: "فرق الرصد" عن كيفية الإثارة التي تتولد لدى الجواسيس والعملاء الصغار من ذوي "الميول المظهرية"، وقد كان الخائن رجب يعشق اللكنة العسكرية في الحديث، والمرافعات العسكرية في الوصف ولو لم يلتحق بالقوات المسلحة، وعندما لاحظ خبراء الموساد هذا الاتجاه منحوه رتبة رائد في الجيش الإسرائيلي إشباعًا لغروره.

لم تكن زهرة فتاة فراش للجواسيس الجدد، بل إنها عميلة مدربة أخضعت فكريًا ومعنويًا وجسديًا لخدمة الموساد. عميلة تؤدي عملاً مهمًا وأساسيًا لصالح إسرائيل. وجسدها أحد أركان هذا العمل الأساسية.

إنها تستغل جسدها في تطويع الجواسيس وربطهم بها، حيث درست وتعلمت أن لكل رجل عادات وميولاً خاصة تظهر جلية عندما يتجرد من ملابسه أمام امرأة عارية. قد تكون ميوله سوية أو شاذة لا يهم، فإن لديها القدرة على احتواء كل أنواع الرجال وإشباعهم وتأكيد رجولتهم وتضخيمها. إن الجنس بالنسبة إليها عمل مهم، وتترقى من خلاله وظيفيًا ومهنيًا إذا ما أبدعت فيه مع الخونة الذين يجري إعدادهم، وتنال شهادات شكر وتقدير بعد تطويعهم.

لذا، لم يكن وجود زهرة على مسرح الحدث عملاً ثانويًا يحسب على جهاز المخابرات الإسرائيلي. إنه جزء مكمل لتعمية العميل عن الحقائق والثوابت، وإخضاعه بتصويره في أوضاع شاذة تظهر مدى ضعفه، وخلق دفء عاطفي يزيل غمامة الخوف التي قد تؤثر في إقدام العميل فينشط ويبدع ويقوم بعمله خير قيام.

مر عام ونيّف ولم يزل رجب في أثينا في حضن المخابرات الإسرائيلية يترقب موعد رجوعه إلى الإسكندرية. وعندما اعتقد أنه هيأ "الجو" لعودته، تحدث مع أبو إبراهيم ضابط الموساد في السفارة الإسرائيلية الذي أمهله عدة أيام ليكتب بذلك إلى رؤسائه، ولما جاءت الموافقة، أشاع رجب خبر عزمه على العودة إلى مصر غانمًا بآلاف الدولارات التي جمعها من "أعماله الناجحة" في اليونان. وعندما أشار عليه البعض بإكمال مسيرة النجاح دون العودة، موقتًا، إلى مصر، تملكته نعرة الوطنية المزيفة، وأقسم ألا يحرم وطنه من خبرته وعبقريته التي يشهد بهما الأجانب. وأقيم

حفل وداع صغير في أحد الفنادق حضره بعض المصريين الذين صادقهم هناك، وبعد نهاية السهرة حمل حقائبه وتوجه إلى المطار في طريقه إلى القاهرة.

كان الجو قائظًا في أيلول - سبتمبر ١٩٧٠ والإسكندرية لا زالت تموج بعشرات الآلاف من المصطافين الذين هربوا من لسعة القيظ وحرقه الوهج إلى الشواطئ الممتدة الجميلة. وفي شقة الحاج عبد المعطي كانت جموع أخرى من البشر تتوافد لتهنئ الرجل بسلامة وصول ابنه الوحيد من اليونان.

كان الرجل أسعد الناس على سطح الأرض، وجهه يتهلل بشرًا وسحنته تضحك خطوطها ويرقص قلبه طربًا. والخائن لا يستحي وهو يحكي عن عبقرية مزعومة، ويختلق أقاصيص الوهم التي لقنته إياها مخابرات العدو، فأفاض في الحديث والوصف وأضفى على نفسه بطولات وبطولات.

وبعدما استقر به المقام عدة أيام، اصطحب مهندس الديكور إلى مكتبه القديم حيث كانت لافتة "شركة رجب للخدمات البحرية" قد تشققت قشرة خشبها. وبالداخل كان العنكبوت قد نسج خيوطه فخيمت على كل شيء وبدا المكتب كمقبرة مهجورة.

وبينما كان المهندس يشرح له تصورات وتخيلات الشقة بعد تجديدها، حدث زلزال هز أعماق مصر كلها وضرب فيها الأمل والأمان، وزحفت جموع الشعوب العربية لهول الصدمة عندما أعلن موت جمال عبد الناصر.

إمتلأت الشوارع بفيضان من البشر كالطوفان يجرف أمامه هدأة الحياة وغفلة الزمن. زحف من الأحياء يغلي، وكتل ملتصقة من الحناجر تصرخ في هلع وبكاء مرير يمزق القلوب، وشروخ بدت في الوجوه بفعل الدموع. وتوقفت الحياة ومادت موازين العقل فلا عقل يصدق أن الزعيم رحل.

ودون أن يدري، بكى رجب، وكان لا يدري أيبكي ناصر الأمل، أم يبكي بذور الخيانة التي تعملقت بداخله وعظمت فروعها؟

وودّ للحظات لو أن أقدام الباكين الحائرين داسته. لكنه سرعان ما استعظم ذاته وأبى ألا يضعف. بل سطر أولى رسائله، وكانت هذه الرسالة هي الخطوة العملية الأولى في عالم الجاسوسية، ردًا على رسالة وصلته بطريق الراديو تطلب منه مراقبة حركة ميناء الإسكندرية وعما إذا كانت أسلحة سوفياتية تتدفق على مصر بعد موت زعيمها الأول أم لا؟ وكانت الرسالة كالتالي:

(رقم ٢) سطور كتبت باللغة العربية بالحبر السري بين سطور الرسالة.

(رقم ١) سطور كتبت باللغة الإنجليزية.

الإسكندرية ١٩٧٠/١/٢٤

صديقي العزيز باولو:

١ـ خط عادي: وصلتني رسالتكم العزيزة إلى قلبي وكم سررت بها.
٢ـ حبر سري: لا زالت أعمال التجديدات في مكتبي جارية وبالرغم من.

١ـ خط عادي: وتعجبت من فعل الزمن فرق دائمًا بين الأصدقاء.
٢ـ حبر سري: ذلك أقوم بعملي وأراقب الميناء جيدًا.

١ـ خط عادي: والمحبين، ولكنك يا صديقي مهما باعدت المسافات بيننا.
٢ـ حبر سري: ومنذ صباح الأمس وأنا أراقب سفينة سوفياتية ضخمة.

١ـ خط عادي: تسكن بأعماق قلبي فالأيام الجميلة التي قضيتها معك.
٢ـ حبر سري: ترسو على الرصيف وحولها حراسة مشددة. السفينة.

١ـ خط عادي: في جزر كيكلاديس. لا أستطيع مهما حييت أن.
٢ـ حبر سري: اسمها ستالينغراد، وقال لي زميل قديم بالميناء:

١ـ خط عادي: أنسى طعم حلاوتها وروعتها والصور التي التقطت.
٢ـ حبر سري: إن السفن السوفياتية تتردد بكثافة هذه الأيام.

١ـ خط عادي: لنا هناك تكاد تنطق بمدى شوقي إلى تجديد هذه.
٢ـ حبر سري: على الإسكندرية ونادرًا ما تظل الأرصفة خالية منها.

١ـ خط عادي: الذكريات الجميلة في جزر بحر إيجه وشوارع ومقاهي.
٢ـ حبر سري: وعلمت أن بعضها تنزل حمولتها بالليل فقط بواسطة.

١ـ خط عادي: ومتاجر أثينا الساحرة. إن قلبي يرقص طربًا.
٢ـ حبر سري: الأضواء الكاشفة. ومنذ أسبوع بالضبط نزل.

١ـ خط عادي: كلما مرت ببالي هذه الأيام الجميلة.
٢ـ حبر سري: عدد كبير من الجنود والخبراء السوفيات.

١ـ خط عادي: عزيزي باولو: أرجو أن ترسل لي صورة ابنتك.
٢ـ حبر سري: في ذات الوقت الذي تفرغ فيه سفن مصرية أخرى.

١ـ خط عادي: الجميلة بياتريتشي التي لم يسعدني الحظ برؤيتها.
٢ـ حبر سري: حمولاتها من القمح المستورد من استراليا ومن.

١ـ خط عادي: خلال زيارتكم القصيرة لليونان. وسوف أحاول.
٢ـ حبر سري: البرازيل.. وشاهدت عددًا كبيرًا من الشاحنات العسكرية.

١ـ خط عادي: في القريب أن أزوركم في إيطاليا وأرى مدينتكم.

٢ـ حبر سري: تنقل صناديق خشبية ضخمة بعضها مغطى بغطاء.

١ـ خط عادي: الرائعة ـ تريستا ـ التي تعشقونها. ومن جانبكم.

٢ـ حبر سري: أزرق أو كاكي وتتجه إلى طريق الإسكندرية.

١ـ خط عادي: لا تدخروا وسعًا في التفكير بجدية في زيارتي.

٢ـ حبر سري: القاهرة الصحراوي، وأنزلت سفينتان حمولتهما.

١ـ خط عادي: مع احتفالات الكريسماس حيث المناخ هنا في.

٢ـ حبر سري: من الخشب الزان من اسبانيا ورومانيا وتعطلت بالأمس.

١ـ خط عادي: مصر أكثر من رائع، وبالأخص في صعيد مصر حيث.

٢ـ حبر سري: شاحنة على الطريق محملة بأجولة السكر المستورد.

١ـ خط عادي: آثار أجدادي الفراعنة تفوح منها رائحة التاريخ.

٢ـ حبر سري: من الاتحاد السوفياتي وسأوافيكم بمشاهداتي.

١ـ خط عادي: تحياتي لكم وتمنياتي بالسعادة الدائمة.

٢ـ حبر سري: أولاً بأول، وسوف أنتظر رسائلكم.

١ـ خط عادي: رجب.

٢ـ حبر سري: رقم/١٠٤١.

ومع إطلالة الأيام الأولى في عام ١٩٧١ كان رجب قد انتهى من تجديد مكتبه، ولبس حلة جديدة من بهاء تنفق ورونق أعمال الديكورات الفخمة التي تدل على ذوقه الأوروبي ويسره. إفتتح المكتب جمع غفير من الأهل والأصدقاء، وملأت إعلانات الدعاية بالعربية والإنكليزية صفحات "الأهرام" تعلن عن ميلاده شركة خدمات بحرية

متميزة، قادرة على تحمل مسؤوليات الشحن والتفريغ وما يخصهما من إجراءات مع الجهات المختصة.

وساعدته المخابرات الإسرائيلية كثيرًا ليحصل على ثقة بعض الشركات البحرية العالمية ليصبح وكيلاً لها في الإسكندرية، وتحول مكتبه إلى خلية نحل اضطر معها إلى الاستعانة بعدد كبير من الموظفين والسكرتارية، وازدحم المكتب بالزوار وذوي المصالح، وازدادت الخطابات الواردة إليه من الشركات الملاحية ومن رؤسائه في أثينا يغذونه بالمعلومات ويلقون أوامرهم وتوجيهاتهم ويدفعونه ليكبر أكثر وأكثر. فازدهرت أعماله بسبب التوكيلات العالمية التي حصل عليها، وصار اسمه مشهورًا ودخوله إلى الميناء بالتصاريح الممنوحة أمرًا سهلاً، وقويت علاقاته بالموظفين وبالمديرين.

ولأنه يعمل في "المهنة" فقد كان سؤاله عن أحوال الميناء يومًا بيوم أمرًا عاديًّا لا يثير ريبة ولا شكوكًا في نياته، وهذا هو ما كانت تقصده المخابرات الإسرائيلية، أي زرع جاسوس داخل ميناء الإسكندرية يرصد كل أسراره وأوضاعه دون أن يشك فيه أحد. ومرت الشهور تلو الشهور وهو لا يزال يرتقي سلم النجاح والشهرة، ولم ينس أفضال اليهود عليه للحظة واحدة.

إنهم أولياء أمره الذين ثبتوا قدميه على طريق النجاح، وهم الذين تسعى مصر ومن خلفها جميع الدول العربية للإضرار بهم رغم قلتهم ومحدودية أرضهم ومواردهم.

لقد أكدوا له أنهم لا يريدون حروبًا مع العرب، فهم يدافعون عن رقعة صغيرة من الأرض يعيش عليها أطفالهم وضعافهم. وكلما شن أنور السادات هجماته من خلال خطبه السياسية، كان رجب يرتعد خوفًا من حماس وعوده بأن هذا العام هو

عام "الحسم" لتدمير إسرائيل. وكثرت الرسائل إلى رجب بطريق البريد والراديو، وتعددت رسائله أيضًا إلى "أصدقائه".

وانحبس النفس في رئتيه هلعًا يوم السادس من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٧٣ وجنود مصر يعبرون الهزيمة ويدكون خط بارليف الحصين ويكتبون النصر بدمائهم.

وعندما كانت مصر، بل والأقطار العربية كلها، تزغرد للنصر، كان رجب يبكي في مكتبه وينتفض جسده خوفًا وشفقة على شعب إسرائيل الذي يقتله العرب بلا رحمة مجتمعين. وكثرت في تلك الأثناء زياراته للميناء يستقصي الأخبار ويستقي المعلومات بجرأة، دون أن يلفت انتباه أحد، لكثرة أسئلته عن السفن الراسية بالميناء وفي الغاطس تنتظر الدخول.

لفتت رسائله المتعددة إلى أثينا وروما انتباه ضابط المخابرات المصري المكلف بمراقبة البريد الصادر إلى خارج مصر والواردة إليها. واكتشف أمر الرسائل المشفرة. وقام جهاز المخابرات المصرية بمراقبة بريد رجب عبد المعطي، وجرى الكشف عن كل رسائله وصورت وأعيد إغلاق الرسائل بدقة متناهية، لكي تكون دليل إدانة ضده أمام النيابة وعند محاكمته.

وبينما كان الجو السياسي مشحونًا بحماس النصر، وبدأت الخريطة السياسية للمنطقة تتشكل من جديد، نشط رجب في رصد حركة الميناء المستمرة وأرسل الرسالة التالية إلى صديقه "الوهمي" ديمتريوس في اليونان:

الإسكندرية ١٩٧٤/١١/٢٧.

عزيزي ديمتريوس.

١ـ خط عادي: تهنئتي القلبية بمناسبة عيد ميلادك السعيد، ولعلك.

٢ـ حبر سري: سفن شحن متعددة من جنسيات مختلفة تدخل.

١ـ خط عادي: الآن في أحسن حال بعد الوعكة الصحية التي أصبتم.

٢ـ حبر سري: الميناء لتفرغ حمولتها من المواد التموينية بكثرة.

١ـ خط عادي: بها منذ ثلاثة أسابيع. فكيف حالكم الآن؟!!

٢ـ خط سري: أيضًا تأكدت من وصول سفينة تشيكوسلوفاكية.

١ـ خط عادي: أحوالي على أحسن ما يرام، وأنوي إجراء بعض.

٢ـ حبر سري: تحمل معدات عسكرية في صناديق يصعب الاقتراب.

١ـ خط عادي: أعمال الديكورات الحديثة بمكتبي، على ذلك.

٢ـ حبر سري: منها بسبب الحراسة المتشددة، ولا زالت.

١ـ خط عادي: فسأتغيب لمدة أسبوعين على الأكثر على شاطئ.

٢ـ حبر سري: سفن عربية من الجزائر وليبيا تنزل حمولتها.

١ـ خط عادي: البحر الأحمر ريثما ينتهي الديكور من عمله.

٢ـ حبر سري: من البطاطين والمواد الطبية وسفينة عملاقة.

خط عادي: ولسوف أعاود بعد ذلك نشاطي بشكل أفضل.

٢ـ حبر سري: تحمل علم بانما اسمها "ليلي هامر" محملةِ بحوالي.

١ـ خط عادي: بعد هذه الإجازة التي أتشوق إليها لأتمكن.

٢ـ حبر سري: ٢٠٠ جرار زراعي ومعدات زراعية وميكانيكية.

١ـ خط عادي: من صيد السمك بعيدًا عن زحام العمل والتوتر.

٢ـ حبر سري: مختلفة وسفينة سوفياتية تحمل معدات توليد.

١ـ خط عادي: المستمر من جراء المشكلات المتوقعة.

٢ـ حبر سري: كهرباء ضخمة وآلاف من الإطارات.

١ـ خط عادي: تهنئتي لك مرة أخرى وتحياتي وأشواقي.

٢ـ حبر سري: الكاوتشوك مقاسات مختلفة وموتورات.

١ـ خط عادي: رجب.

٢ـ حبر سري: رقم/١٠٤١.

وأخيرًا، بعد أن جمعت المخابرات العامة المصرية كل الأدلة التي تدينه، توجهت قوة من رجال المخابرات صباح ١٣ كانون الثاني ـ يناير ١٩٧٥ إلى مكتبه. إعتقد رجب أنهم "زبائن شغل"، ولكن، حينما أخبره قائد القوة بأنه ضابط مخابرات، لم يستطع رجب أن يقف، ظل ساكنًا على كرسيه تتحرك ركبتاه لا إراديًا، واصطكت أسنانه فجأة، وزاغت عيناه في هلع لا حدود له.

ومن قبيل الصدف العجيبة أن رجل البريد جاء برسالة من المخابرات الإسرائيلية، مرسلة من الداخل، أثناء وجود المخابرات في مكتبه حيث طلبوا منه حلها، ووضعوا أمامه كتاب الشيفرة الذي عثروا عليه في درج سري بالمكتب مع كل أدوات التجسس المزود بها.

لم يستطع رجب استيعاب الأمر على حقيقته. فقد كانت نظرات ذهوله تدل على مدى الرعب الذي أصابه... إنهم أفهموه في تل أبيب وفي أثينا أن المخابرات الإسرائيلية لم يحدث لها أن فشلت مرة واحدة في مهامها، ولكن الفشل يأتي دائمًا من

العميل الذي قد يهمل تكتيكات الأمان التي يجب عليه أن يلتزم بها ولا يهملها أبدًا. فجهاز المخابرات الإسرائيلي، حسبما أقنعوه، أفضل أجهزة المخابرات في العالم.

إبتسم رجب في سخرية عندما تذكر ادعاءاتهم الباطلة، وبينما كانت قافلة السيارات تنطلق به إلى القاهرة، كانت المخابرات الإسرائيلية ترسل بالراديو رسالتها الدورية إلى عميلها:

"ننتظر ردك على الرسالة الأخيرة التي وصلتك.. لا تتأخر، واستعد للسفر خلال شهر مارس إلى أثينا".

وفي مبنى المخابرات المصرية جرى استجوابه فاعترف تفصيليًا، وهو مذهول، بقصة سقوطه في مصيدة المخابرات الإسرائيلية. وعقدت له محكمة عسكرية وجهت إليه التهم الآتية:

- باع نفسه ووطنه للعدو مقابل المنفعة المادية.

- أمد العدو بمعلومات عسكرية واقتصادية تضر بأمن الدولة ومصلحة البلاد.

- إرتضى لنفسه أن يحمل اسمًا يهوديًا وجواز سفر يهوديًا ورتبة عسكرية يهودية.

- التخابر مع دولة أجنبية معادية لتسليمها سرًا من أسرار الدفاع عن البلاد.

وحكمت المحكمة عليه بالإعدام شنقًا. وصدّق المفتي ورئيس الجمهورية على الحكم. وأثناء انتظار التنفيذ، شعر الخائن بفظاعة جرمه وفداحة مسلكه. وعامله المجرمون والقتلة في السجن معاملة سيئة، وكادوا أن يفتكوا به عدة مرات كلما سنحت لهم فرصة لقائه. وانزوى الخائن يجتر ذكرياته فتتقلص عضلات جسده. ومضت عليه عدة أسابيع ذاق خلالها مرارة الحسرة والذل والمهانة. ونحتت بدنه

عضات الندم. حتى عُثر عليه ذات يوم ملقى على الأرض بزنزانتـه وسط بركـة من الدم المتجلط... وقد عثر على إحدى عدستي نظارتـه منزوعـة ومهشـمة... وتبيـن أن هناك ثمة قطع غائر بيده اليسرى طال شريانه.

ترى، هل أصابه مس من العقل وأدرك فداحة جرمه فانتحر؟

أم أنه استشعر الفارق الشاسع ما بين الرفاهية والحبس؟

أو ربما ظن أن الموساد ستنقذه لا محالة فقتلته ظنونه؟

لا أحد يعرف. لكنه حتمًا أفاق بعدما خسر الكثير، خسر نفسه وأهله ووطنـه وكـل شيء.. كل شيء ضـاع.. لكن اسمه سيظل دائمًا بقائمـة الخونـة... أولئـك الذيـن بـاعوا وطنهم بثمن بخس، ولن يغفلهم التاريخ على مر الأحقاب[1].

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب ص٨٩ ـ ١١٠.

المُخابَراتُ المصريّةَ اليَوم

تطوُّر التَّعاوُن الاستخبَاراتي الأميركيّ المصري

خطت علاقة التعاون الاستخباري والأمنـــي بيـن واشـنطن والقـاهرة خطـوة جديدة لصالح مصر بعد زيارة وفد عسكريّ مصريّ رفيع المستوى إلى الولايات المتّحدة فـي الشهر الأوّل من سنة ٢٠٠٤ وتوقيعه سلسلة من الاتّفاقات في هذين المجالين.

وقالت المعلومات إنّ البلدين اتّفقا على تعزيز التعاون بين أجهزتيهما المعنيّـة علـى مستوى تبادل المعلومات، وقد تعهّدت واشنطن باستبدال شبكة تنصّت كـانت تستخدمها الأجهزة المصريّة بأخرى حديثة بعد أن أصبحت الشبكة القديمة محدودة الفعاليّـة. كما تقرّر أن يتلقّى عناصر المخابرات المصريّـة دورات تدريـب فنّـيّ علـى استخدام هذه المعلومات وعلى وسائل الرصد والتحليل والتحقيق الحديثة في الولايات المتّحدة.

وستستفيد مصر من برنامج المشتريات العسكريّة الأجنبيّة "إف" للحصول على هذه المعدّات الإلكترونيّة التي تقدّر قيمتها بحوالى ٦٠ مليون دولار. ومن بين هذه الأنظمـة معدّات يمكن استيعابها على طائرات من طراز "هيركوليس ١٣ إش".

وفي موازاة هذا العقد وضمن اتّفاق منفصل ستحصل مصر علـى ٤١٤ صاروخًـا من طراز "آ. أي. إم. ٩. إم" لتسليح طائراتها المقاتلـة من طـراز "إف. ١٦"، ولتكملـة

دفعة أولى من هذه الصواريخ لكن من طراز "آ. أي. إم. ٩ إل. أم." حصلت عليها القوّات الجويّة المصريّة في مرحلة سابقة. وتقدّر كلفة هذا العقد الأخير بحوالى ٥٠ مليون دولار.

وقالت المعلومات الغربيّة إنّ تعاون البلدين في مجال مكافحة الإرهاب حقّق نتائج ملموسة في المدّة الأخيرة، بعد أن نشطت الأجهزة المصريّة في تقصّي المعلومات في ما يتعلّق ببعض الشبكات الإرهابيّة.

وفي المقابل تعهّدت واشنطن بالضغط على الدول التي يوجد على أراضيها قيادات أصوليّة مصريّة متورّطة بأعمال إرهابيّة لتسليمها إلى القاهرة. وتسعى أجهزة الأمن المصريّة حاليًّا لاسترداد اثنين من العناصر المطلوبة من كندا، وخمسة من بريطانيا، بالإضافة إلى سبعة عناصر من الأرجنتين والأورغواي[١].

١ ـ الفغالي بدرا باخوس، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٩ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤.

تجدّد نشاط المخابرات المصريّة

إنّ الضربة الإجهاضيّة التي وجّهها رئيس المخابرات المصريّة السابق "كمال حسن علي" للمخابرات المصريّة عام ١٩٧٩، عام كامب دايفيد، وصفّى فيها ٧٥٪ من كوادرها الفاعلة والناشطة ضدّ إسرائيل، لم تفلح في إنهاء هذه المؤسّسة العريقة التي سبق لها أن خاضت تجارب قاسية طوال تاريخها ضدّ المخابرات الإسرائيليّة وغيرها. فإنّ التاريخ القريب شهد حوادث بارزة لجواسيس إسرائيليّين وعملاء مصريّين للمخابرات الأميركيّة والإسرائيليّة في قصص كثيرة ومتنوّعة لغزو الموساد للقاهرة... منها ما اكتشفته المخابرات المصريّة بعد الأوّل من أيّار ـ مايو ١٩٨٥ فقامت باعتقال العملاء والتحقيق معهم، ومن ثمّ أحالتهم إلى محاكم أمن الدولة المختصّة بمحاكمة الجواسيس، والحكم عليهم بما يتناسب مع ما ارتكبوه من تآمر وتجسّس بحقّ مصر. وهذا ما لم يكن يجري أثناء سنوات كامب دايفيد الأولى.

في عام ١٩٨٥، اكتشفت المخابرات المصريّة شبكة تجسّس واسعة النطاق تضمّ بعض المسؤولين الإسرائيليّين في المركز الأكاديمي السوفياتي والسفارة الإسرائيليّة، وقد تمّ التكتّم على أسماء أفراد الشبكة التي حصلت على أسرار عسكريّة وسياسيّة دقيقة بناء على اعترافاتهم، فتمّ ترحيلهم فقط من مصر دون اتّخاذ أيّ إجراء قانوني بحقّهم.

في العام نفسه، كانت المخابرات الإسرائيليّة قد جنّدت المدرّس المصري "عبد الحميد صبخ اللبّاد" من منطقة "جوز غانم" في شمال سيناء، ولكنّ المخابرات المصريّة

كانت له بالمرصاد هذه المرّة، فرصدت تحركاته الجاسوسيّة ومنها تسلّله إلى إسرائيل عبر الحدود الدوليّة بمساعدة حرس الحدود الإسرائيليّين. وقد استأذنت المخابرات المصريّة النيابة العامّة حسب الأصول باعتقاله فتمّ توقيفه. وأثناء التحقيق معه اعترف أنّه تدرّب على أعمال الجاسوسيّة بعد تجنيده باتّباعه دورة جاسوسيّة على أيدي ضبّاط من الموساد بقيادة ضابط إسمه الحركي "أبو هارون"، وذلك في منزل خاصّ في مدينة "بئر السبع" الفلسطينيّة. وشملت التدريبات إتقان أحدث الوسائل في إرسال المعلومات وكيفيّة الكتابة بالحبر السرّي، ووسائل استقبال الشيفرة وحلّها. ولدى تقديمه للمحاكمة اعترف أيضًا بأنّ كلّ ما تقاضاه من المخابرات الإسرائيليّة "الموساد" نظير أعماله التجسّسيّة لم يتخطّ مبلغ ستّة آلاف جنيه. وقد حكم عليه رئيس محكمة أمن الدولة بالسجن ٢٥ عامًا، وهذا الحكم يشبه في مصر الحكم بالسجن المؤبّد، مع دفعه غرامة عشرة آلاف جنيه مصري لثبوت أدلّة الاتّهام وهي: التخابر مع دولة أجنبيّة هي إسرائيل وإمدادها بمعلومات عسكريّة وسياسيّة واقتصاديّة هامّة، من شأنها تعريض أمن مصر للخطر، وهذا الحكم يُعتبر الأقسى والأول من نوعه بعد معاهدات كامب دايفيد.

كما قامت المخابرات المصريّة بوضع "المركز الأميركي للمعلومات" الكائن في مصر الجديدة ــ ميدان السبع عمارات، تحت المراقبة الدقيقة حيث يعمل في هذا المركز ٣٥ أميركيًا يعتبرون جميعًا أعضاء في المخابرات الأميركيّة. وهذا المركز واحد من عدّة جهات أميركيّة تعمل على أرض مصر تمثّل قنوات ربط لنقل المعلومات عن مصر إلى الموساد.

ويقول باحثون إنّ هذه الجهات تقوم، رغم كثرة عددها ومصاريفها الباهظة، بنقل الإحصاءات والمعلومات التفصيليّة الدقيقة عن قضايا المجتمع المصري إلى الجهات

الإسرائيليّة التالية: المخابرات الإسرائيليّة الموساد؛ معهد موريس فولك للبحوث الاقتصاديّة الإسرائيلي؛ مؤسّسة بوزناتسكي للاستثمار؛ معهد هاري ترومان للبحوث من أجل تقدّم السلام في تلّ أبيب؛ مركز شيلواخ التابع لجامعة تلّ أبيب؛ مؤسّسة فان لير الإسرائيليّة في القدس.

ولم تكتف المخابرات الأميركيّة بتقديم العون والمساعدة المكشوفة للمخابرات الإسرائيليّة عبر مؤسّسات فكريّة وعلميّة أميركيّة الإسم والمضمون، تصرف عليها من الخزينة الأميركيّة ملايين الدولارات، بل تعدّت كلّ ذلك وذهبت إلى تجنيد العملاء المصريّين من ذوي النفوس الضعيفة، ومن هؤلاء العميل المصري ـ الأميركي الدكتور "سامي يوسف واصف" الطبيب في مستشفى "قصر العيني".

ومن المعروف أنّه في عام ١٩٨٢، أنشئ المركز الأكاديمي الإسرائيلي في القاهرة لأغراض خدمة الجاسوسيّة الإسرائيليّة، وتولّى رئاسته عدد من الباحثين الإسرائيليّين من عملاء الموساد المكشوفين، وهم: "شمير شامير"، الذي اتُّهم بالتجسّس قبل أن يصبح سفيرًا لإسرائيل؛ "جبرائيل داريوج"؛ "رأشير عوفاديا". ويقوم هذا المركز بإجراء البحوث عن "الأصول العرقيّة للمجتمع المصري"؛ وعن "الوحدة الثقافيّة والعقائديّة بين الإسلام واليهود"؛ وعن "الشعر العربي الحديث"؛ وفي قضايا "التعليم والزراعة واستصلاح الأراضي"؛ وفي "توزيع الدخل وحياة البدو والبربر"؛ وفي "تأثير السلام على العقل العربي المصري وكيفيّة السيطرة عليه".

وبهذا الأسلوب، يقدّم المركز نفسه كإطار مؤسّسي متقن ومخصّص للتجسّس. وقد اكتشفت المخابرات المصريّة خلال عامَي ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ ثلاث شبكات للتجسّس في

داخله مكوّنة من عدد من الجواسيس الأميركيّين والإسرائيليّين واليهود المصريّين. وقد تمّ ترحيل اثنين من موظّفي المركز البارزين لثبوت ضلوعهما في عمليّة التجسّس ضدّ مصر وهما "موشي إبراهيم"، و"حاييم كوشي".

إستمرّت المخابرات المصريّة بالقيام بواجبها بالمراقبة فثبت لها أيضاً أنّ الإدارة الأميركيّة قد ساهمت من خلال "وكالة التنمية الدوليّة" في توظيف عدد من كبار اليهود المصريّين الرأسماليّين في ظلّ حالة السلام بين حكومتي مصر وإسرائيل، وحالة الانفتاح الاستهلاكي المتلازمة معها. ومنذ السنوات الأولى لعمليّة التطبيع قامت الوكالة بتذليل كلّ العقبات المتّصلة بمخاوف الجانب المصري التي حدّدها تقرير "بروتون - بروكنز"، وهو المرجع الأساسيّ لكلّ التحرّكات الإسرائيليّة والخطط الاقتصاديّة الصهيونيّة داخل مصر. وقد ذكر التقرير المذكور أنّ عامل الخوف يمكن إزالته من خلال مشاريع مشتركة يكون فيها اليهود والمصريّون الأثرياء طرفاً متكاملاً، إضافة إلى نسج شبكة واسعة تتّصل بالفئات الاجتماعيّة المؤثّرة في المجتمع المصري. وتضمّنت الشبكة أسماء مشهورة داخل المجتمع المصري. وقد عاونت هذه الأسماء مشاهير اليهود في عالم التجارة للسيطرة على السوق المصريّة أمثال اليهودي المصري المليونير "تسيم جدعون".

لهذه الشبكة علاقة بعمليّة تهريب الدولارات المزيّفة من إسرائيل إلى مصر، حيث تمّ خلال النصف الثاني من العام ١٩٨٩ ضبط ٣٠٠ ألف دولار مزيّف مع بعض الإسرائيليّين الذين قدموا إلى مصر للسياحة عبر منفذ "رفح" الحدودي. وبلغ عددهم ألف إسرائيلي، وفي شهر تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٨٩، ضبطت المباحث المصريّة عشرة آلاف دولار مزيّف مع موظّفي أحد مكاتب السياحة الإسرائيليّة "جيباتي" المرافقين للمجموعات السياحيّة.

وإذا عدنا لعام ١٩٨٨، نجد مدير فندق "البدر" في بور سعيد يبلغ المباحث المصريّة أنّ سائحة إسرائيليّة تحمل جواز سفر إسرائيلي رقم ٤٠٩٥٣١٦، وتبلغ من العمر ٢١ عامًا، قدّمت ثلاث ورقات من فئة المئة دولار مزيّفة، لتبديلها بنقود مصريّة، فاكتشف أنّها مزيّفة تزييفًا متقنًا حيث تمّ وضعها تحت المراقبة وهي في الفندق. وأثناء مراقبتها من قبل عناصر مباحث بور سعيد، تلقّت المخابرات المصريّة - فرع مدينة بور سعيد بلاغًا عن الفتاة ذاتها يتضمّن الاشتباه بها لحملها كاميرا فوتوغرافيّة تقوم بتصوير الأماكن الهامّة والحسّاسة في بور سعيد، فتمّ التنسيق بين المخابرات المصريّة والمباحث وأسفرت المراقبة عن إلقاء القبض على جاسوسة للمخابرات الإسرائيليّة وشريكة في عصابة تزوير وترويج الدولارات الأميركيّة المزوّرة وامرأة لعوب بنفس الوقت عرضت نفسها وجسدها على الدوريّة المشتركة التي ألقت القبض عليها.

على صعيد آخر، فقد تمّ ضبط شبكة من العاهرات الإسرائيليّات المدرّبات خصيصًا على يد المخابرات الإسرائيليّة، من قبل مباحث الآداب في شقّة بالمهندسين. وتبيّن أنهنّ مريضات بالإيدز بعد الفحص الطبّي، فتمّ حجرهنّ بالمحجر الصحّي لمرضى الإيدز بالقاهرة، ثمّ ترحيلهنّ إلى إسرائيل...

وتمّ إلقاء القبض من قبل المباحث المصريّة على مهرّب المخدّرات الإسرائيلي المعروف "يوسف طحّان" وهو يحمل ٤ كلغ من الهيروين، وتبيّن أنّ له علاقة مع المخابرات الإسرائيليّة التي تتيح له نقل المخدّرات من داخل إسرائيل بقصد إدخالها إلى مصر فقط لغرض في نفس المخابرات الإسرائيليّة. وقد تدخّلت السفارة الإسرائيليّة، كعادتها، لدى السلطات المصريّة حيث طالبت أكثر من مرّة، نقلاً عن حكومتها في تلّ أبيب، بعدم محاكمة طحّان في القاهرة. وتعهّدت للحكومة المصريّة بمحاكمته في

إسرائيل، كما زاره في السجن المصري بعض أعضاء السفارة الإسرائيليّة حيث زوّدوه بمبالغ خياليّة ليتصرّف بها وهو في سجنه. ثمّ تواترت بعد ذلك أنباء عن اختفائه من السجن...

هذه اليقظة في المخابرات المصريّة تأتي استكمالاً للعديد من الانتصارات التي سجّلتها هذه المخابرات في الخمسينات والستّينات من القرن العشرين، وتمّ تصوير بعض هذه الانتصارات في مسلسلات تلفزيونيّة منها "دموع في عيون وقحة"، ومسلسل من ١٥ حلقة عن الجاسوس المصري العالمي "رأفت الهجّان"، وفي السينما المصريّة هناك فيلم "الصعود إلى الهاوية" وفيلم "إعدام ميت"، وقد كتبهما الروائي المصري المختصّ بالكتابة عن أعمال المخابرات الأستاذ "صالح مرسي".

هذه الوقائع كلّها تؤكّد على أنّ عيون المخابرات المصريّة، مفتوحة لرصد جواسيس العدوّ، لأنّ الخطر الرئيس الذي تتعرّض له مصر هو محاولات إسرائيل للإجهاز على الروح الوطنيّة المصريّة التي استعادت حيويّتها من الداخل، بمختلف الوسائل[١].

في ظلّ هذا النشاط المخابراتي المصري المتجدّد، صدر عن المحامي العام الأوّل في مصر الأستاذ المستشار "عبد المجيد محمود" تقرير يفيد عن الجرائم التي ارتكبها الإسرائيليّون على الأراضي المصريّة خلال عام ١٩٩١ فقط، وهي:

١٣ حالة تسلّل إلى سيناء خلال عام ١٩٩١، ٨ عبر منفذ "رفح" و٥ عبر منفذ "طابا"، معظمها لمهاجرين يهود فشلوا في الحصول على عمل يحفظ لهم كرامتهم في إسرائيل.

---

١ ـ الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٥) ٤: ٤٥٠ ـ ٤٦٢.

ضبط ١٦ إسرائيليًا خلال نفس العام وبحوزتهم أسلحة غير مرخّصة بعضهم أخفوها تحت ملابسهم والبعض الآخر داخل سيّاراتهم.

ضبط ٥ حوادث تهريب مخدّرات.

ضبط ١٧ حالة توزيع دولارات مزيّفة بحوزة السيّاح الإسرائيليّين.

إضافة إلى ذلك، شهد عام ١٩٩١ أيضًا عدّة محاولات تسلّل إلى الأراضي المصريّة عبر منفذ رفح أو منفذ طابا في سيناء، لمهاجرين يهود، سبق أن غرّرت بهم الدعاية الإسرائيليّة، فجاؤوا من موسكو وأوروبّا الشرقيّة ولكنّهم هربوا من جحيم "الجنّة الموعودة" في إسرائيل بعد أن فشلوا في الحصول على عمل ملائم ومشرّف.

في شهر آب ـ أغسطس ١٩٩١، تسلّل اليهودي السوفياتي "تشاهنسكي جينادي" إلى مصر عبر منفذ طابا بعد أن فشل في الحصول على عمل في إسرائيل، التي هاجر إليها ضمن قوافل الهجرة اليهوديّة في شهر آذار ـ مارس ١٩٩١، وألقي القبض عليه في سيناء ورحّل إلى القاهرة وأجريت تحقيقات معه للتأكّد من عدم تورّطه في أنشطة تجسّسيّة، وثبت من التحقيقات أنّ جينادي كان يعمل باحثًا علميًّا بوزارة البحث العلمي بالاتّحاد السوفياتي السابق، ولم يعثر معه على أيّ نقود، وطلب عدم إعادته إلى إسرائيل بأيّ حال من الأحوال، مفضّلاً العودة إلى بلاده أو السفر إلى أيّ دولة أخرى، تقبل بمنحه حقّ اللجوء السياسي، وكان قلقًا ومتوتّرًا يعاني من حالة عصبيّة شديدة بسبب خوفه من إعادته قسرًا إلى الجحيم، في إسرائيل، وفاجأ جينادي حرّاسه وألقى بنفسه من شبّاك الغرفة التي كان يقيم فيها ليسقط على رأسه ويلقى مصرعه على الفور منتحرًا بعد أن تمكّن اليأس والخوف منه. واتّهم السفير الإسرائيلي مصر بمنعه من لقاء جينادي لحلّ مشاكله ووصف حادث انتحاره بأنّه "غامض".

وفـي ١٧ تشرين الثـاني ـ نوفمبر ١٩٩١، تسلّل إلـى مصـر مهاجران يهوديّـان آخران عبر منفذ رفح، أحدهما من أصل مجري والآخر من الاتّحاد السـوفياتي، ولكن هذه المرّة قامت سلطات الأمن في مطار القاهرة بترحيلهما إلى بلديهما على الفور، بعد أن ألقي القبض عليهما أثناء محاولتهما السفر إلى اليونان، خوفًا من أن يدفعهمـا اليـأس إلى الانتحار مثل جينادي، خاصّة وأنّهما أصرّا على عدم العودة إلى إسرائيل بأيّ حال من الأحوال. وثبت من التحقيقات أنّ الإسرائيليَّين دخـلا البـلاد بطريقـة شرعيّة حيث حصـلا علـى تأشيرة دخـول مـن القنصليّـة المصريّـة فـي تـلّ أبيـب، الأوّل إسـمه "فيودوروف" وكـان يعمـل خبيرًا هندسيًّا بهيئـة المواصـلات فـي روسـيا وهـاجر إلـى إسرائيل في شهر كانون الأوّل ـ ديسمبر ١٩٩٠ ولم يجد فرص عمل ملائمـة ورفـض الأعمال المهنيّة التي لا تتناسب مع خبراته حيث عمل لمدّة أسبوعين فقط مشرفًا في أحد مستودعات القمامة ثمّ تركه، حفاظًـا علـى كرامتـه، لأنّ الدعايـة الإسرائيليّة التـي كانت تبثّ فـي الاتّحـاد السوفياتي منـذ سنوات صـوّرت لـه إسرائيل بأنّها جنّـة علـى الأرض، وفيها المعامل والإنشاءات العمرانيّة والصناعات الإلكترونيّة، فصدّق ما شاهد وهو الخبير والمهندس في هيئة المواصلات السوفياتيّة، وجاء إلى إسرائيل، فإذا به بين ليلة وضحاها يجد نفسه "خبيرًا"... ولكن في أحد مستودعات القمامة مثل الكثـيرين مـن اليهود السوفيات الذين غرّر بهم وصدّقوا الدعاية الإسرائيليّة فوجـدوا أنفسـهم يوظّفـون في أعمال ومستودعات القمامة والنفايات والقاذورات التي يستكبر الإسرائيليّون أنفسـهم عن العمل بها، فتكون هذه المصالح المتدنيّة من نصيـب اليهود الجدد المهـاجرين مـن الاتّحاد السوفياتي أو إثيوبيا أو من اليمن... والثـاني إسمه "جورجـي نبيرش"، مجـري الأصل، وكان يعمل مدرّسًا للتكنولوجيا الميدانيّة في بودابست وهاجر إلى إسرائيل فـي شهر أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٠ وعمل لأكثر من ثلاثة شهور في إحدى المـدارس بـالقدس

ثمّ استقال منها لسوء المعاملة، وعمل بعد ذلك لمدّة أسبوع واحد فقط بأحد المتاجر وظلّ بلا عمل لأكثر من تسعة شهور...

الطريف أنّهما تعارفا وأصبحا صديقين حميمين جمعتهما المعاناة الواحدة ومشاعر اليأس والإحباط ونجحا في الحصول على تأشيرة دخول إلى مصر ووصلا إليها عن طريق منفذ رفح، وأصرّا على عدم العودة إلى إسرائيل مرّة أخرى. وهدّدا بالانتحار إذا تقرّر إعادتهما إلى إسرائيل، ولم يكن بحوزتهما أيّ مال أو متاع.

وخشية من تنفيذ تهديدهما بالانتحار، قرّرت سلطات أمن المطار ترحيلهما إلى بلديهما، فسافر فيودوروف إلى روسيا وجورجي إلى المجر.

وبتاريخ ٣ شباط ـ فبراير ١٩٩٢، أُعلن في القاهرة عن قيام المخابرات المصريّة وسلطات الأمن مشتركة بتوقيف يهوديّ ينتمي إلى الكيان العبري وابنته، وذلك بتهمة التجسّس وجمع معلومات عن أهداف عسكريّة واستراتيجيّة لمصلحة العدوّ.

وطبقًا لمصادر الأمن المصري، فإنّ الصهيوني الذي يدعى "فارس صبحي مصراتي"، وهو من أصل عربي، أثار شكوك أجهزة المخابرات المصريّة، بعد رصد دخوله البلاد مرّات عديدة، خلال فترة زمنيّة قصيرة، وكانت كلّها بحجّة السياحة، وبعد وضعه تحت المراقبة الدقيقة، تأكّدت الشكوك، حيث تمّ رصد محاولاته لتوطيد علاقته بعدد من المواطنين المصريّين، مستخدمًا ابنته في ذلك. وفي هذا السياق، فإنّ المصادر نفسها تقول، إنّ هذا الجاسوس نجح بهذه الوسيلة في توطيد العلاقة مع شابّ مصريّ، يعمل باحثًا اجتماعيًّا يدعى "علي حسن عطيّة".

وحسبما أعلن في القاهرة، فإنّ الجاسوس الإسرائيلي كان استأجر شقّة فاخرة، في أحد أحياء العاصمة المصريّة، وحين قامت قوّات الأمن بمداهمة الشقّة للقبض على

الجاسوس وابنته، كان المواطن المصري المذكور معهما، وخلال عمليّة المداهمة، حاول الجاسوس الإسرائيلي الهرب بالقفز من النافذة، غير أنّ الشرطة تمكّنت من الإمساك به بعد أن كسرت إحدى قدميه بعد إلقاء نفسه من الطبقة الثانية.

هذه هي المرّة الأولى منذ توقيع معاهدة كامب دايفيد عام ١٩٧٩ التي تعلن فيها السلطات المصريّة عن ضبط عصابة إسرائيليّة للتجسّس بكلّ معنى الكلمة، أعضاؤها الإسرائيلي "فارس مصراتي" من مواليد ١٩٥١، وهو من يهود ليبيا، وابنته "فائقة مصراتي" من مواليد ١٩٧٤. وقد اعترف الأب وابنته بعد مراحل التحقيق بتجسّسهما لصالح المخابرات الإسرائيليّة "الموساد"، مع اثنين آخرين من الإسرائيليّين، إلاّ أنّها ليست المرّة الأولى التي يندسّ فيها جواسيس إسرائيل لجمع المعلومات عن القوّات المسلّحة المصريّة، وأماكن تمركز قوّات الأمن، وحجم النشاط الاقتصادي وآراء السياسيّين وطلاّب الجامعات، ومعلومات شخصيّة ودقيقة عن الشخصيّات العامّة... وكلّ شيء عن مصر.

فتحت أقوال "فائقة" أمام سلطات التحقيق الملفَ الأسود للتجسّس الإسرائيلي في مصر. فقد جاءت إلى البلاد عدّة مرّات بصحبة والدها تحت ستار السياحة، واستخدمت جسدها لجمع المعلومات التي تريدها... لم تكن المهمّة صعبة... خصوصًا بعدما أقامت في حيّ "مصر الجديدة"، وأقامت صداقات عديدة مع أبناء هذا الحيّ الراقي.

جاءت أنباء السقوط مدويّة في الأوساط المصريّة. فقد بحّت أصوات كثيرة في السنوات السابقة لكشف أبعاد المخطّط الإسرائيلي لاختراق المجتمع المصري، لأنّ إسرائيل ما زالت تعتبر مصر "العدوّ رقم واحد"، حتّى في ظلّ معاهدة السلام... ولكن حاول البعض الادّعاء بأنّ ما يتردّد مبالغ فيه بشكل كبير.

لم يكن أمرًا عفويًا أن تنتشر في مصر أنواع جديدة من المخدّرات والسموم بعد معاهدة السلام مع إسرائيل، وهي السموم البيضاء التي لم تعرفها مصر منذ أوائل القرن الماضي، ولم ينتشر الهيروين بهذا الشكل إلاّ بعد الصلح مع إسرائيل، وألقت أجهزة الأمن القبض على عصابات كثيرة من بينها الإسرائيلي يوسف طحّان، ومن واقع الدراسات الكثيرة التي نشرت مؤخّرًا، لم تكن إسرائيل وراء ترويج المخدّرات في مصر فقط، بل وفي العديد من البلدان العربيّة بغرض الإجهاز على شباب الوطن العربي الذي يمثّل الخطّ الاستراتيجي الثابت ضدّ إسرائيل.

زعم البعض أنّ دور إسرائيل لم يثبت بشكل يقيني في تهريب المخدّرات... ولكن أثبتت قضايا التهريب التي تمّ ضبطها مؤخّرًا الدور الذي تلعبه الأيديولوجيّة الصهيونيّة لإغراق السوق المصريّة بالمخدّرات، فمن مصلحة القوى المعادية وعلى رأسها إسرائيل تخدير الشعب المصري والعربي.

لم تتوقّف أعمال المخابرات الإسرائيليّة ضدّ مصر بعد معاهدة السلام، بل وجدت في السلام فرصة فريدة للاختراق والحصول على كلّ المعلومات، وإجراء مسح شامل للمجتمع المصري من جميع جوانبه. ويشير بعض الكتّاب المتخصّصين في شؤون المخابرات إلى أنّ سفارة إسرائيل في القاهرة تتجسّس على كلّ حركة، وكلّ كلمة... ويقول الكاتب المصري "ماهر عبد الحميد":

"كان واضحًا أنّ الإسرائيليّين أقاموا سفارتهم من طابقين حتّى يتجنّبوا أيّة محاولات للتنصّت على ما يجري في الطابق الأعلى. وقد برزت على سطح السفارة فجأة غابة من الهوائيّات وأشياء أشبه بالثعابين والعقارب، بعضها على شكل دوائر، وبعضها على شكل أطباق، وعشرات من العصي المعدنيّة المتعامدة والمتقاطعة أخذت تظهر واحدة بعد الأخرى... وفي النهاية كان يمكن لأيّ مراقب من الناحية الأخرى

للنهر أن يحصي اثنين وعشرين هوائيًا مثبتّة كلّها فوق سطح العمارة، ومتّجهة إلى السماء".

وكان أحد الدبلوماسيّين الإسرائيليين قد استأجر شقّة في الطبقة الحادية عشر من العمارة رقم ٤٢ المطلّة على كورنيش النيل في اتّجاه المعادي. وكان هذا الإسرائيلي يستخدم سيّارة بيجو بيضاء تحمل أرقامًا غير دبلوماسيّة، وقد اتّضح أنّه استأجر هذه السيّارة ليستخدمها في تنقّلاته تاركًا سيّارته الدبلوماسيّة في مكان الانتظار المخصّص لسكّان هذه العمارة. وكان بمقدور أيّ عابر للكورنيش أن يستوثق من أنّ الإسرائيلي موجود في منزله طالما أنّ سيّارته الدبلوماسيّة موجودة في موقف سيّارات العمارة، بينما هو يتجوّل بسيّارته البيجو الخاصّة المسجّل عليها "ملاكي القاهرة".

ولكن، في ما يبدو، أنّ المخابرات المصريّة تحرص على عدم الإعلام عن قضايا التجسّس التي تقوم بها المخابرات الإسرائيليّة لأسباب عديدة، فعندما حامت الشبهات حول عدد من موظّفي السفارة الإسرائيليّة بالقاهرة الذين يقومون بأنشطة تجسّس، استجابت إسرائيل لطلب مصر وسحبت بهدوء اثنين من الدبلوماسيّين "لتجاوزهما حدود وظيفتيهما الدبلوماسيّة إلى التورّط في أنشطة غير مشروعة". وكان أحد الإثنين قد قام بزرع أجهزة تجسّس وتنصّت في كلّ العمارة الضخمة على النيل، والتي تحتلّ السفارة الإسرائيليّة الطبقات الثلاث الأخيرة منها.

ويسكن هذه العمارة وفي المنطقة المجاورة بعض الشخصيّات الذين رأت السفارة الإسرائيليّة أنّ التجسّس عليهم يفيد عمليّات الموساد... ومن قبل كان قد تمّ ضبط أجهزة للتنصّت مزروعة في عدد من المنازل وأشجار الحدائق بمنطقة المعادي التي يسكن فيها الإسرائيليّون.

وفي "عصر السلام"، تختلف أساليب التجسّس عنها في فترات الحروب. فالرسائل المفخّخة والطرود الملغومة دخلت متحف التاريخ وأصبحت بالية ولا تتناسب مع طبيعة العلاقات الجديدة وحسن الجوار والحدود المفتوحة. وعلى الرغم من ذلك، فالعقيدة التجسّسيّة راسخة وثابتة لا تتغيّر... وُضعت بمعرفة بن غوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي أنشأ جهاز المخابرات... وعمد إلى توسيع صلاحيّات فرع الموساد، وجعل واجبه الأوّل جمع وتحليل المعلومات في الخارج، في أيّ منطقة لها أهميّة بالنسبة لإسرائيل...

ومن الأساليب التي تتّبعها إسرائيل في هذا المجال، إستخدام اليهود المنتشرين في كافّة أنحاء العالم في أعمال التجسّس. وقد ابتكرت إسرائيل وسائل جديدة وفقًا لطبيعة العلاقات التي تربطها بمختلف الدول. وبالفعل، تمكّنت من ابتكار وسائل تختلف عن التجسّس التقليديّ وبدأت في إرسال عشرات الفتيّات الإسرائيليّات تحت شعار السياحة، لاستدراج بعض الشباب المصري، لأعمال منافية للآداب في الشقق المفروشة والنوادي الليليّة والفنادق الكبرى... ونشرت صحف المعارضة في مصر أنباء عن استخدام إسرائيل لفتيّات مصابات بالإيدز، لمعاشرة الشباب المصري ونشر هذا المرض اللعين. ولكن لم تثبت صحّة هذه المعلومات.

في رسالة ماجيستير مطبوعة بعنوان "محاولة تهويد الإنسان المصري"، كشف الباحث المصري "مدحت أبو بكر" النقاب عن قيام الموساد بتجنيد بعض طلاّب الجامعات عن طريق أقاربهم العاملين في السفارة الإسرائيليّة، وتشجيعهم للسفر إلى إسرائيل في رحلات حصل مقابلها أقاربهم على مكافآة مجزية نظير تجنيدهم.

وحاول الموساد أكثر من مرّة إرسال سرب من الجميلات في مناسبات مختلفة، اشتركت فيها إسرائيل، التقين خلالها بشباب الجامعة من الأساتذة المساعدين

والمدرّسين والمعيدين والطلاّب. وظنّ كلّ واحد منهم أنّه قام بمغامرة عابرة مع إحدى الفتيات، وانتهى الأمر بعودتهنّ بعد تبادل المعلومات البسيطة الكافية للتعارف والعناوين. وفوجئ هؤلاء الشباب برسائل من تلّ أبيب تحمل الأشواق واللوعة والهيام، مع الرغبة في تجديد اللقاء في مصر وإسرائيل، لقضاء أوقات ممتعة أخرى... فبدأ يجهّز كلّ منهم بحثًا صغيرًا حول قضيّة... ممّا يشغل الشباب أو يمسّ مشاكلهم السياسيّة والتعليميّة وغيرها... وتحدّد كلّ فتاة موعدًا للشاب تكون فيه بانتظاره في المطار...

إكتشف الموساد أنّ أجهزة الأمن المصريّة متيقّظة وترصد الخطوات منذ اللقاء الأوّل، واتّخذت خطوات عاجلة لإنهاء العمليّة.

لم تكن "فائقة" الإسرائيليّة التي باع أبوها جسدها للحصول على معلومات من مصر هي الأولى ولن تكون الأخيرة... فقد انتقلت إسرائيل من مرحلة المتفجّرات والقنابل، إلى الجنس والمخدّرات، وما زال في جعبتها الكثير.

كثر الحديث والإعلان والتحقيقات الصحافيّة عن هذه الشبكة الخطيرة، ولوضع حدّ لكلّ ذلك، أعلن اللواء محمّد عبد الحليم موسى، وزير الداخليّة المصري، أنّ الجاسوس الإسرائيلي "فارس مصراتي" قد اعترف بأنّه يعمل لحساب الموساد وينتمي إلى منظّمة إسرائيليّة متطرّفة، وأنّه كان يسعى لجمع معلومات عن أهداف حيويّة وشخصيّات عامّة ودوليّة بالقاهرة.

بدأت أجهزة الأمن المصريّة في اتّخاذ سلسلة جديدة من الإجراءات والتدابير الحازمة حيال دخول الإسرائيليّين إلى مصر سواء بقصد السياحة أو أيّ مهامّ أخرى... وأصدرت وزارة الخارجيّة المصريّة، بناء على طلب الأجهزة الأمنيّة، أوامر مشدّدة للسفارة المصريّة في تلّ أبيب بالحدّ من منح تأشيرات دخول للإسرائيليّين إلاّ في

أضيق الحدود، وبعد إجراء مزيد من التحريّات، وذلك لحين صدور أوامر وتعليمات جديدة.

وبحثت وزارة الداخليّة المصريّة مشروعًا إستثنائيًا يقضي بعدم عودة السائح الإسرائيلي إلى مصر مرّة أخرى إلاّ بعد مضيّ مدّة معيّنة على زيارته السابقة، ومن المفروض أن تكون ستّة إلى ثمانية شهور، حيث ثبت من التحقيقات مع زعيم الشبكة أنّه دخل مصر هو وابنته أكثر من مرّة في خلال الشهور القليلة التي سبقت اعتقالهما تحت ستار السياحة.

وشملت التدابير أيضًا حصر الإسرائيليّين الموجودين بالقاهرة وقت مراقبة وكشف الشبكة وتكثيف التحريّات حولهم للبحث عن عناصر أخرى والتحقيق مع كلّ من كان له صلة، من قريب أو بعيد، بالجاسوس الإسرائيلي وابنته وبقيّة عناصر الشبكة.

وتمّ تشديد الحراسة والرقابة الأمنيّة على منفذَي طابا ورفح في سيناء اللذين شهدا حالات تسلّل متعدّدة من قبل الإسرائيليّين، وإن كان معظمها لمهاجرين يهود من موسكو وأوروبّا الشرقيّة بعد فشلهم في الحصول على عمل في إسرائيل.

وفضلاً عن ذلك كلّه، شُدّدت الحراسة على المتّهمين وأحيطت التحقيقات معهم بسريّة تامّة.

***

إبتداء من عمل المخبرين الضروري واسمهم في مصر "المرشدون"، الذين يقدمون المعلومات الهامّة عن مشاهداتهم وعلمهم بالأشياء التي تمسّ أمن الوطن أوّلاً بأوّل، إلى المخابرات وأجهزة الأمن، وانتهاء بالتعليمات الصادرة إلى رجال الأمن العام في مراكز الحدود المصريّة برًّا وبحرًا وجوًّا، برصد حركة حضور الإسرائيليّين

إلى مصر وعددها وتواريخها. وإنّ هذه العمليّة لم تعد سرًّا لأنّ وزارة الداخليّة المصريّة نفسها أعلنت عنها. وقد تجمّع لدى هذه السلطات معلومات هامّة تفيد بأنّ الإسرائيلي فارس صبحي نصراتي وابنته فائقة قد دخلا إلى مصر عدّة مرّات متقاربة بقصد السياحة، وكانا يتردّدان على الفنادق الكبرى بالقاهرة التي تحوي صالات ديسكو حيث أقاما شبكة كبيرة من العلاقات العامّة مع بعض رجال الأعمال المصريّين ورجال المجتمع. واستغلّت فائقة جمالها في جذب الأنظار إليها وأقامت علاقات متعدّدة مع شباب مصريّين لم تستمرّ علاقة الواحد منهم معها أكثر من يومين، كما أنّها سعت إلى الزواج من أحدهم للحصول على الإقامة في مصر، إلاّ أنّ الذي لفت أنظار أجهزة الأمن المصريّة أنّ الإسرائيلي فارس وابنته أوهما المحيطين بهما من المعارف والأصدقاء بأنّهما لبنانيّان، وإمعانًا في التخفّي استخدما اللهجة اللبنانيّة في الكلام وأتقناها ببراعة، وكانا يتحدّثان عن ذكرياتهما في لبنان المنكوب وجراحهما الناجمة عن الحرب الأهليّة التي أتت على الأخضر واليابس...

كان ذلك هو الخيط الأوّل الذي دفع بأجهزة الأمن المصريّة إلى وضع الإسرائيلي وابنته تحت المراقبة لمدّة ثلاثة أشهر تكشّفت خلالها خيوط فضيحة التجسّس الإسرائيليّة.

وبعد إخضاعهما للمراقبة الدقيقة واكتمال الأدلّة الكافية لإثبات تورّطهما في النشاط التجسّسي لحساب الموساد الإسرائيلي من تسجيل أصوات وتصوير مستندات وأوراق هامّة ورصد تحرّكات مريبة ومكشوفة، أمرت نيابة أمن الدولة العليا المصريّة بالقبض عليهما، وقرّرت الأجهزة الأمنيّة أن يُلقى القبض عليهما داخل الشقّة المفروشة التي يقيمان بها، وهي تقع بالقرب من مطار القاهرة الدولي ومعظم الثكنات العسكريّة الهامّة... وداهمت قوّات الشرطة الشقّة الكائنة بحيّ النزهة بمصر الجديدة، فقفز

الجاسوس الإسرائيلي هو وصديق مثري له، كان برفقته لحظتها، خارج الشـقّة، وترك ابنته فائقة التي قبض عليها بسهولة... وبعد مطاردة مثيرة في شوارع مصر الجديدة، أرقى الأحياء المصريّة، ألقت الشرطة القبض على الإسرائيلي فارس وصديقه المصري الذي أفرج عنه بعد ذلك، وبعد التأكّد من عدم صلته بالنشاط التجسّسي للإسرائيلي، وأنّه تصادف فقط وجوده في الشقّة. وعُثر داخل الشقّة المفروشة للجاسوس على أوراق ووثائق وصور هامّة لمواقع استراتيجيّة وحيويّة في مصر، وضبطت كميّات كبيرة من الساعات القديمة ثبت أنّه كان يستخدمها في إرسال برقيّات التجسّس، كذلك بعض الأجهزة اللاسلكيّة وآلات تصوير صغيرة الحجم، بالإضافة إلى جهازي فيديو وتلفزيون وكميّة كبيرة من تذاكر الطيران التي تثبّت دخوله ليبيا أكثر من مرّة. وعثر كذلك على تصاريح عمل وجوازات سفر مزوّرة.

في بداية التحقيقات التي أجراها المستشار "عبد المجيد محمود" المحامي العام الأوّل في مصر، أنكر الإسرائيلي فارس كلّ التهم الموجّهة إليه. وخلال ذلك حاول السفير الإسرائيلي بالقاهرة "أفراهام دوبيك" الحصول على موافقة أجهزة التحقيق المصريّة بإرسال أحد موظّفي السفارة لحضور التحقيقات، إلاّ أنّ طلبه قوبل بالرفض ولم يسمح في البداية لأيّ من أعضاء السفارة بمجرّد الالتقاء بالمتّهمين أو حتّى التحدّث معهما لاعتبارين: الأوّل، أنّ السفارة نفسها قد تكون طرفًا في عمليّة التجسّس؛ والثاني، لضمان عدم التأثير على أقوال واعترافات المتّهمين.

بمواجهة الجاسوس الأوّل بالأدلّة، انهار واعترف بالتجسّس والتخابر لحساب الموساد الإسرائيلي، وكشف عن أنّ إسرائيل تجنّد عناصر الجماعات والمنظّمات المتطرّفة بها للقيام بأنشطة تجسّسيّة ضدّ العرب مستغلّة حماستهم المتطرّفة لدولة إسرائيل وكرههم الشديد للعرب.

ثبت من التحقيقات أنّ فارس مصراتي يهودي من أصل ليبي من "مصراته"، تركت عائلته ليبيا في أعقاب حرب ١٩٤٨، وبعد إنشاء الكيان العبري، وأنّه ينتمي لمنظّمة إسرائيليّة متطرّفة.

عُلم أثناء التحقيق أنّ الجاسوس الإسرائيلي فارس مصراتي كان ينتمي تحديدًا إلى حركة "كاخ" العنصريّة المتطرّفة، التي كان يتزعّمها "مائير كاهانا"، الذي اغتيل في الولايات المتّحدة واتّهم الشابّ المصري سيّد نصير بقتله، إلاّ أنّ مصراتي ترك حركة كاخ وانضمّ إلى حركة أخرى لا تقلّ تطرّفًا. وأشار مصدر إلى أنّ أجهزة بحثت عمّا إذا كان مصراتي ينوي تدبير شيء ما لأسرة سيّد نصير المقيمة في مدينة بور سعيد إنتقامًا لمقتل كاهانا حيث انتقلت زوجة نصير وأولاده من نيويورك إلى مصر لتعيش مع عائلة زوجها، وتفرض الأجهزة الأمنيّة في مصر عليها حراسة مشدّدة.

وقال المصدر نفسه: هناك خيط آخر أكثر غموضًا سعت أجهزة التحقيق للكشف عنه، يتعلّق بما إذا كان من ضمن خطط الجاسوس الإسرائيلي التجسّس على ليبيا أيضًا بالإضافة إلى مصر، وجمع معلومات عن برنامجها النوويّ والكيميائي ومعلومات أخرى تتعلّق بتواجد منظّمات إرهابيّة في أراضيها، بالإضافة إلى الحصول على معلومات خاصّة بأماكن عسكريّة وحيويّة.

بعد أسبوع كامل من التحقيقات مع الجاسوس فارس مصراتي، ألقت المخابرات المصريّة القبض على نجله "ماجد مصراتي" أثناء محاولته عبور الحدود المصريّة الليبيّة قادمًا من ليبيا، واعترف بأنّه يعمل مع والده وشقيقته لحساب الموساد. وبعد يومين فقط اعتقلت سلطات الأمن المصريّة جاسوسًا إسرائيليًّا رابعًا إسمه "ديفيد أوفيتس"، وهو تاجر إسرائيلي كثير التردّد على مصر، ولوحظ أنّ علاقة قويّة وغامضة كانت تربطه بالجاسوس مصراتي، ووُضع تحت المراقبة بعد القبض على

أسرة مصراتي، وضبطته الشرطة وهو يقوم بتحركات ومناورات مريبة لمعرفة مصير زعيم الشبكة. وألقت القبض أيضًا على ثلاثة مصريّين تعاونوا مع عناصر الشبكة لتسهيل عمليّات التزوير لهم واستخدامهم كأدلّة في تنقّلاتهم، ولم يضبط مع المتّهمين أيّ سلاح. وكشفت التحقيقات عن أنّ المهمّة الأساسيّة للجواسيس هي رصد كافّة المعلومات السياسيّة والاقتصاديّة والعسكريّة والثقافيّة عن مصر، والحصول على معلومات دقيقة تتعلّق بالأماكن الحيويّة والعسكريّة وتحديد الأماكن الاستراتيجيّة والمنشآت العسكريّة البالغة الأهميّة، والحصول على معلومات عن خطّة التطوير العسكري وبرامج التدريب المشتركة التي تجري مع دول أخرى، ورصد أيّ تعاون عسكري بين مصر وسوريا، والحصول على معلومات متكاملة عن الأسلحة العسكريّة التي تملكها مصر، ورصد حجم وقوّة التيّار الديني في مصر وموقعه في الشارع المصري.

كذلك تضمّنت خطط الجاسوس الإسرائيلي وابنته الحصول على معلومات دقيقة خاصّة ببعض الشخصيّات القياديّة والهامّة في الدولة ودراسة تحليليّة متعمّقة لهم ولدورهم السياسي في المستقبل.

وسط كلّ هذه الفضائح والجرائم الصهيونيّة، كان موقف الحكومة الإسرائيليّة غريبًا للغاية، حيث طالبت مصر بالإفراج فورًا عن المسجونين الإسرائيليّين لعدم صحّة الاتّهامات الموجّهة إليهم. وأبدى السفير الإسرائيلي بالقاهرة تذمّره من عدم السماح له بلقاء المتّهمين ومتابعة التحقيقات والاطّلاع على ملفّات القضيّة، واضطُرّ إلى أن يطلب مقابلة وزير الداخليّة المصري اللواء عبد الحليم موسى، ووعده الأخير بالسماح له بلقاء المتّهمين ولكن بعد انتهاء التحقيقات معهم.

ونفى المسؤولون في إسرائيل أيّ صلة للموساد بالمتّهمين، وأكّد مصدر قضائي أنّ الأدلّة قويّة وواضحة وضوح الشمس، وتؤكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ تورّط إسرائيل ومخابراتها في التجسّس. وأهمّ هذه الأدلّة: أدوات التجسّس والتسجيلات الصوتيّة ودلائل التزوير والمعلومات الدقيقة التي تمّ رصدها وتصويرها فضلاً عن اعترافات المتّهمين أنفسهم...

وكنتيجة طبيعيّة لتفتيش شقّة الجاسوس فارس صبحي مصراتي بعد إلقاء القبض عليه وعلى ابنته وولده ماجد وصديق العائلة الجاسوس الإسرائيلي "ديفيد أوفيتس" الذي ادّعى أنّه تاجر، عثرت المخابرات المصريّة على عدد من الوثائق المهمّة، وتقارير جاهزة من المعلومات الهامّة عن أهداف عسكريّة واستراتيجيّة، ومعلومات عن عدد من الشخصيّات المصريّة... والمعلومات التي نُشرت عقب إذاعة البيان الصحافي من قبل وزير الداخليّة المصري عن القضيّة أفضت إلى اعتقاد السلطات الأمنيّة بخطورة هذه الشبكة، حيث عثرت أجهزة الأمن خلال تفتيش شقّة الشبكة على أدوات متقدّمة لتزوير الوثائق والمستندات الرسميّة. وكشفت المعلومات الرسميّة، في هذا السياق، عن أنّ الجاسوس الإسرائيلي استطاع بالفعل أن يقوم بتزوير بطاقتي هويّة مصريّتين له ولابنته، وأنّه كان ينوي استخدامهما للحصول على جوازي سفر مصريّين. أمّا المواطن المصري الذي اعتقلته أجهزة الأمن المصريّة مع الجاسوس وابنته، فقد أُعلن أنّ التحقيقات معه أسفرت عن عدم تورّطه في أيّ نشاط من أنشطة الجاسوسين الإسرائيليّين، وعدم معرفته بهويّتيهما الأصليّة وأُفرج عنه.

وضمن ما أعلنه البيان الرسمي المذكور، فإنّ نيابة أمن الدولة العليا المصريّة أصدرت قرارها بحبس الجاسوسين على ذمة التحقيق في القضيّة، تمهيدًا لمحاكمتهما بالتهم المذكورة.

وقامت أجهزة الأمن المصريّة بتكثيف الحراسة الخفيّة على بعض الشخصيّات التي اعترف أفراد الشبكة بأنّهم كانوا يراقبونهم ويحاولون جمع معلومات عن تحرّكاته، تمهيدًا لوضع الخطط في الموساد لاغتيالهم والاعتداء عليهم. ومن هذه الشخصيّات الدكتور "خالد جمال عبد الناصر"، وأسرة المواطن المصري "سيّد نصير" المتّهم باغتيال الإرهابي الصهيوني مائير كاهانا في نيويورك، والذي برّأته محكمة أميركيّة من تهمة قتل الحاخام كاهانا.

وفي تاريخ لاحق، فاجأ القنصل الإسرائيلي في القاهرة "روني بورات" الصحافيّين بتصريحات ناقضت كلّ الادّعاءات التي روّجها الإعلام الإسرائيلي، منذ الإعلان عن كشف شبكة آل مصرتي للتجسّس، التي دفع بها جهاز المخابرات الصهيوني الموساد إلى مصر، تحت ستار التطبيع لجمع المعلومات الاستراتيجيّة والعسكريّة عن مصر والجماهيريّة العربيّة الليبيّة.

وفيما كانت ادّعاءات الإعلام الإسرائيلي بشأن القضيّة تدور في نطاق إنكار أيّ علاقة لإسرائيل واستخباراتها بالشبكة والمتّهمين بها، سوى أنّهم إسرائيليّون فقط، فإنّ القنصل بورات اعترف في التصريحات التي أدلى بها عقب السماح له من قبل السلطات المصريّة ولسكرتير عام السفارة ومحاميها بحضور جانب من التحقيقات مع الجواسيس، بأنّه "للمرّة الأولى منذ اعتقال أعضاء الشبكة تقتنع السفارة والمسؤولون الإسرائيليّون بأنّ الاتّهام تجاوز حدود التزوير والتخابر وجمع المعلومات. وبأنّ المتّهمين فارس صبحي مصراتي وابنته فائقة وابنه ماجد اعترفوا تفصيليًّا في التحقيقات بأدوارهم، وبطبيعة المهمّات التي كلّفوا بها، وتوقيتها، وبأسماء المسؤولين الإسرائيليّين الذين يتلقّون منهم التعليمات، وبطريقة توصيل المعلومات التي يجمعونها"...

لقد أدهش القنصل الصهيوني الصحافيّين، الذين استمعوا إلى تصريحاته حين أضاف: إنّه علم من خلال التحقيق، أنّ أجهزة الأمن المصريّة أوقعت جهاز المخابرات الإسرائيلي في فخّ، وأنّها كانت على علم تامّ بتحرّكات أفراد الشبكة، من خلال مصادر معلومات أخرى، وأنّ الأمن المصري قام بترحيل فارس مصراتي، في شهر آب ـ أغسطس ١٩٩١، كنوع من التمويه، وكإجراء يتبع ضدّ كلّ أجنبي تنتهي مدّة إقامته في البلاد، وذلك كان بهدف ألاّ يتمّ إثارة الشكّ لدى الموساد في اكتشاف السلطات المصريّة لتحرّكاته. وتابع بورات: "إنّ تلّ أبيب أعادت فارس مصراتي إلى مصر بإقامة قانونيّة، باعتبار أنّ مصراتي حجر الزاوية في الشبكة التي كان أحد أهدافها الاستراتيجيّة أن يمتدّ نشاطها إلى الأراضي الليبيّة"...

وفي نهاية هذه التصريحات قال روني بورات إنّه سينقل هذه المعلومات التي اكتشفها من خلال حضوره جلسة التحقيق مع الجواسيس إلى حكومته بشكل عاجل.

أثارت هذه التصريحات ردود فعل واسعة في العاصمة المصريّة، لعلّ أغربها ما صدر عن سفارة إسرائيل في القاهرة، حيث سارع المتحدّث الرسمي باسمها إلى الاتّصال بمكاتب وكالات الأنباء الأجنبيّة في القاهرة، بهدف "تصحيح" ما نُقل من تصريحات عن لسان القنصل بورات، غير أنّ هذا "التصحيح" لم يتناول سوى أنّ بورات لم يقل إنّ ضابط الموساد دافيد أوفيتس الذي اعتقلته سلطات الأمن المصريّة بعد أيّام من دخوله إلى مصر لمتابعة قضيّة مصراتي "لم يعترف في التحقيقات". وكانت نيابة أمن الدولة العليا المصريّة قرّرت، في نهاية جلسة التحقيق مع المتّهمين التي حضرها القنصل الإسرائيلي، تجديد حبس أفراد الشبكة جميعًا على ذمّة التحقيقات في القضيّة.

كما قامت النيابة، خلال الجلسة ذاتها، بمواجهة كلّ من أعضاء الشبكة باعترافات الآخر، فضلاً عن الوقائع والمعلومات التي توصّلت إليها سلطات التحقيق، وكذلك نتائج تقارير لجان فحص المضبوطات والتقارير الفنيّة من الجهات المختصّة.

ويُذكر أنّ حكومة إسرائيل كانت طالبت رسميًّا السلطات المصريّة، في رسالة بعث بها وزير الخارجيّة ديفيد ليفي بأن تتدخّل لدى أجهزة الإعلام في مصر، لوقف ما أسماه بالحملات المعادية لإسرائيل التي تصاعدت منذ الإعلان عن شبكة آل مصراتي، والتي اعتبرها تضرّ جدًّا بصورة إسرائيل وبمستقبل العلاقات بين الجانبين.

جلسة المحاكمة التي عقدت في إحدى الدور القضائيّة، شرق القاهرة، وسط إجراءات أمنيّة لم يسبق لها مثيل، شهدت وقائع مثيرة، بدأت فور دخول الجاسوس مصراتي وسط عدد كبير من أفراد الأمن المصريّين قاعة المحكمة، فبعد أن تمّ فكّ القيود من يديه، ليمثل أمام المحكمة، انتابته حالة من الهياج الشديد، ثمّ قام بخلع ملابسه تمامًا... وهو يردّد، باللغة العربيّة، سيلاً من العبارات والشتائم البذيئة في حقّ أفراد الأمن المصريّين، ومصر نفسها، وحين تصدّى له أحد الضبّاط، ليمنعه من مواصلة خلع آخر ملابسه، قام الجاسوس بالاعتداء بالضرب على الضابط المصري، الذي لم يكن يتوقّع ما حصل، فأصيب بنزيف نقل على أثره إلى أحد المستشفيات القريبة للعلاج...

كما أصاب الإسرائيلي مصراتي، خلال ذلك، عددًا من أفراد الأمن المصريّين، الذين أحاطوا به، وأجبروه، في نهاية هذا المشهد المبتذل، بالقوّة، على معاودة ارتداء ملابسه، في حجرة ملحقة بقاعة المحكمة، أمّا ابنة الجاسوس، التي جلست خارج قفص الاتّهام، فقد ظلّت هادئة وشاردة الملامح، وكرّرت أمام المحكمة اعترافاتها بكلّ التهم

المنسوبة إليها، وإلى والدها، فيما أنكر الأخير أمام المحكمة كلّ اعترافاته في التحقيقات...

أمرت المحكمة بتحرير محضر بالواقعة، التي ارتكبها فارس مصراتي خلال الجلسة حيث وجّهت بعد ذلك النيابة العامّة المصريّة عدّة تهم جديدة إليه، منها التعدّي على رجال الأمن أثناء أدائهم وظيفتهم، وإهانة رجال الشرطة، وارتكاب فعل فاضح علني، وإثارة الشغب في جلسة المحاكمة. وقرّرت النيابة تقديمه إلى محاكمة عاجلة مثل أمامها بالفعل بعد أيّام في حينه بهذه التهم الأخيرة.

كان مندوب عن السفارة الإسرائيليّة في القاهرة قد حضر جلسة النظر في تجديد حبس مصراتي وابنته، غير أنّه رفض التعليق على القضيّة أو على ما حدث خلال الجلسة. كما حاول تجنّب عشرات الصحافيّين، الذين حاول مصراتي التعدّي على بعضهم، ممّا جعل هؤلاء يحاولون الاشتباك معه، كما ردّد عدد منهم هتافات معادية لإسرائيل ومندّدة بمحاولات ومؤامرات التخريب التي ترتكبها ضدّ المجتمع المصري تحت ستار التطبيع.

وقد حولت القضيّة الجنحيّة التي ارتكبها فارس مصراتي لتعدّيه وضربه رجال الأمن إلى محكمة خاصّة حيث تمّ الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات لجهة تعدّيه على رجال الأمن ومتابعة محاكمته عن أعمال التجسّس.

***

الإعتراف الذي أدلى به هؤلاء الجواسيس بعد القبض عليهم أفاد بأنّهم أصلاً من يهود ليبيا، وقد سبقهم أهلهم آل المصراتي، نسبة إلى مدينة "مصراتة" الليبيّة، بالهجرة

إلى فلسطين العربيّة في أوائل القرن العشرين، وبعض هذه العائلة جاء إلى فلسطين عام ١٩٤٨ بعد إنشاء الكيان الصهيوني والاحتلال الإسرائيلي.

المهمّ أنّ أصلهم العربي هو الذي رشّحهم للقيام بمهمّتهم في ليبيا ومصر. بالنسبة إلى ليبيا، كانوا مكلّفين بالاتّصال بالمسؤولين وبالشباب المثقّف وببعض العسكريّين لجمع معلومات محدّدة لم يُعرف بعد عنها شيء كثير، لكنّ أخطر ما عرف هو أنّه عُهد إليهم باغتيال العقيد معمّر القذافي والبحث الدقيق لمعرفة ما إذا كانت ليبيا تملك القنبلة النوويّة...

عندما وصلوا إلى ليبيا، أشاعوا أنّهم إنّما جاؤوا لاستعادة مواطنيّتهم والتخلّي عن جوازات سفرهم... لكنّهم ما لبثوا أن عادوا إلى إسرائيل بعد فشل مهمّتهم في ليبيا.

لكن يبدو أنّ هؤلاء "المصراتيّة" عريقون في الإجرام... فقد وجّهت إليهم عدّة تهم في إسرائيل كان من بينها قتل شقيقتهم "أمل" بسبب سوء سلوكها... ويبدو أيضًا أنّ إسرائيل عندما جنّدتهم في خدمتها، وعدتهم بتخفيف الأحكام الصادرة لمعاقبتهم. وقد تبيّن أنّهم ذهبوا إلى ليبيا بأوراق هويّات مزوّرة، كما لم يثبت أنّهم حاولوا يومًا التخلّص من أعباء التجسّس لصالح إسرائيل.

الغريب في ادّعاءاتهم أنّهم يحاولون أن يؤكّدوا على أنّهم لا يزالون مسلمين، بينما تؤكّد معلومات أخرى على أنّ احتفاظهم بأسمائهم العربيّة هو لتسهيل مهمّاتهم وتنقّلاتهم بين الدول العربيّة، لولا أنّ حظّهم البائس أراد لهم الكشف عن حقيقتهم بمجرّد وصولهم الأراضي المصريّة. والثابت من ناحية أخرى أنّ والدهم "صبحي" لا يزال مقيمًا في إسرائيل، كما أنّ هناك عددًا من أقربائهم لا يزالون نزلاء السجون الإسرائيليّة.

وقد طلب آل مصراتي، المقيمون في الأراضي المحتلّة، إلى السلطات الإسرائيليّة توكيل محام مصري للدفاع عنهم في القاهرة، وظهرت سارة زوجة فارس في التلفزيون الإسرائيلي، وتحدثت بالعبريّة بلهجة باكية وقالت إنّ فارس لم يكن جاسوسًا، بل كان مترجمًا لزميله اليهوديّ! وقالت أيضًا إنّ فارس يجهل كلّ شيء عن مصر، وإنّه كان يشتري الأثاث لحساب السفارة الأميركيّة في القاهرة ليصدّره من هناك ويتاجر به!

على أيّ حال، السفارة الإسرائيليّة في القاهرة أبدت اهتمامًا كبيرًا باتّهام فارس المصراتي وطلبت حضور مندوب عنها في التحقيق الذي يجري معه. كما قدّمت طلبات أخرى رفضت السلطات المصريّة بعضها وتحفّظت بشأن بعضها الآخر. مع ذلك لم يرفض المستشار عبد المجيد محمّد المحامي العام لقاء القنصل الإسرائيلي كلّما طلب ذلك.

أهمّ ما كان يشغل فارس هو تأمين إقامتهم في القاهرة، ويبدو أنّه سعى في سبيل ذلك إلى عقد قران ابنته على أحد المصريّين لتستطيع بهذه الوسيلة الحصول على إقامة دائمة في الأراضي المصريّة. وقد تردّدت شائعات كثيرة حول تنقّلات فائقة المصراتي في القاهرة، وبين هذه الشائعات أنّها أقامت علاقات مع بعض الفنّانات، لكن لم يتأكّد ذلك، ولذا يرجّح أنّه غير صحيح. ويقال أيضًا إنّ فارس كلّف من قبل الموساد برصد تحركّات الدكتور بطرس غالي واغتياله إن أمكن. وكان هدف إسرائيل من ذلك محاولة إثارة فتنة طائفيّة في مصر، وهو ما أخفقت كلّ الجهود الخارجيّة في التوصّل إليه، وحرمان العرب من أن يكون الأمين العام للأمم المتّحدة منهم، وقد شعر الجواسيس الأربعة منذ البداية بأنّ مهمّتهم تتّجه إلى الفشل، لأنّ أحدًا من المصريّين، سواء من الموظّفين أم من الشباب المثقّف، لم يتورّط في إقامة علاقة معهم.

من جهة أخرى، تبيّن أنّ فارس مصراتي دخل مصر تحت شعار السياحة، وكانت ابنته ترافقه، وكان فارس حريصًا على ذلك بهدف اصطياد الرجال ومحاولة الحصول على معلومات منهم، وهو ما اقترن بالإخفاق التام. وكان وهو يكلف ابنته يركّز على أبناء الشخصيّات العامّة الرسميّة المهمّة، لكنّ أحدًا من الذين اتّصلت بهم لم يقع في الفخّ.

وأثناء التحقيق مع ديفيد أوفيتس، تبيّن وجود جاسوسين آخرين معه فقُبض عليهما، وأحيلا إلى التحقيق، كما عُثر في أثناء تفتيش شقّة أوفيتس على عقد إيجار مدّته ثلاث سنوات وأنّ إيجار الشقّة قد حدّد بخمسماية جنيه شهريًا.

الذين عرفوا الإبنة "فائقة"، يقولون بأنّها لم تكن تتمتّع بجمال جذّاب، لكنّها كانت لعوبًا وتستخدم حركات الإغراء كثيرًا، وتتردّد على الفنادق وصالات الرقص والديسكو للتعرّف على أيّ عدد من الشبّان...

ولكي تبعد إسرائيل الشبهات عن شبكة التجسّس هذه، زعمت أنّ فارس مصراتي يعمل لحساب ليبيا، وأنّه تورّط في عدّة أعمال إجراميّة في رام الله، وبعد ذلك وجّه اهتمامه إلى دراسة الإسلام، ثمّ انتقل إلى "كفرقاسم" لكي يصبح قريبًا من الزعماء المسلمين، وقالت الصحف الإسرائيليّة أيضًا إنّ فارس سافر إلى مصر من أجل الإنضمام إلى الأخوان المسلمين... لكنّه طرد من مصر وعاد إلى إسرائيل عن طريق ليبيا التي كان يعمل لحساب مخابراتها... وعندما جاء أخيرًا إلى القاهرة، عمد إلى استئجار شقّة مفروشة في العقار رقم ٥ في شارع أحمد مخيمر في منطقة النزهة. وقد لاحظ سكّان الحيّ أنّه لا يستخدم هذه الشقّة إلاّ نادرًا، وكان جعلها مجرّد مركز له في القاهرة.

نتيجة هذه المعلومات الوافية عن النشاط الذي قامت به شبكة المصراتـي، تـأكّد أنّ التجاوزات الإسرائيليّة المعلنة على الأراضي المصريّة مقتصرة على ارتكـاب جرائم جنائيّة تمثّلت في تزويـر أوراق رسميّة وسندات وتزييف العمـلات الورقيّة وخاصّة الدولارات وسرقة الآثار وتهريبها، وكذلـك الاستيلاء علـى الشعَب المرجانيّة النـادرة التي تستخدم في علاج أخطر أمراض العصر: السرطان والإيدز، مـن منطقتـي نويبع وشرم الشيخ.

وجريمة مصراتي ليست جنائيّة، لكنّها سياسيّة في المقام الأول، وتمّ إعدادها بعناية فائقة من الموساد، وظهر ذلك واضحًا من التكليفات الصادرة إلى عميلهم ليرصد كافّة الأمور الاستراتيجيّة والعسكريّة في مناطق معيّنـة فـي سيناء وبـور سـعيد وبـور فـؤاد والإسكندريّة وبعض محافظـات صعيد مصر، ولـم يتمّ الاكتفـاء بذلـك بـل تصـاعدت التكاليف بتدعيـم الاتّصـالات مـع بعـض المصريّيـن عن طريـق الـتردّد علـى الأمـاكن والجمعيّات الدينيّة للوقوف على النشاط الأصولي في مصر، وخاصّة "الجهاد"، التنظيـم الـذي اغتـال الرئيـس السـادات، وكذلـك الاتّصـال بأقطـاب الإجـرام الجنـائي لـتزوير المستندات الرسميّة التي ضبطت مع الجاسـوس، وهـي البطاقـات الشـخصيّة وشـهادات تأدية الخدمة العسكريّة وجوازات السفر... للانخراط في صفـوف المصريّيـن والإقامـة الدائمة بينهم، إضافة إلى الارتباط بمشاريع تجاريّة تتطلّب البقاء الدائم في البلاد، ومنها للاشتراك في المـزادات وبيـع التحـف الأثريّـة والـتردّد علـى المنـازل وإقامـة علاقـات والوصول إلى بعض المستويات الوظيفيّة لرفع مستوى المعلومات بالتبعيّة.

وقـد اتّضـح مـن التكليفـات الصـادرة مـن أقطـاب الموسـاد إلـى الجاسـوس درجـة خطورته وصعوبة كشفه... ولـذا تـمّ تطويـر تلـك التكليفـات حتّـى وصلـت أثنـاء أزمـة الخليج إلى القطاعات الشعبيّة التي تضرّرت مـن عـودة معيليهـا مـن الخليـج، وإمكانيّـة

تصاعد ذلك للصدام مع السلطة. كذلك قياس شعبيّة الرئيس حسني مبارك، وخاصّة في أوقات الأزمة لكون هذا القياس له دور هامّ في السياسة الخارجيّة الإسرائيليّة.

إلى ذلك، امتدّت حركة الجاسوس الاستخباراتيّة إلى الأراضي الليبيّة، مستغلاً أصله الليبي والوثائق المزوّرة التي منحته الجنسيّة المصريّة للوقوف على أبعاد التقارب بين البلدين، وخاصّة بعد قرار فتح الحدود وإزالة الصعوبات... وبذلك أصبح مصراتي متعدّد الجنسيّات: إسرائيلي، مصري، ليبي. وقد كشفت تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا تلك التكليفات التي تميّزت بأنّها صادرة من مستويات عليا في جهاز المخابرات الإسرائيلي الموساد؛ وبأنّ جميعها يحمل طابعًا عسكريًّا؛ وبأنّها مرتبطة بفترة زمنيّة معيّنة؛ وبأنّ ولدي فارس: فائقة وماجد، ساهما في بعض هذه التكليفات حيث سافرا معه إلى ليبيا، وقامت فائقة بتدعيم علاقاتها ببعض الشباب المصري، وأقامت علاقات غير مشروعة معهم... وكانت تتقدّم إليهم على أنّها سوريّة أو لبنانيّة أو مصريّة بالبطاقة المزوّرة، وركّزت علاقاتها مع مستويات وظيفيّة محددّة كان آخرها مع الباحث الاجتماعي مصطفى علي حسن الذي ضبط أثناء عمليّة مداهمة مقرّ الجاسوسة وأخلي سبيله بمعرفة النيابة العامّة لعدم علاقته بالوقائع المنسوبة إلى الجاسوسة فائقة فارس المصراتي...

***

بعد كلّ هذه التحقيقات والإثباتات والوقائع الماديّة واحتمال الحكم على شبكة المصراتي بالأحكام المعروفة في مثل هذه الحالة، صدرت المفاجأة عن السلطات المصريّة المختصّة بإطلاق سراح أعضاء هذا الشبكة جميعًا وهم:

فارس صبحي مصراتي، رأس الشبكة؛ وديفيد أوفيتس، الذي سمتّه الصحافة المصريّة "ضابط المخابرات الإسرائيليّة"؛ وفائقة فارس مصراتي، التي نُسب إليها

إنشاء العلاقات الجنسيّة مع الشبّان المصريّين للحصول على المعلومات؛ وماجد فارس مصراتي، عضو الشبكة وابن رئيسها.

وقضى القرار الذي صدر عن السلطات العليا بتسليم الجميع إلى السلطات الإسرائيليّة، وقد تفاعلت بشدّة قضيّة إطلاق السلطات المصريّة فجأة لأعضاء الشبكة، رغم أنّ رئيس الشبكة فارس مصراتي سبق أن حكم عليه بالسجن لمدّة ثلاث سنوات من الأشغال الشاقّة في قضيّة منفصلة عن قضيّة التجسّس هي "إهانة العدالة المصريّة والتعرّض بالتعدّي والضرب على رجال الأمن المكلّفين بحراسته أثناء المحاكمة". فبينما كانت موجات النقد العنيف تتوالى من أوساط القوى السياسيّة وأحزاب المعارضة وقطاعات واسعة في الرأي العام المصري، ضدّ هذا القرار، باعتبار أنّه يشكّل مساسًا خطيرًا بالأمن الوطني وإهانة لأحكام القضاء المصري، تردّدت شائعات حول أنّ إطلاق المتّهمين في هذه القضيّة، كان ضمن صفقة أطلقت بموجبها السلطات الإسرائيليّة عددًا من المواطنين المصريّين، الذين اتّهمتهم إسرائيل بالتجسّس لمصلحة المخابرات المصريّة. وهذا الأمر وارد ومعقول في عالم التجسّس والمخابرات، لا سيّما وكما ظهر من الكشف عن بقاء العميل المصري "رأفت الهجّان" حوالى ربع قرن، وهو يتجسّس للمخابرات العامّة المصريّة في عقر دار المخابرات الإسرائيليّة التي تدّعي السيطرة على أمن إسرائيل.

ما إنّ تمّت صفقة التبادل هذه، حتّى أعلنت سلطات إسرائيل بعد أقلّ من أسبوع من إطلاق جواسيسها أنّها ستحاكم مواطنًا مصريًّا كانت اعتقلته سرًّا قبل سبعة شهور... وذلك بتهمة جمع المعلومات والتجسّس لمصلحة المخابرات المصريّة، وعلم أنّ اسم هذا المواطن المصري "رأفت جديد".

في ضوء ذلك سارعت الحكومة المصريّة إلى إجراء اتّصالات مكثّفة مع السلطات الإسرائيليّة من جانب، ومع كبار المسؤولين في الإدارة الأميركيّة من جانب آخر، لتأمين الإفراج السريع عن المواطن المصري.

وفي هذا السياق، حمّلت وزارة الخارجيّة المصريّة سفير الحكومة المصريّة لدى إسرائيل "محمّد بسيوني" مذكّرة شديدة اللهجة، سلّمها بسيوني إلى وزير خارجيّة إسرائيل ديفيد ليفي، وتضمّنت اعتبار كلّ سياق الوقائع الذي تمّ فيه اعتقال المواطن المصري والتحقيق معه بغير علم السلطات المصريّة، والإعلان عن اعتقاله، بعد الإفراج عن شبكة فارس صبحي، يمثّل عملاً عدائيًّا ضدّ مصر، ومخالفًا لأبسط قواعد وأعراف العلاقات بين الدول. وانتهت المذكّرة إلى ضرورة الإفراج الفوري عن المواطن المصري "وتطبيق مبدأ المعاملة بالمثل على قضيّته". وفي الاتّجاه نفسه، قامت الحكومة المصريّة باستدعاء سفيرها لدى إسرائيل، حيث التقاه في اجتماع مطوّل الدكتور أسامة الباز، أبرز مستشاري الرئيس حسني مبارك، وحثّه على المطالبة بحلّ سريع لهذه القضيّة التي أثبتت فيها إسرائيل استهتارها بجميع القيم والأعراف، خاصّة أنّه من المعروف أنّ هناك أصولاً متعارفًا عليها في تبادل الجواسيس والعملاء بعد القبض عليهم في جميع دول العالم[1]...

---

١ ـ الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧) ٢: ٥٨٥ ـ ٦٢٣.

لائحة المراجع

جريدة "الديار" اللبنانيّة.

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت، لا.ت)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، ملف التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبّور، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٩)

رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، ملفّ الاستخبارات الإسرائيليّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٧٧)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦)

الفاتح زهدي، لورنس العرب على خطّ هرتزل، دار النفائس (بيروت،١٩٧١)

الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

قلعجي قدري، مناقشة آراء العلماء والسادة الصوفيات، دار الكتاب العربي (بيروت،١٩٧٢)

مجلّة "الفكر الاستراتيجي العربي"، معهد الإنماء العربي (بيروت،١٩٨٢) عدد تشرين الأول - أكتوبر ١٩٨٢.

مجلّة "القضايا المعاصرة".

مفرّج طوني، المجتمعات الدينيّة في الشرق الأوسط، ٧ أجزاء، منشورات نوبليس، ط١ (بيروت، ١٩٩٥)

الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، ط٢ (بيروت،٢٠٠١)

Antonius George, *The Arab Awakening* (Philadelphia,1939)

Churchill Colonel, *Mount Lebanon, a Ten Years Residence from 1842 to 1852* Vol. I, (London, 1853)

Earle Edward Mead, *Turkey, The Great powers and the Bagdad Railwail* (New York,1923)

Lawrence T. E., *Seven Pillars of Wisdom* (New York,1938)

Ramsay W. M., *The Historical Geography of Asia Minor* (London,1890)

الفهرس

الموضوع	الصفحة


Bibliotheca Alexandrina
0586429
